مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الأَنْعَامِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الأنعام

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الأنعام

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

استهلت افتتاحية سورة الأنعام بالحمد ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي يعني تخصيص الشكر والثناء الكامل لله تعالى، والذي له العبودية والألوهية لا شريك له، وأن حمد العبادة يجب أن لا يكون إلا لله عَزَّ وجل، وفي هذا مدح لربنا تبارك وتعالى بما هو حق له جَلّ جلاله. ولفظ الجلالة ﴿ لِلَّهِ ﴾ بعد الحمد يفيد تقرير وتخصيص الألوهية لله سبحانه وتعالى، وانفراده بها عَزَّ وجل، وكذلك تقرير صرف العبادة له سبحانه وتعالى؛ والتي منها الحمد، وفي صرف الحمد له عَزَّ وجل اعتراف من العبد بربوبيته وألوهيته، وتوحيده بالعبادة.

وارتبط الحمد في الآية الكريمة بنعمة خلق السماوات والأرض، ونعمة الظلمات والنور، فهو الذي أظلم الليل، وأنار النهار، وكذلك نعمة خلق الإنسان ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، وإزالة كل جهل بها وعنها. فهو الذي خلق السماوات والأرض، فشملت كلمة ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ كل ما هو مرتفع من الأفلاك والأجرام وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وكذلك شملت ما بين السماء والأرض من هواء وسحاب. لأن السماء يشمل العلو وما فيه. وشملت الأرض كلما هو عليها أو خارج منها، أو بداخلها. فاستوعبت ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان، أو مما لا تدركه حواسه، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن. وأفادت كلمة ﴿ خَلَقَ ﴾ الإنشاء والإيجاد من العدم، والاختراع والابتداع.

ثم ذكر تعالى منفعتين عظيمتين هما: نعمة ظلمة الليل، ونعمة نور النهار ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ وقد ورد الظلام عاماً والنور عاماً، ليستوعب جميع حالات الظلام والنور، وأسبابها. وفيه تذكير بنعمة النور ونعمة الظلمة التي يمثلها الليل. فإن في اختلاف الليل وتغايره مع النهار آية بينة على عظمة الخالق والمدبر سبحانه وتعالى. وكذلك في تعاقب الليل والنهار آية، كما أن في اختلاف صورة وشكل الليل عن النهار آية أخرى عظيمة. وفي السياق لفت الانتباه إلى جميع أوجه الاختلاف بين ظلمة الليل ونور النهار، من حيث البرودة والحرارة، والرؤية وانعدامها أو ضعفها، والطول والقصر، وولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل، وما يمكن أن يكون في النهار، وما يمكن أن يكون في الليل من حالات سعي العباد، ومن النوم، والكسب، وما يظهر في الليل من النجوم، واختفاؤها في النهار، وظهور الظلال في النهار بأطوالها ومساحاتها، وتقلصها في الظهيرة حتى يصبح ظل كل شيء تحته، ثم تَمَدُّدُهَا حتى يغطيها الليل بسواده وهجعته، فإنها آيات دالة على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

ومن دقائق الألفاظ أن الله تعالى قال عن إيجاد السماوات والأرض ﴿ خَلَقَ ﴾ بينما قال تعالى عن الظلمات والنور ﴿ وَجَعَلَ ﴾ ذلك أن الخلق إيجاد من العدم، بينما جعل، بمعنى صَيَّر، فأوجده بغيره، فكان غيره سبب له، فالظلمات تكون بغياب المسبب لها، وهي الشمس، ويكون النور بوجود المسبب له إذا ظهر، وهي الشمس. وكذلك من دقائق هذا النص الكريم أن لفظ الظلمات جاء جمع، بينما لفظة النور، جاءت مفردة. لأن النور واحد، وعلة مصدر وجوده واحد وهي الشمس، وأما الظلمات فتتعدد أسبابها، فالتي تحجبها الشمس ظلمة، كحركة الأجرام في السماء. فبالكسوف الكلي تُظلم الأرض، وكذلك كثافة السحب، وحركة الأرض وحركة الشمس بحدوث الغروب. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى ملحظ آخر: أنه وحد لفظ النور لكونه أشرف[١] ومن فوائد الفوارق اللفظية ما ذكره الزمخشري رحمه الله تعالى: أن الفرق بين الخلق والجعل، أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، ومن ذلك ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[٢] ولكن ورد قوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ مما يفيد أن كلمة: جعل تأتي بمعنى: خلق، وتأتي بمعنى: صَيَّر، فتكون أعم في دلالتها من كلمة خلق، بحسب ما يدل عليه عموم السياق. والله تعالى أعلم. ومن الأمثلة قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ بمعنى: صَيَّر،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٧/٢)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣/٢)

وقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ أي: بمعنى: ضع على كل جبل منهن جزءا. فاختلفت دلالتها بحسب موقعها من السياق.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه رغم عِظم آيات خلق السماوات والأرض إلا أن بعض العباد كافرون، وعادلون ومنحرفون عن الإيمان إلى الكفر، فجعلوا له عديلا شريكاً ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ مما يفيد شدة ظلم هذا الإنسان إلا من رحم الله تعالى. ثم بين سبحانه وتعالى مزيداً من قدرته في عظيم خلقه، فبين الأصل الذي خُلِق منه الإنسان ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ فخلق آدم عليه السلام من طين، والذي هو الأصل للبشرية. وجاء بيان الخلق بصيغة الجمع ﴿ خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ وذلك باعتبار الأصل الذي يعود إليه ما تفرع منه، فالفروع تُنسب لأصلها. وفي معرفة هذا الأصل ما يبين للإنسان أن مادته الأصلية هي الأرض التي يمشي عليها، فيلزمه أن يتواضع ولا يترفع، وأن يطيع ربه الذي أوجده وأكرمه ونَعَّمَهُ. كما أن في هذا البيان لفت الانتباه إلى التأمل في هذا التغاير بين الطين الذي لا ينطق ولا حركة له وبين هذا الإنسان المخلوق من الطين ولكنه يتحرك ويتكلم ويفهم ويعقل ويبصر، بل ويتصرف في هذا الطين. ليظهر للإنسان عظيم قدرة الله تعالى التي تستوجب الخوف منه، وطاعته عَزَّ وجل، وأنه سيبعث من في القبور، ليكون الحساب والجزاء.

ثم بين سبحانه وتعالى المرحلتين التي يمر بها الإنسان، فالأولى: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ وهي مدة الحياة في الدنيا، والثانية: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ وهي حياة البرزخ، من موته حتى يُبْعَث. وذُكر أن الأولى: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ هي: منذ أن يُخْلَق إلى أن يموت. والثانية: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ وهي من موته حتى يُبْعَث، وهذه المدة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، فقد استأثر بها لنفسه، حيث نسب الأجل المسمى أنه عنده ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ فلا يعلمه إلا هو تبارك وتعالى. ومع هذا كله يحصل الشكك في الساعة ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ والتماري: المجادلة على سبيل الشك مع تظافر هذه الدلائل العظيمة. وأما الأجل: فهو المدة المضروبة للشيء[1] فيكون الأجل الأول: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ بمعنى مدة الدنيا، وأيضاً أجل الموت، الذي يمثل نهاية حياة الدنيا لمن مات، والأجل الثاني: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ أجل القيامة، الذي يمثل نهاية الدنيا، وايضاً هي للإنسان منذ موته حتى يُبْعَث يوم القيامة. وقيل: الأجل الأول: النوم الذي تُقبض فيه

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١١)

الأرواح، ثم ترجع في حال اليقظة، والأجل المسمى عنده: أجل الموت[١] فاستوعب السياق تلك المعاني والدلالات التي لا تعارض ولا تضاد بينها، وإنما بينت الحقائق في سياق واحد، مما يفيد غزارة الدلالة في القرآن الكريم، لتعطي فيضاً من البيان، الدَّال على الإعجاز البياني؛ الذي يُثْبِتُ ويدل على أن هذا القرآن الكريم ليس إلا من عند الله تعالى.

ومن الفوائد الإجرائية في الاستدلال: التدرج من خلق الأجرام العظيمة، وهي السماوات، ثم الأرض، ثم الظلمات والنور، وما هو متعلق بسببها من الشمس والقمر، ثم خلق الإنسان، ليدل ذلك على أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان. وهذا التدرج يبين دقة الأسلوب في نقل المعرفة والإفهام، كما أن جميع ما سبق من البيان هو استدلال على ألوهيته وربوبيته سبحانه وتعالى، وأنه المستحق للحمد وما يتبعها من فروع العبادة، وفي حمد العبد اعتراف له عَزَّ وجل بجميع النعم، واعتراف له بالعبودية والربوبية والألوهية.

ثم أكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ فهو المعبود في السموات والأرض، وهو المنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض، وله كمال العلم بأنه يعلم ما تسرون في أنفسكم، وما تعلنون، وما تعملون وما تجرحون، مما يؤكد ويبين إحصاؤه عَزَّ وجل لذلك، فيجازيكم عليه. وبهذا يَلْزَمُكُم الخوف ممن له كمال هذا العلم، فتوحدوه وتعبدوه، وترجون رحمته وجناته.

ثم بين تبارك وتعالى حال الجاحدين المتمادين في إعراضهم؛ بالرغم من جميع الآيات والحجج البالغة، التي دلت على وحدانية ربكم تبارك وتعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فهؤلاء المكذبين، كلما جاءتهم معجزة وحجة فإنهم يتمادون في الإعراض عن الإيمان، وعن تصديق الأنبياء والمرسلين، فلا يُلْقُون لها بالاً ولا اهتماماً ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فسوف يأتي هؤلاء المكذبين الصادين المستهزئين خبر استهزائهم بآياتي وحججي ورُسُلي. وهذا تهديد ووعيد شديد لهم على تجافيهم وتماديهم في الإعراض عن الحق، فإنه آتيهم وبال تكذيبهم، فلينتظروه.

وقد أجمل الله تعالى جميع أنواع تكذيبهم في كلمة واحدة، وهي الحق ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ ليشمل القرآن الكريم، لأنه الكتاب الحق المبين، ويشمل الأنبياء، لأنهم حق، وجاؤوا بالحق الواضح بأدلته وحججه، ويشمل المعجزات التي جاء بها الأنبياء، لأنها حق، كانشقاق القمر، فانطبقت بهذا المعنى على كل من كفر بنبينا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣)

محمد صلى الله عليه وسلم، وتنطبق على كل من كفر بأنبياء الله ورُسُلِهِ مِن قبل، لأن كُتُب الله تعالى كلها حق. ورُسُلِهِ حق، وهذا من الإعجاز البياني لدلالات القرآن الكريم.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ﴾

يلفت اللهُ تبارك وتعالى انتباه الصادين عنه، وعن كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم وآياته إلى حال من سبقهم من المكذبين الضالين عبر القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب، بالرغم من أنهم أشد منهم قوة، وأكثر عدداً، ومالاً، ونفوذاً، وعمارة في الأرض، فواجبهم الاعتبار بذلك. وقد بدأت الآية الكريمة بشد الانتباه من خلال السؤال الاستنكاري والتعجبي من حال هؤلاء المكذبين الذين لم يعتبروا بمن قبلهم ممن شابهوهم في الصدود، وما حل بهم، كعاد وثمود وغيرهم. وجملة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ سؤال تقريري لأخبار أقوام سابقين، تشابهوا معهم في العناد والصدود، فيقرر فيه تعالى أنه لم تنفعهم، ولم يمنعهم ما مكنهم الله تعالى فيه من أن يحيق الهلاك والدمار بهم.

وجملة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ تفيد ألم ينته إلى علم هؤلاء المكذبين الصادين خبر أولئك المعاندين من قبلهم، الذين شاع خبرهم حتى أصبح كأنهم يرونهم حقيقة، فانتهى إلى علمهم ما حل بهم عياناً. وعندما يقول الحق تبارك وتعالى لعبده أو لعباده ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ فإخباره سبحانه وتعالى يقع من الصدق كأن الْمُخَاطب به رآه رأي العين. مما يدل على أن خبر أولئك الأقوام ذاع وانتشر، واستمر ذيوعه بما يتناقله الناس عن بعضهم البعض. ودلالة ﴿كَمْ ﴾ تفيد الكثرة، فهو استفهام عن العدد الكثير من المكذبين الذين أهلكهم الله تعالى، مما يفيد التضخيم والتعظيم لكثرة تلك الأمم التي تم إهلاكها بسبب كفرها. فإن الذين أهلكهم الله تعالى من المكذبين ليس بالقليل، بل أعداد عظيمة كثيرة من الأمم المكذبة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ وتفيد كلمة

﴿ قَرۡنٍ ﴾ الأمة من الناس، وهم أهل كل عصر، وفي الحديث ما يدل على ذلك (خير الناس قرني)[١] وإن في هذا اعتبار لهم.

بل إن من صفات تلك الأمم قوله تعالى ﴿ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ ﴾ فإن الله تعالى قد أنعم عليهم بالتمكين في الأرض، فأقْدَرَهم الله تعالى على ثبات أقدامهم ومصالحهم ما لم تمكنوا بمثلهم، فجعل لهم من القوة ما يتمكنون به من البناء والتشييد، واستثمار موجودات الأرض. وإذا مَكَّن اللهُ تعالى أحداً من شيء جعل له قوة عليه، مما يفيد أنه مكنهم من استثمارها وعمارتها، ويفيد هذا البيان أن التمكين بيد الله تعالى وتوفيقه، فيسخر الذهن إلى حُسن التصريف والاستثمار والتمكن من الاستغلال والاستفادة والاستعمال، وبلغ أولئك من التمكين والقوة ما لم يمكنكم بمثله أيها الجاحدون من هذه الأمة، ومع ذلك لم تغنيهم ولم تمنعهم تلك القوة والتمكين من منع العذاب وإيقاعه بهم، فاعتبروا بذلك أيها المكذبون الصادون. فقد بلغ قوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم من التمكن ما لم تتمكن منه قريش، ومع ذلك أهلكهم الله تعالى لما كذبوا الرُّسُل.

بل من نعم الله تعالى على تلك الأمم السابقة أن أنزل عليهم الأمطار الكثيرة؛ التي تنتعش بها الأرض والناس والبهائم ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا ﴾ وكلمة ﴿ مِّدۡرَارٗا ﴾ تفيد الكثرة المتتالية، كما عبر عنه بالسماء لعلو نزوله ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ ﴾ فنسبه عَزَّ وجل إلى تعاظم السماء، وتعاظم العلو، ومنزلة العلو، لتفخيم تلك النعمة وبيان كريم تفضله. والله تعالى فوق كل علو. بل ومن مزيد فضله عليهم أن كَثَّر عليهم جريان المياه ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ ﴾ أي: من بين الأشجار، ومن بين منازلهم، مما يدل على عظيم السعة التي نالوها من الله تعالى، ولكن صدوا عن سبيل الله تعالى، وكذبوا بآيته وبرُسُلِه عليهم الصلاة والسلام، فأفناهم وأزالهم الله تعالى بإهلاكهم بسبب ذنوبهم ﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ ﴾ واستبدلهم بغيرهم ﴿ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ فحل محلهم قوم آخرون.

مما يدل على كمال قدرة الله تعالى وقوته، وإحسانه وكرمه. بما يفيد أهمية الحذر من الذنوب والمعاصي، ومقابلة نعم الله تعالى بالفسوق والعصيان والتمرد. كما يفيد هذا أن التسخير بيد الله تعالى، فإذا مَكَّن أمة أو عبداً أقْدَرَهُ على الشيء الذي يمكنه منه، فيسخره له، حتى يُحْسِن إنتاجه واستثماره، فَيُكَيِّفه بما يمكنه الله تعالى منه. فيسأل العبد ربه التمكين من الأمر الذي هو فيه، فلا حول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢٥١) برقم (٢٦٥٢)

ثم بين سبحانه وتعالى حالاً ممن تعاظم صدودهم وتعنتهم ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فلو باشر وعاين المشركون المكذبون ورأوا نزول القرآن من السماء مكتوباً في قراطيس، وهي الورق المكتوب على صفحاتها القرآن الكريم، فباشرت أيديهم ملامسة تلك القراطيس، لقال المعاندون الكافرون ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فمن شدة عنادهم أن كذبوا حواسهم، ورموا تلك الحقيقة بالسحر، بل أمعنوا في ذلك العناد حتى أضافوا الحق إلى السحر الْمُفتَرى من عند أنفسهم بصفة الوضوح، فقالوا ﴿ سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فصرفوه عن الحقيقة قطعاً منهم.

مما يفيد أن المكابر المعاند يصرف الحقيقة عن وجهها الصحيح، ويدفعها بافتراء الكذب عليها، عناداً وانتصاراً منه لهواه. فنسأل الله تعالى أن يرزقنا التواضع للحق. فمن شدة عنادهم وتكبرهم أن كذبوا حواسهم التي لو لامست القراطيس التي كتب عليها القرآن، لكذبوا أعينهم التي رأت نزوله من السماء، وكذبوا أيديهم التي لمست تلك القراطيس المكتوب عليها القرآن، وكذبوا سمعهم الذي سمع صوت القراطيس، وكذبوا محتواه الذي ينطق بالحق. ونسبوه إلى السحر الظاهر المبين على حد زعمهم وافترائهم. وهذا البيان من الله تعالى يفيد علمه السابق المسبق بحالهم، من أنه لو حدث نزول القرآن على تلك الهيئة لكذبوا به. وهذا يبين أن الله تعالى قادر على ذلك، ولكنه حكيم في تدبيره لهيئة نزول القرآن، بأن يكون منجما متفرقاً، لينزل به الروح الأمين على سيد الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم بين تعالى تمادي المشركين في تكذيبهم وطغيانهم ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ ﴾ فهَلَّا أنزل ربك عليه مَلَك، مما يدل على قوة عنادهم وصدودهم، بما يفيد أن الصاد المكابر يتحين الأعذار، ويخترع العلل الكاذبة، فلم تكفهم آيات القرآن المعجز، ولا انشقاق القمر، ولا ما عرفوه من سيرة رسوله صلى الله عليه وسلم، الذي عاش معهم أربعين سنة قبل مبعثه بالنبوة، فما جربوا عليه ما يخدش صدقه. ثم قال تعالى ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ فلو أنزل الله تعالى ملكاً كما يطلبون، ثم لم يؤمنوا به لوقع عليهم العذاب، ولن يُنْظَرُوا طرفة عين، فلن يحصل لهم تأجيل العذاب. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: جعل الله عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة[١] وجاء في الحديث أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم (إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم

(١) الزمخشري، الكشاف (٧/٢)

الأخشبين؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا) [١]

ثم بين سبحانه وتعالى صفة الْمَلَك لو أنزله ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ فلو نزلنا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ملكاً، لكان على هيئة وصورة رجل، حتى يستأنسون له، فيخاطبهم ويخاطبونه وينتفعون بما أُرسِل به، لأنهم لن يطيقوا رؤية الملك بصورته التي خُلق عليها، فإن قُوَاهُم البشرية لا تتحمل رؤية الْمَلَك على صورته، ولأصابهم الذعر والخوف، فتنتفي المصلحة من إرساله، ولهذا سيكون الملك على هيئة رجل فيما لو أرسله الله تعالى فشاهدوه. وهنا يحصل لهم اللبس الذي هو الخلط، والذي كانوا هم سبب فيه، فإن كان رجلاً قالوا: هذا رجل من البشر، وليس بِمَلَك، وإن كان ملكاً لم تستطع قواهم رؤيته والتعامل معه، فخلطنا عليهم بتخليطهم على أنفسهم. فالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة النبي من البشر. وهذا يدل على أن الإنسان خُلِق على هيئة، والملائكة على هيئة أخرى، فلا يستطيع الإنسان أن يستوعب ما يخرج عن قدرته، لهيبة صورة الملائكة، وهيئتهم، وقوتهم التي تختلف عن عالم الإنس، فلا يتحمل رؤية ما لا يطيق، ومن جانب آخر أن الإنسان يأنس لمثله، ولمن سخره الله تعالى له، وهذه من رحمة الله تعالى وقدرته العظيمة، فلم يجعل الله تعالى عالم الملائكة كعالم الإنس، وكذلك عالم الجن، وبالتالي لو كان الْمَلَك على هيئته لأنكروا عليه، وقالوا: لست ملكاً، وإن جاء الملك على هيئة بشر أنكروا أيضاً، وقالوا: لست بملك، لأنه على هيئة بشر. فحصل لهم اللبس كما لَبَّسُوا على أنفسهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ فكان الأولى لهم قبول رسالته صلى الله عليه وسلم لما فيها من الآيات المعجزات الدالة على نبوته قطعاً. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معنى ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ حتى يشكوا، فلا يدرون أملك هو، أم آدمي؟ فأضللناهم بما به ضلوا، قبل أن يُبعث الملك[٢]

ثم أكد الله تعالى منهج المشركين المكذبين بالرسول صلى الله عليه وسلم بأنه مماثل ومشابه لِمَا حصل للرسل من قبل ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتقوية له، ولإرادته وعزيمته، فقد سَخِرَ أقوامٌ

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٤٢٨-٤٢٩) برقم (٣٢٣١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٨)

بالرسل من قبلك، فكان استهزاؤهم سبب هلاكهم، فأحاطت عاقبة استهزائهم بهم، ورجع عاقبة مكرهم عليهم. وهذا يدل على خطورة الاستهزاء والتهكم والمكر، فعاقبة ذلك منه على صاحبه خطيرة وخيمة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن
يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ
الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ
هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ
إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

وجّه تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يُبلّغ ويرشد المشركين الصادين عن الإسلام إلى السير في الأرض، ثم ينظروا فيما حل من العذاب بالكفرة من الأمم التي قبلهم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فأخبرهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم وبلغهم أن يضربوا في الأرض عموماً، ثم يتأملوا ويتفكروا فيما حصل من عذاب ودمار للأمم التي قبلهم، ممن كذبوا بِرُسُلهم، فحاق بهم العذاب. وفي هذا التوجيه الرباني ما يفيد: الإرشاد إلى السير نحو معالم الحق، والتفتيش والاستعلام عن الحوادث التي تؤكد الحق وبيانه، وأخذ العبرة، والاسترشاد منها للخير والحق، كما يفيد لزوم السفر في طلب الحق واستعلامه، والاتعاظ بالغير.

كما تفيد دلالة ﴿ثُمَّ﴾ الترتيب بين أمر السفر، وبين الإفادة منه، وذلك بأخذ الدروس التي تبين الحق، والانتفاع بالسفر، وذلك بالربط فيه بين مصلحة الدنيا، ومصلحة الآخرة التي تنجي من عذاب الله

تعالى، وتحقق رضاه والجنة. فيا أيها النبي أخبر هؤلاء المكذبين بأن يضربوا في الأرض، وأن يتأملوا أخبار الأمم التي كذبت الرسل، وكيف عاقبهم الله تعالى على كفرهم، فهل تريدون أن يحصل لكم مثل ما حصل لهم؟ أم تريدون أن تتعظوا بهم، وبما حصل لهم من العقاب.

كما أن جملة ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ﴾ تفيد التوجيه لهم بالتأمل الذي يحمل التفكر، فكلمة ﴿ٱنظُرُواْ﴾ تفيد نظر العين، ونظر التأمل والتَّبَصُّر، وكلمة ﴿كَيۡفَ﴾ تؤكد وتبين علة النظر من العبرة والمآل، وتقليب الفكر في حالهم ومآلهم، فهو استفهام يفيد الاعتبار، عن كيف سيكون حالكم أيها المكذبون المشركون من بعد ما عرفتم بالذي حل بأولئك الذين تشابهتم معهم في التكذيب والإنكار؟ فكيف تصنعون؟ فهو استفهام توقف، وتدبر، وتأمل لموقف قد يمر بهم إن لم يتعظوا. وفي هذا استثارة للذهن بالتفكر في تبعات المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حال وقوع مصيبة بهم، وذلك بأخذ العبرة من غيرهم، ففي ذلك استحثاث بأن يتصوروا موقفهم وحالهم قبل أن يكونوا مثلهم، مما يفيد أهمية التفكير في الحوادث وأخذ العبرة منها، وكذلك تقليب أوجه الأمر، قبل الدخول فيه، وأن منهج القرآن الكريم في أساليبه قائم على التدبر والتفكر، إذ يُوجِّه الْمُخَاطَب توجيهاً تأملياً، وتوجيهاً تدبرياً، بما يرفع من مستواه الفكري نحو التعقل، واستبصار طريق الحق بوضوح، للأخذ به والنجاة من خلاله.

ومن جميل أساليب استحثاث العقل للتفكر في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أنه لم يبين أو يذكر سبحانه وتعالى نوع العقاب، ليكون وقعه النفسي أعظم، ومجال التفكر فيه أوسع، وكذلك لعلة تعدد أنواع عذاب أولئك الكافرين، كما قال الله تعالى في سورة العنكبوت ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾

ثم ذكر تبارك وتعالى احتجاجاً آخراً عليهم ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يوجه لهم سؤالاً استفهامياً، احتجاجياً عليهم، عن من يملك السموات والأرض وما فيهن؟ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو سؤال يستثير

الفكر نحو التعقل، ونحو الحقيقة، فلن تكون الإجابة من أي أحد من الخلق: الادعاء بأنه خَلَقَ السماوات والأرض؛ فضلا عن أن يقول أنه يملكها، ولن يقول: بأن أحداً من المخلوقين خلق وأنشأ، فَمَلَكَ السماوات والأرض وما فيهن، ولن يقول إنسان عاقل: أن السماوات والأرض خلقت نفسها. فإذاً ليس أمامه إلا أن يقول: بأن هناك خالق خلق السماوات والأرض، ومن هنا جاء الرد في الآية الكريمة مباشرة وسريعاً من الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾ لأنه لن تكون هناك إجابة غيرها، والتي تفيد كمال الملك، وكمال السلطان، فهو الذي خلق وأوجد ومَلَكَ، وهو الذي استعبد كل شيء، فإما أن يكون جوابهم أنه الله تعالى، وذلك اعترافاً منهم، أو بسلطان ما قامت به الحجة عليهم؛ بأن الله تعالى هو الذي له ملك السماوات والأرض. وبالتالي فإن الذي خلقها قادر على معاجلة عذابكم، ولكن لرحمته التي قضاها بفضله وكرمه، فإنه يمهل من يشاء من العباد إلى غاية يوم القيامة، لعلهم يتوبون.

فإن الله تبارك وتعالى قضى على نفسه الرحمة. فقال عَزَّ وجل ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فقضى تبارك وتعالى أنه رحيم، متصف بالرحمة، فلا يعجل لعباده العقوبة، بل يمهلهم ليتوبوا، فيقبل منهم الإنابة والتوبة، فبفضله ورحمته جَلَّ جلاله أمهل العباد إلى اليوم الذي يجمع فيه الخلائق، وهذا من عظيم رحمته، إذ جمع الرحمة وأشار إليها بصيغة القضاء والإثبات والثبات في موقف يُحَذِّر فيه الكافرين الجاحدين من عاقبة صدهم وكفرهم، وهذا من عظيم درجات رحمته، وفيض كرمه وجوده سبحانه وتعالى.

وقد أكد تبارك وتعالى جَمْعُهُ للعباد بلام القسم، ونون التوكيد ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فمن رحمته في هذا البيان أن حذرهم من يوم الجمع يوم القيامة، مما يوجب أن يستثيرهم هذا نحو سرعة الاستجابة، لما في ذلك من دقة البيان القائم بالحجة المستفيضة بالحث لهم نحو الاستجابة والطاعة له عَزَّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وذكر ابن جرير الطبري والقرطبي رحمهما اللهُ تعالى: أن هذا من الله تعالى استعطاف للمولين عنه؛ إلى الإقبال إليه بالتوبة[1] ومن فوائد البيان: أن هذا الجمع لا شك ولا مرية فيه ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فقد اشتمل البيان في فعل الجمع ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ على لام القسم، ونون التوكيد، وذلك لزيادة توثيق وتأكيد جمعهم يوم القيامة الذي لا شك ولا ريب فيه، فينتقم منكم بكفركم، وتماديكم في الجحود. فتخسرون أنفسكم.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/١٦٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٥٤)

ثم أظهر وبين سبحانه وتعالى بأن الخسارة متعلقة بمن لم يؤمن ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإن الذين أوقعوا أنفسهم في الخسارة هم الذين جحدوا التصديق بالحق، فكفروا ولم يؤمنوا. فخسرتم أنفسكم ذلك اليوم، لعدولكم عن طاعة الله تعالى، وعن اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، واختياركم الإيمان بالأصنام والأوثان. وقد سمى الله تعالى من لم يؤمن بالخاسرين ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لما في دلالة لفظ الخسارة من الغبن، خاصة وأن الخسارة ليست في فقد مملوك، بل في فقد النفس لنعيمها، ودخولها العذاب. فالذين خسروا أنفسهم يوم القيامة هم الخاسرون حقيقة، وهم المغبونون الذين انتفى منهم الإيمان الموجب لدخول الجنة.

ثم أكد الله تبارك وتعالى كمال ملكه بأدق حالات المخلوقين. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ومعنى سكن: أي هدأ واستقر، فإن لله تعالى جميع الخلائق، وخص الساكن بالذكر من بين الخلائق، لأن أوجه الساكن أعم دلالة من المتحرك، والمراد ما سكن وما تحرك. فَحُذِف لعلم السامع، وقيل: خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة، وقيل: المعنى ما خلق، فهو عام في جميع المخلوقات، متحركها وساكنها، فإنه يجري عليه الليل والنهار، وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة، بل المراد الخلق، وهذا أحسن ما قيل، لأنه يجمع شتات الأقوال[1] والمتأمل في تلك الأقوال يجد أن دلالاتها تعطي رحابة في المعنى، وسعة في المقصد، وأوجهاً للتفكير فيما سكن وتحرك، وفي ذلك تحريك للعقل نحو التفكر والتَّبَصُّر، وهي تشمل جميع ما خلق الله تبارك وتعالى. وفي هذا احتجاج على الصادين المعاندين لله تعالى الذي له كمال الملك والتدبير ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع أصوات ما خلق، ويعلم جهرهم وسرهم. فهو يسمع كلامكم، ويعلم ما هو منكم، بما يؤكد إحصاء ذلك وتثبيته عليهم، وقد وردت صفتين لله تعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كما جاءت بصفة العموم الدالة على الشمول، فهو سميع لكل شيء، وعليم بكل شيء، ومن ذلك ما يكون منكم من جميع الأقوال والأعمال. كما أفادت المبالغة في السمع والعلم الذي لا ينقص منه شيء أبداً.

وأفاد السياق الكريم قوة التأكيد بأن الله تعالى هو السميع البصير لا غيره، وأنه هو المخصوص بذلك، فلا يشاركه فيه غيره. فبدأ البيان باسم الإشارة ﴿وَهُوَ﴾ لقصر وتوكيد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ولإفادة القصر والحصر على كمال السمع وكمال العلم. الذي أحاط بكل شيء علماً بالسمع والبصر، وما يتبع ذلك من القدرة وكمال المشيئة. فأفادت جملة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قصر كمال السمع وكمال العلم له عَزَّ وجل، وليس لغيره من المخلوقات إلا ما خصها به من محدودية السمع والعلم، فهو المتفرد بذلك. فكيف يذهل المخلوق

---

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٥٥)

عن هذا؟ فلا يخاف ويهاب ربه، وهو السميع العليم الذي يعرف منه كل شيء. مما يفيد جهل من يتخفى بالمعاصي، وجهل من عبد غير الله تعالى. وفي هذا كمال الإنذار للعباد من معرفة وعلم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علما ومعرفة وقدرة. وكذلك فيه ترغيب للمؤمنين بأن ربكم يسمع منكم ما تدعون وتطلبون وتقولون من الطاعة، ويبصر أحوالكم، فلن يضيع مما تعملون شيئاً من الخير والطاعة. وسيجزيكم به خير الجزاء.

ثم قال تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، بأن يقول للمكذبين المشركين بصيغة السؤال الاستنكاري، الذي يستنكر به عبادتهم ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ فهو أسلوب استدعاء للتأمل والتفكر ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ كيف يمكن لي أن أتخذ غير الله تعالى ولياً والدليل قائم على أنه المستحق للعبادة لا شريك له، فهو خالق السموات والأرض على غير مثال سابق ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: ما يفيد الابتداء والاختراع. فربكم خلقها على غير سابق يماثلها. وكذلك من موجبات اتخاذه ولياً ونصيراً أنه عَزَّ وجل يتفضل على خلقه بالرزق والعطاء، ولا يتفضل غيره عليه بشيء، فهو الذي ينفع ولا يجوز عليه الانتفاع ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ وخص الطعام من بين أنواع الفضل والعطاء؛ لأنه الأقوى تذوقاً، والأقوى أثراً، وهو الأعظم مصدراً وغذاء وتقوية لقوة الإنسان، والذي تعتمد عليه جميع قواه، وبالتالي فإن قراركم يتنافى مع الحقيقة، فالولاية محصورة فيه تبارك وتعالى، فكيف ابتغي غيره عنه أو معه، مع هذه الحقائق الناصعة التي أعرضتم عنها وتوليتم.

ومن دقائق السياق أن لفظة ﴿ وَلِيًّا ﴾ جمعت جميع أنواع العلاقة بين العبد وربه، من النصرة، والحفظ، العطاء، وغير ذلك، لأن الولي هو المعطي لوليه، كما أن ولاية الخالق ليست كولاية المخلوق للمخلوق، فولاية المخلوق للمخلوق فيها تعاوض ومعاوضة في المنافع. كما تحمل هذه الآية الكريمة أسلوباً استدلالياً في إقامة الحجة عليهم، من خلال حقائق إيمان النبي صلى الله عليه وسلم، الناصعة بالدليل القائم على البرهان القاطع، الذي يجب أن يهتدوا بهدايته. كما أن في هذا تقرير لبطلان ما يعبدون ويشركون من الأصنام، فهي أصنام لا تُطعم أحداً، ولا يُطعمها أحد، وهي لا تعمل ولا تخلق، فكيف تتقربون إليها؟ فكيف يكون وليكم لا يُطعم ولا يخلق وليس له صفة توجب عبادته. بينما الله تعالى اتصف بكمال القدرة.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: أن الله تعالى أمرني أن أكون أول مسلم من هذه الأمة.

فهو أول من خضع لربه وتذلل وانقاد لأمره ونهيه من هذه الأمة، فالنبي صلى الله عليه وسلم سابق أمته في الإسلام، وهي منقبة عظيمة جليلة، ونُهِيت أن أكون على ما أنتم عليه من الشرك، فَأُمِرتُ من الله تعالى بالإسلام والاستسلام والانقياد له بالطاعة والإخلاص، ونُهيت عن الشرك. فيقطع بذلك أي تفكير لهم من أن يرجع عَمَّا هو عليه صلى الله عليه وسلم، فتظهر وتبرز لهم ثقته في نبوته وتوحيده لله تعالى.

ثم يأتي المزيد من توجيه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، فيأمره تبارك وتعالى أن يقول للمشركين ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو توجيه لهم من خلال بيان منهج عبادة النبي صلى الله عليه وسلم في علاقته بربه، من أنه مؤمن بالبعث بعد النشور، فيخاف في ذلك اليوم المهول من مغبة المعصية. وقد جاءت لفظة المعصية ﴿ عَصَيْتُ ﴾ عامة لتستوعب جميع أنواع المعاصي التي أعظمها عبادة غير الله تعالى، ثم جاء ذلك مقترن بالتهويل والتهديد من يوم الحساب والعقاب ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقد جاء الوصف لذلك اليوم بالعظمة دون بيان تفاصيله، ليتصور السامع والقارئ كل ما يمكن أن يكون في ذلك اليوم من العذاب المهول.

ثم بين وأوضح التوجيه الرباني الكريم قوة العذاب من خلال بيان حظ من تجاوزه ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فإن مَن يَصرِفُ اللهُ عنه عذاب ذلك اليوم فقد نالته رحمة الله تعالى، وتمت نعمة الإحسان إليه، فقد حصل له الفوز والظفر بالأمنيات، فكان فوزه فوزاً ظاهرا بالظفر الذي نال صاحبه فيه مُنْيَتَهُ. وقد نسب الله تعالى صرف العذاب له عَزَّ وجل، فالذي يصرفه عنه هو الله تعالى، بأمره وقدرته، وفي هذا بيان لعظيم ملكه وسلطانه وإرادته عَزَّ وجل، وأنه هو المتصرف سبحانه وتعالى، مما يوجب الخوف منه، كما نسب سبحانه وتعالى الرحمة له تبارك وتعالى ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾ وفي هذا بيان وتأكيد لملكه وسلطانه سبحانه وتعالى، وكذلك فيه بيان لرحمته، بما يستدفع المخاطبين إلى الاندفاع نحو طاعته جَلَّ جلاله، وكذلك فيه اطماع للمخاطب في سؤال رحمته ومغفرته، وأخذ الأسباب لتحصيلها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى عظيم تصريفه لأمر العبد ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يا محمد إن يصبك الله تعالى ﴿ بِضُرٍّ ﴾ من شدة في دنياك، وشظف في عيشك، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله تعالى؛ الذي أمرك أن تكون أول من أسلم لأمره ونهيه، وإن يصبك ﴿ بِخَيْرٍ ﴾ أي: برخاء في عيش، وسعة في الرزق، وكثرة في المال والولد، فإن الله تعالى هو الذي أصابك به، وأنعم عليك بذلك، وفي هذا درس لكل أحد من أن الناس بأن ما يصيبهم من أنواع

الضر، فلا يكشفه إلا الله تعالى، فعليهم طاعته وسؤاله عَزَّ وجل بأن يكشف ما بهم من ضر، وأن ما يصيبهم من الخير فهو من الله تعالى، فليطلبوه منه عَزَّ وجل ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو القادر على النفع ودفع الضر، فإنه جَلَّ شأنه قادر على كل شيء يريده، فلا يعجزه ولا يمتنع شيء يقضي به جَلَّ جلاله. وفي هذا البيان ما يستدعيهم إلى التفكير في التباين بين صفات الله تعالى، وبين صفات معبوداتهم من دون الله تعالى، فإن الله تعالى عزيز، ليس كالآلهة الذليلة المهينة التي لا تقدر على اجتلاب نفع لنفسها ولا لغيرها، ولا تستطيع أن تدفع ضراً عن نفسها ولا عن غيرها، فكيف تعبدون من كانت تلك صفاتها من العجز، وكيف لا تخلصون العبادة لمن بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزة الظاهرة.

ومن الفوائد كذلك أن دلالة ﴿شَيْءٍ﴾ استحوذت واستوفت وعَمَّت جميع مفردات الأشياء كلها: نوعاً، وحجماً، وعدداً، وصفة، وكثرة وقلة، فلا شيء يستعصي عليه سبحانه، فكل شيء ينساق له انسياقاً، فسبحان الله العظيم، كما أن دلالة لفظة ﴿كُلِّ﴾ استجمعت الجميع دون استثناء، فإن كل شيء مقهور لله تعالى، فسبحان من أعجز بيانه عباده، ومن جليل الفوائد: العلم بأن الضر لا يصيب العبد إلا بإذن من الله تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وهذا يحفز المؤمن على الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى، فلن يخرج الضر في وقوعه وتحققه إلا بإذن الله تعالى، وعليه أن يستدفع ذلك بسؤال الله تعالى أن يدفعه ويصرفه، وإن حصل سأل الله تعالى رفعه عنه، وفي الإيمان بذلك ما يتحقق به طمأنينة النفس فيما تواجه من أسباب الضر، بل ويغرس ذلك في المؤمن الشجاعة القلبية عند مواجهة ما يمكن أن يخاف منه ويخشاه، بعد الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى. وإن حصل ضر للمؤمن أدرك أن الكاشف له هو الله تعالى لا شريك له ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ فلن تكشف الأسباب بذاتها الضر، ولكن بإذن الله تعالى، مما يُعَلِّم المؤمن الخضوع لله تعالى، والالتجاء إليه، مع الأخذ بالأسباب المزيلة لما يقع من ضر، فإن الأسباب لا تعمل بذاتها إلا بإذن الله تعالى.

ثم العلم بأن الخير بيد الله تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن أراد الله تعالى أن يصيبك أيها الرسول بخير فإنه هو القادر على ذلك، فلن يمنعه أحد عنك أبداً، ومما يفيد: إن يصبك أيها العبد بخير فلا يمنعه أحد، فإنه كائن لا محالة، وهذا الإيمان له أثره في طمأنينة النفس، وله أثره عند تزاحم الناس على تحقيق الخير والمصالح، وكذلك عند سيرها وحرصها في مبتغاها، كالتجارة وغيرها من المنافع، وفي كل مطلب يرومونه ويرجونه العباد، فلن يمنع ولن يأخذ من رزقك وحقك ما كتبه الله تعالى لك. وبالتالي فإن فاتك شيء فليس هو لك. وهذا يغرس في المؤمن الطمأنينة عند الطلب، وعند تزاحم الناس على المطلوب.

وفي ارتباط إصابة الخير بعموم قدرته سبحانه وتعالى ما يبين ويفيد أنه لا عزيز على الله تعالى من الخير شيء، مهما كانت كثرته، وحجمه وندرته، فإن الله تعالى على كل شيء قدير ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهي قاعدة نفيسة في تهذيب السلوك وغرس الطمأنينة، وتحقيق التوكل الصادق على الله تعالى.

فإن في قوله جَلَّ جلاله ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قاعدة نفيسة في تهذيب السلوك وغرس الطمأنينة، وتحقيق التوكل الصادق على الله تعالى. فإن تاقت نفسه لمحبوب من فضل الله تعالى، قال لنفسه ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وإن خاف على مرغوب من أن غيره قد يأخذه عليه، هَذَّب وروَّض نفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وإن رأى في غيره ما يستوجب الوعظ بذلك قال له ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإنها قاعدة عظيمة. كما أن قوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ قاعدة في إزالة الهموم والخوف من الضر. فإن أصابه ضر توكل على الله تعالى وسأله كشف ضره، وقال ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ وإن خاف من غيره الضر قال لنفسه ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ وكذا هي قاعدة يعظ بها غيره في المواقف التي تتطلب ذلك.

فإن من صفات الله تعالى وكمال قدرته، أنه قاهر وحكيم خبير ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ فإن قوة الله تعالى قاهرة لكل مخلوقاته سبحانه وتعالى، فلا شيء يستعصي عليه عَزَّ وجل، والقاهر يدل على القوة والقدرة والغلبة، دون موافقة ورضى المقهور، فإن قهره حتمي للمقهور إذا أراد سبحانه وتعالى، ولا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه مراد الله تعالى. كما أن صفة العلو والفوقية ﴿ فَوْقَ ﴾ تدل على الاستعلاء بالعلم والحكمة والقدرة والسلطان والغلبة والمشيئة، وعلو المكانة والمكان والمنزلة. كما أن الله تعالى متصف بالحكمة ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فهو حكيم في أمره، وتدبيره، وهو ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ فهو خبير بمواضع ومصالح الأشياء، ومنافعها وأضرارها، فلا تخفى عليه عَزَّ وجل بوادر الأمور، ولا عواقبها، فإن الله عَزَّ وجل خبير بما يناسب ويصلح لكل عبد من عباده، فيما هو قليل أو كثير، نوعاً ومقداراً، حالاً وزماناً ومكاناً، فمعرفته عَزَّ وجل أكثر وأخبر من معرفة العبد بنفسه، وبالتالي فإن اختيار الله تعالى للعبد خير وأحسن من اختيار العبد لنفسه، وذلك

لكمال علمه وحكمته، مع نقص علم العبد وحكمته عن نفسه، فضلاً عن غيره. وإذا أدرك العبد هذه الدلالات كان من أسعد الناس بما يمنع أو يعطيه الله تعالى ويقدره له. وإن في فهم هذه الدلالات أثر عميق على طمأنينة وهدوء النفس، ورضاها واستسلامها لله تعالى.

ويأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المشركين الذين كذبوه ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ فبدأت الآية الكريمة بما بدأت به بعض الآيات السابقات ﴿ قُلْ ﴾ والذي يفيد الأمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يوجه لأولئك المشركين المكذبين بنبوته صلى الله عليه وسلم هذا السؤال الاستنكاري ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ أي شيء أعظم شهادة في إثبات نبوتي ورسالتي؟ فأي شيء أعظم شهادة وأكبر؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ فأخبِرْهم بأن أكبر الأشياء شهادة هو الله الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه، كالسهو والخطأ والغلط والكذب[١] وجاء الرد في الآية الكريمة مباشرة وسريعاً من الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾ لأنه لن تكون هناك إجابة غيرها، وليس هناك شاهد أعظم من شهادة الله تعالى له، وبما أنزله عليه من الآيات في شأن اثبات صدق رسالته صلى الله عليه وسلم، وأعظمها القرآن الكريم. وفي هذه الإجابة القاطعة من الله تعالى، إعزاز وقوة وشرف للنبي صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين ولما جاء به من الحجج والبراهين.

ثم قل لهم: إن الذي أكبر الأشياء شهادة ﴿ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾[٢] فهو العالم بما جئتكم به، فما أنتم رادون وقائلون به لي، فإنه عَزَّ وجل شهيد بيني وبينكم على ما أقول وما تقولون. فاحتج عليهم صلى الله عليه وسلم بأن شهادة الله تعالى على نبوته أكبر شهادة، وأن القرآن الذي جاء به، يشهد له أنه رسول الله، وهو قوله ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ ففي الإنذار به دليل على نبوته، لأنه لم يأت ولن يأتي أحدٌ بمثله، وأن فيه خبر ما كان، وما يكون، وقد وعد فيه بأشياء، فكانت كما قال عَزَّ وجل وقضى به، وأما الإنذار ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ فهو التخويف، ومعنى ﴿ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أي: من بلغ إليه هذا القرآن،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨١/٩)

(٢) المرجع السابق (١٨١/٩)

فإني نذير له.[١] قال مقاتل رحمه الله تعالى: من بلغه القرآن فهو نذير له، وقال القرطبي رحمه الله تعالى: من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً صلى الله عليه وسلم وسمع منه[٢]

ثم قال تعالى ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ﴾ فهذا سؤال استنكاري بصيغة الاستفهام، مع تقريرهم بما هم عليه من الشرك، بما يفيد الإنكار عليهم مما هم فيه من الشرك مع الله تعالى، وذلك بمعرفتهم واعترافهم أنهم يشركون بالله تعالى ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ﴾ ما يفيد بيان وتأكيد تعدد آلهتهم، وتوبيخهم على فكرهم ونهجهم السقيم الفاسد الذي يؤكده ويشهد عليه تعدد معبوداتهم وتنوعها، بما لا يصح عقلاً، فإنكم تشهدون أن مع الله تعالى الواحد الأحد؛ آلهة متعددة. فإن كنتم تشهدون بذلك فإنني لا أشهد بذلك ﴿ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾ بل ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ فإنما الله إله واحد لا شريك له، ثم يعلن صلى الله عليه وسلم براءته من الشرك، وإعلانه لتوحيد الله تعالى ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ وفي هذه المحاجة والمناظرة ما يكشف ويؤكد لهم بطلان شركهم، فإذا تعددت الآلهة تضاربت مصالحها، وإذا تضاربت مصالحها، هناك منتصر وهناك مهزوم، فلم تعد تلك بآلهة، إذ أنهم يعترفون بالله تعالى الهاً، ولكن يضيفون له غيره من الأصنام والأوثان، فكيف تضيفون لله تعالى ما لم يشرعه، بل ينفيه ويبطله سبحانه وتعالى، ويتوعد من يشرك به شيئاً.

ثم أوضح وبين الله تعالى أن أهل الكتاب الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل يشهدون بنبوته صلى الله عليه وسلم، وذلك لما في كُتُبهم من البشارة به عليه الصلاة والسلام، وصفته المكتوبة عندهم، وأن معرفتهم به كمعرفتهم بأبنائهم، كما قال الله تعالى في سورة البقرة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فجميع الرُّسُل بشروا بحمد صلى الله عليه وسلم، وصفته وبلده، ومهاجره، وصفة أمته، ثم قال تعالى عن الذين امتنعوا عن الايمان ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالذين لم يؤمنوا برسالته التي بشرت بها الرُّسُل من قبل، قد خسروا أنفسهم، وذلك بضياعها في الشرك، وفقدانها لجنات النعيم، وأوقعوا أنفسهم في العذاب المهين، فتحققت خسارة من لم يؤمن.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢/٣)

(٢)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٥٧/٦)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا
كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ
إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا
وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا
يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

تتناول هذه الآيات الكريمة حال ومشهد الذين يفترون على الله تعالى الكذب، فابتدأت الآية الكريمة بسؤال تقريري واستنكاري ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ هل هناك من هو أشد وأكثر مجاوزة في الظلم ممن اختلق على الله الباطل، فأنشأ كذباً مبتدعاً من نفسه على الله تعالى، فزعم أن لله عَزَّ وجل شريكاً، أو كذب بأدلته وحججه التي جاء بها المرسلون. فلسان الحال للجواب هو: ليس هناك أكثر ظلماً للنفس من أن تختلق الكذب على الله تعالى في أي أمر من الأمور، فكيف بالشرك، والتكذيب بالحجج والأدلة التي جاء بها المرسلون. ففي الآية الكريمة استنكار على فعل هؤلاء؛ بما افتروا على الله تعالى من عند أنفسهم من الكذب، والتكذيب والجحود بآياته عَزَّ وجل ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾. فليس هناك أكثر ظلماً يحققه الإنسان لنفسه من افتراء الكذب على الله تعالى، أو يكذب بآياته عَزَّ وجل. وكذلك هو تقرير بأن فعلهم افتراء واختراع محض. وقد سَمَّى الله تعالى صنيعهم: افتراء ﴿ ٱفْتَرَىٰ ﴾ والافتراء هو إنشاء الكذب المتعمد، واختلاقه واختراعه من غير دليل، ولا شبهة، فهو كذب محض. ثم ختم الله تعالى الآية المباركة ببيان نتيجة صنيع هؤلاء ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فقد خسر هؤلاء الفلاح لأنفسهم بهذا الظلم. وهي قاعدة بأن

الظالمين لا فلاح لهم، ولا ظفر ولا إدراك لهم للفلاح. وكذلك أن الإنسان مسؤول عن ظلمه لنفسه، وأن له القدرة والإرادة في الاختيار، فيفعل ما يحقق لنفسه الخير أو الضرر، أو يمتنع عن فعل ما يحقق له النجاة والخير والفلاح، فيكون بذلك قد ظلم نفسه، ولذلك يتحمل نتيجة ظلم نفسه.

ثم يتدرج السياق الكريم إلى بيان حالهم يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء. فقال الله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فإذا ربطت هذه الآية بما قبلها أعطت دلالة إضافية، بأن الظالمون اليوم في الدنيا، لا يفلحون يوم نحشرهم جميعاً. أي: فاذكر يوم نحشر المشرك والْمُشْرَك به، الذي هو العابد والمعبود من دون الله تعالى. فيسألهم الله تعالى ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وهذا تصوير وبيان لهم عن يوم الجمع الذي لا ريب فيه ولا شك أنه سوف يجمعهم فيه سبحانه وتعالى، ليكون إنذاراً وحجة عليهم. وجملة ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ سؤال استفهام، يفيد التقريع والتوبيخ للمشركين، وتحقيراً لشركائهم ولهم، من أن معبوداتهم من دون الله تعالى لا حول لها ولا قوة، فلن تدفع عنهم ما يرونه من مصير العذاب، وأن من يعبد ما لا حول له ولا قوة فإنما هو زاعمٌ للافتراء الذي لا حقيقة له.

وإمعانا في التوبيخ أضاف الله تعالى الشركاء إليهم ﴿شُرَكَآؤُكُمُ﴾ إلصاقاً لهم بها، وتذكيراً لهم بها ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الذين تزعمون كذباً أنهم شركاء لله تعالى، فلم تكن تلك حقيقة، بل كذباً منكم وافتراء، فأين هم اليوم؟ أين هم لِيُحَاجُّوا عنكم؟ أين هم اليوم ليدفعوا عنكم العذاب؟ أين هم اليوم عنكم لينصروكم؟ فكانت إجابتهم ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فلم تكن حجتهم ومعذرتهم وكلامهم وبليتهم حين سؤالهم عن شركائهم إلا أن تبرؤا من شركهم ومعبوداتهم من دون الله تعالى ﴿ قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فتأمل خداعهم وتكذيبهم على أنفسهم ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وذلك بإنكارهم ما وقع منهم في الدنيا من الشرك، وأما حالهم مع شركائهم، فإنهم لن يجدوا منهم شيئا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: فقدوا الشركاء، وافترق عنهم ما كانوا يفترون من المعبودات، ففقدوهم ولم يجدوهم أمامهم ما كانوا يُشركونهم مع الله عَزَّ وجل. مما يفيد التحذير من الشرك بأشد أنواع التحذير.

وفي دلالة كلمة ﴿ ٱنظُرۡ ﴾ من قوله تعالى ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ ما يفيد التأمل والتعجب من اعتذارهم الباطل، إذ ذهب ما كانوا يَدَّعُون من أن الأصنام شركاء لله تعالى، وأنهم شفعاءهم في الآخرة. فإن الإنسان قد يُوهِمُ ويخادع نفسه ليقنعها بما يهواه وبما يملي عليه الشيطان، حتى يَقْبَل الانحراف بقناعة وهمية، وليست حقيقية، مما يجب على الإنسان أن يتعقل ويعتبر، ويسأل الله تعالى التوفيق والهداية للحق والثبات عليه.

ثم يبين الله تعالى حال ما كان يعمله بعض المشركين عندما يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم آيات القرآن العظيم ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ ﴾ فمنهم من يستمع إليك حين تتلوا القرآن، قال السعدي رحمه الله تعالى: لكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع، لعدم إرادتهم للخير[١] فجازاتهم على كفرهم ومقصدهم من الاستماع، أن عاقبهم الله تعالى بالأسباب المانعة من الانتفاع بالقرآن الكريم، بأنهم لن ينتفعوا بما يسمعون. وأول تلك الأسباب المانعة لهم: قوله تعالى ﴿ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ ﴾ أي: أغطية تحرمهم من الانتفاع به، فيكرهوا أن يفهموه ويفقهوه، فلا يُلقُون لبيانه ومواعظه اهتماماً وبالاً. والثاني: ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا ﴾ أي: ثقل السمع، وذلك لعدولهم وانصرف فكرهم عنه؛ فكانت لهم بذلك سوء العاقبة، فكانوا بمنزلة من لم يعلم، ومن لم يسمع. والثالث: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا ﴾ فإن رأوا ووجدوا كل علامة وحجة دالة على رسالتك يا أيها النبي، ينكرونها ولا يؤمنون بها ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا ﴾ فيتمنعون من الاهتداء مما تأكد لهم من الحجج.

ومن شدة كفرهم أنهم يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في الحق ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ وهذا من غاية الإمعان في الكفر، أن يجادل الإنسان في الحق الواضح، وفي الآيات والنُّذُر المبينة البائنة، بل يرمون الحق بأنه مأخوذ من صحف الأولين ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: ما هي إلا قصص وأحاديث وأخبار الأولين التي يتناقلها الناس فيما بينهم من الترهات والأباطيل. فنسبوا القرآن إلى غير الله تعالى، وذلك بوصفهم له أنه أساطير الأولين، ومن الغوامض والأباطيل. فرموه بالعيب، فتعالى كتاب الله تعالى عما يقولون علواً كبيرا. وقد استجمعوا كذلك أمرين: أحدهما: ﴿ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ ﴾ أي: ينهون

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/ ١٥)

غيرهم عنه. والثاني: ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ أي: يبتعدون عنه، فجمعوا بين تحذير الناس من الاستماع إليه، وبين امتناعهم عن اتباع الحق، فإنهم لن يهلكوا إلا أنفسهم بهذا العمل الذي يقومون به ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ فلن يُهلكوا بهذا الصنيع إلا أنفسهم؛ من غير شعور منهم بفداحة ما هم فيه. وأنهم لن يستطيعوا أن يمنعوا غيرهم عن الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وأنهم لن يتعدوا بالضرر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا على ما جاء به من الحق، بل لن يتجاوز الضرر غيرهم. مما يفيد أن الذي يُخَذِّل الناس عن دين الله تعالى فإنه لن يضر إلا نفسه، وذلك تأكيداً بأن أمر الله تعالى ماضٍ، وأن دينه ظاهر على الدين كله، ولوكره الكافرون والمشركون.

ثم يبين الله تعالى صورة لواقع حال أولئك المشركين يوم القيامة ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلو رأيتهم يوم القيامة لرأيت حالاً شنيعاً ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ ولو ترى أيها الرسول حال هؤلاء الصادين المكذبين لك حين يوقَفُون على النار. وقد أورد الله تعالى وقوفهم بصيغة الماضي ﴿ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ لإفادة الجزم بوقوعه، فأورد حالهم بأنه في عداد المتحقق. وفي هذا ما يفيد الإنذار بأن يتوخوا ذلك اليوم، بالعدول عن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، فصورتهم وحالهم عندما يقفون على النار ﴿ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ ويعرضون عليها، ويشاهدونها عياناً بياناً، ويدركون ويرون مصيرهم بين أيديهم، فإن حالهم عند مشاهدتها حالة المتحسر الذي يتمنى أن يعود ليؤمن ﴿ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فحالهم ورعبهم وخوفهم قد أغنى عن وصف النار، وبيان حالها وأهوالها وتأججها. فتمنوا في الوقت الذي انقطعت فيه الأعمال أن لو يُرَدُّون إلى الدنيا ﴿ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ أي: نُرَد إلى الدنيا، وحينها لن نكذب بحجج الله تعالى وبراهينه وأدلته ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ بل نصدق بها ونؤمن ﴿ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فنكون من المؤمنين الناجين من عذاب الله تعالى. وهو بيان لحالهم وكأن الإنسان يعيشه وينظره. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يستثير الإنسان عموماً أن يبادر بالإيمان، وطاعة الرحمن، وفيها مزيد من التثبيت للمؤمنين، ودفعهم لمزيد الطاعة، والشكر والثناء لله تعالى أن هداهم للإيمان.

ثم يبين الله تعالى حالهم ﴿ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ ﴾ فقد ظهر وبدا منهم ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وأعمالهم السيئة، وتشمل أيضاً دلالات أخرى: ما كان يخفيه بعضهم عن بعض، وقيل: بدأ نطق الجوارح بما كانوا يخفون من قبل بألسنتهم، وقيل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفونه، وقيل: بدا للأتباع ما كان يخفيه الرؤساء[١] فجميع تلك المعاني والدلالات في تظافرها ما يبين انكشاف جميع ألوان وأنواع الخفايا، فاستوعب النص الكريم للآية جميع أنواع ما كانوا يخفون، أو يخفيه بعضهم على بعض، وهذه من الغزارة البيانية للنص الكريم التي استوعبت جميع الأحوال التي تكون منهم بسياق واحد.

ثم بين تبارك وتعالى أنهم لو عادوا كما تمنوا، لعادوا إلى كفرهم، لأنهم يكذبون ﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي لصاروا ورجعوا إلى ما نُهوا عنه من الشرك، وذلك لعلم الله تعالى بهم، من أنهم لا يؤمنون. وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله تعالى ثم عاند[٢] فإنهم كاذبون فيما قالوا من التمني ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فكذَّبَهُمُ اللهُ تعالى فيما أخبروا عن أنفسهم، فإنهم كاذبون في قولهم.

وقال تعالى عن منكري البعث ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ ينكرون أن الله تعالى يبعث من يموت، وأن الحياة منحصرة في الدنيا فقط، فلا بعث ولا حياة غير الحياة الدنيا. فبالتالي ينكرون العذاب، وينكرون الجنة والنار، وبالتالي لا يبالون بما يعملون، وما يرتكبون من المعاصي والآثام، لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً. وهذا الفهم للحياة يدفع الإنسان إلى الانغماس في الشهوات والتمادي فيها، وإلى الظلم، وإلى الفسوق، وعظائم المنكرات، لأنه لا يخاف عقاباً ولا يرجو ثواباً.

ثم قال الله تعالى مبيناً لحالهم يوم القيامة ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ فلو ترى يا محمد هؤلاء المكذبين القائلين ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ حين يُوقَفُون على حكم الله تعالى ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ أي حُبسوا على ما يكون من أمر الله تعالى فيهم، فيقال لهم ﴿ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ فهو تقرير لهم وتوبيخ، أليس هذا البعث الذي كنتم تكذبون به، وتنكرونه، فقد رأيتموه حقيقة. ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ وهذا اعتراف منهم بأنه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦٤/٦)

حق، بل يؤكدون اعترافهم بالقسم ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ والله إنه لحق، فيأتيهم الجواب ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فعلة هذا العذاب هو كفركم وجحودكم الذي حصدتم نتيجته بالعذاب المقيم، فذوقوه واصلوه. فقد أبان الله تعالى أثر العذاب بقوة ما يتذوق الإنسان بلسانه، والتي هي أدق الجوارح وأكثرها إحساساً وتأثراً. فَقَرَّب لهم تصور شدة ألم العذاب بقوة أثر استطعام جارحة اللسان.

ثم يبين الله تعالى فداحة من خسر الآخرة ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ فقد خسر المكذبون للبعث الفوز بنعيم الجنان، ووقعوا في العذاب. وقد رفع الله قدر ذلك اليوم بأن سماه لقاء الله تعالى ﴿ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ فأضاف اللقاء له سبحانه وتعالى، لأنه يوم مشهود، ويوم تكريم لأهل طاعته، فخسر المكذبون هذا التكريم العظيم، ووصف اللهُ تعالى مَن كذب به بالخاسر ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، فَعَظُم ما فقدوه من نعيم الله تعالى، فسماه الله تعالى خسارة، لبيان حجم ما فقدوه، لأن كلمة الخسارة تُطلق على الفقد وعلى الانتقاص للشيء الثمين، أو الشيء الذي بُذل فيه جهداً، أو على فقدان الفرصة التي لم تستغل. ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة. ولذلك لما جاءت ساعة البعث من القبور تحسروا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ ذكر القرطبي والشوكاني رحمها الله تعالى: أن تسمية القيامة بالساعة، لسرعة الحساب فيها، ومعنى بغتة أي: فجأة، وكلمة ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ بيان لغاية التكذيب أنه ممتد لغاية لحظة تلك الحسرة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا ﴾ وقوله تعالى ﴿ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا ﴾ جواب ﴿ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ﴾ فأوقعوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة، ولكن ليدل ذلك على كثرة تحسرهم[1] فندامتنا على ما ضيعنا عظيمة ﴿ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ ومن شدة الشعور بالخسارة أن اعتبروا كفرهم وإنكارهم تفريط منهم. والإفراط هو: مبالغة في التقصير والترك والتضييع، فإذا عاينوا نتيجة تفريطهم، وتبينوا خسارة صفقة بيعهم الآخرة بالدنيا، وشراء الكفر بالإيمان ندموا وتلهفوا على عظيم الغبن الذي غبنوه لأنفسهم ﴿ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ وفي هذا اليوم يحملون أحمالاً ثقيلة، حسرة على ما فاتهم، وهم في كرب وحزن على ساعتهم التي هم فيها في ذلك اليوم؛ وأيضاً على ما هو في انتظارهم ﴿ وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ يحملون آثامهم وذنوبهم على ظهورهم، فيتحول

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٦٥) الشوكاني، فتح القدير (٢/١١١)

العمل الخبيث إلى أحمال يحملونها على ظهورهم، كما ارتكبوها وركِبُوها في الدنيا ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فما أسوء ما يحملونه، إنها جملة تبين عظيم الحمل، وعظيم الذنب، وعظيم الجزاء، وعظيم التفريط، وعظيم التهاون بأمور الآخرة أثناء الحياة الدنيا ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إنها تبعث في النفس اليقظة في الدنيا، وتبعث فيها التوخي والحذر من الذنوب، وتستدفع استثمار الحياة الدنيا للفوز بالجنان في الحياة الآخرة.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ
لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن
نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ
سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ
إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يبين الله تبارك وتعالى حقيقة الحياة الدنيا، مقارنة بحقيقة الآخرة ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ابتدأ البيان الرباني الكريم ببيان حقيقة الدنيا، بأنها لعب ولهو ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وبيَّن حقيقة الآخرة من حيث الخيرية، والتفاضل بينها وبين الدنيا ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ونعتها في هذا السياق بالدار ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ دون أن ينعت الحياة الدنيا بالدار في هذا المقام، لأن في مقارنتها بالآخرة، تصبح الآخرة هي الدار الحقيقي بالنسبة للدنيا، لأن البقاء سيكون فيها، وهذا من دقائق البيان، وأيضاً ليزداد العلم والشعور بخيريتها ومنزلتها وديمومتها، لأن الدار هو المنزل، وهو مكان الإقامة. فأعمال الدنيا يغلب عليها صفة اللعب واللهو، الذي لا ينتفع به الإنسان في آخرته، بل يأخذه اللعب واللهو عن مصالح الآخرة، ويلهيه عنها، وهذا الوصف للدنيا باللعب واللهو يفيد التحذير من مغبة ما يجد الإنسان في الدنيا من مغريات الإلهاء عن مصالح الآخرة، التي هي خير من الدنيا، بما يستثير الانتباه والتحوط والتحرز من لعب الدنيا ولهوها، والاشتغال عن ذلك بما ينفع في

الدار الآخرة، لأنها خير للمتقين في الدنيا من دنياهم، وأما الكافرون فلن تكون لهم الدار الآخرة خير وأفضل، لما لهم فيها من الجزاء الأليم، والعذاب المقيم.

واللام في قوله تعالى ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ﴾ لام القسم، والدار الآخرة هي: الجنة. وأما اللهو: فهو ما يُشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، وهو أداء مقصود للمتعة الحسية أو المعنوية، وغالباً ما يتحكم اللهو في صاحبه، فيلهيه عن الحق، وعن المصالح. وأما اللعب، فهو: أداء مقصود للمتعة النفسية والحسية، وقد يكون بالبدن وقد يكون بالفكر، وقد يتحكم اللعب في صاحبه إذا تولع قلبه به، حتى يلهيه ويشغله عن الحق، فاللعب يشاطر اللهو في الاشتغال عن الحق. واللهو أعم من اللعب، فيدخل فيه اللعب وغيره مما يلهي. وبالتالي فإن بينهما خصوص وعموم، فإذا انفرد أحدهما دل على الآخر، وإذا انفرد اللهو جمع معه اللعب، وإذا اجتمعا دل على تخصيص اللعب وتعيينه لبيان خطر أثره من بين أنواع اللهو. وكذلك إذا اجتمعا كان الفرق في المساحة، فمساحة اللهو أوسع من اللعب، فقد يكون اللهو بالاستماع أو بالنظر، أو بهما معاً، ولا يكون ذلك في اللعب، لأن اللعب ممارسة فعلية. وغالباً ما يكون اللعب بقصد المتعة، واللهو بقصد مضيعة الوقت والتشاغل، ولا يمنع أن تدخل فيه المتعة.

وجاء الوصف للدنيا باللهو واللعب، للغالب على أهلها وللتحذير من ذلك، لأنه انشغال بها عن الآخرة. وما الحياة الدنيا في سرعة انقضائها وانقطاعها وقصر مدتها إلا كمثل الشيء الذي يُلعب به، ثم يُفْرَغُ منه، وكذلك ما أمر الدنيا والاشتغال بها إلا لهو ولعب، وأما فعل الخير فيها، فهو من عمل الآخرة، والذي يتناسب مع خيرية الآخرة، لأنه يُوصل لخيرها، وهي الجنة. فأهل الدنيا على الغالب الذي يغلب عليهم فيها أن اشتغالهم فيها هو اشتغال لها، فيكون لهو ولعب، لا اشتغال بما أُمروا به، فتكون الحياة الدنيا لهو ولعب لهم، لأنه ينقضي ما هم فيه، ولا يستفيدون منه في الآجلة، بل يفقدون به خير الآخرة. فاللعب واللهو اشتغال عما ينفع. فجاء الوصف للدنيا باللهو واللعب، للغالب على أهلها وللتحذير مما فيها من اللعب واللهو.

ومن الدلالات البيانية أن قوله تعالى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ اشتمل على النفي والاستثناء، فالنفي ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ والاستثناء ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ مما يفيد الحصر، فأعطى هذا الأسلوب البياني ما يغلب على الدنيا، سواء في قِصر مدتها، كمن لعب ثم فرغ من لعبه، أو من اشتغل فيها بها، فهو حال من يلعب ويلهو بشيء لا مصلحة آجلة له فيها.

وقد بين الله تعالى منزلة ومكانة الآخرة ببيان فضلها وأفضليتها على الدنيا ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ كلمة عامة، قد شملت جميع أنواع الخير، واستوعبت جميع أنواع ودرجات المفاضلة، مما يغني عن التفصيل في هذا السياق، ودليل على أنه خير لا مجال لوصفه من كثرته وتنوعه، فإذا

كانت الدنيا بلهوها ولعبها ينشغل بها الإنسان، فإن متاع الآخرة أعظم مما يشغلكم في الدنيا من لهوها ولعبها، وأن خير الآخرة ومتاعها محصور للمتقين ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فهي خاصة للمتقين في الدنيا، الذين لم يشغلهم اللعب واللهو عن تقوى الله تعالى، وجمعت كلمة ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ ما يوجب أن تكون النفس في وقاية مما يُخَافُ منه، وهي حفظ النفس وصيانتها من الإثم، بترك المحظور، والعمل بما أمر الله تعالى به، والانتهاء عما نهى عنه. وذلك خوفاً من الله تعالى، ورغبة وطمعاً في رحمته وعفوه، وفيما عنده من خير الدنيا والآخرة.

ثم انتهت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ سؤال استفهام، يستحث فيه سبحانه وتعالى التفكر والتعقل، لترك القليل الفاني وأخذ الكثير الباقي وتقديمه عليه. فهو سؤال يفيد تقرير الحقيقة، ويفيد التوبيخ لمن لم يسلك مسلك العقلاء، وفيه أسلوب الدعوة للحق من خلال المقارنة والبيان، وعدم اغفال حقيقة الدنيا، بل وصفها بما هي عليه من الحقيقة، بأنها مليئة بما يلهي الإنسان عن العمل للآخرة، وهو بيان تحذيري من مغبة واقعها. ولكن التزهيد فيها هو تزهيد تصحيح واستثمار واستغلال، لا تزهيد هجر وترك، بل هو تزهيد توقي من الالتهاء بها عن الآخرة، وحكمة ذلك ليظهر المطيع من العاصي، كما قال الله تعالى في سورة القصص ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ فهذا هو منهج التعامل في الدنيا، فقد جمع الله تعالى فيه منهجية مسلك المتقين في الدنيا.

وفي ذلك تسلية من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تبارك وتعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ لقد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، وبحزنك وأسفك على ما قالوا، مما يبين حجم معاناة النبي صلى الله عليه وسلم من تكذيبهم، وردودهم للنبي صلى الله عليه وسلم. ثم بين تبارك وتعالى تفاصيل كذبهم ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فإن تكذيبهم ليس متعلق بشخصك، ولا بالذي جئت به من عند الله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ فإنهم لا يتهمونك بالكذب في نفوسهم، لأنهم يعرفون حقيقته صلى الله عليه وسلم، وبالتالي لا ينفون صدق ما جاء به صلى الله عليه وسلم، طالما أنهم لا يكذبونه، بدليل ما تضمنه النص الكريم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ إنهم لا يكذبون البراهين، ولكن يجحدونها، فيصدون عنها، لأن الجحود: نفي ما في القلب إثباته، كما جاء في سورة

النمل ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

فنكرانهم هو نكران جحود. وكلمة ﴿ يَجۡحَدُونَ ﴾ تفيد الإنكار بعد العلم، فإنهم ينكرون ما يعلمون أنه الحقيقة، فإنهم ينفون وينكرون ما استقر في أنفسهم من آيات الله تعالى؛ من أنها حق، ولذلك استقام معنى الجحود مع وصف الله تعالى لهم بالظالمين ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ فالظالم هو الذي ينكر الحق الذي يعرفه، سواء كان الحق معرفة وعلماً، أو حجة وبرهانا، أو كان الحق مالاً، أو مادة. فجحودهم هو جحود ظلم وتعدي على الحق الذي استقر في نفوسهم. وهذه من غزارة دلالة البيان والربط بين الأوصاف ودلالات الألفاظ، فجاء البيان آية من آيات الله تعالى في إعجاز ترابط ألفاظه ومعانيه ودلالاته. وهذا يدل على أن إنكارهم للحق هو إنكار افتراء وعناد، لا إنكار شبهة. ولذلك جاء نعتهم بالظلم حقيقة لمسلكهم ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فصفتهم: أنهم ظالمين إلى درجة أنه مع تصديقهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم صادق لا يكذب، وما جربوا عليه كذباً، إلا أنهم مع ذلك يُكَذِّبُون ما آتاهم به من آيات الله تعالى مع يقينهم بأنها صحيحة.

ومن مزيد التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيته، هو بيان حال الرُّسُل من قبله صلى الله عليه وسلم، فقال الله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ فهناك رُسُل سابقين كذبتهم أقوامهم، بما يفيد فلا تبتئس ولا تحزن، فهذه سيرة من كانوا قبلك. مما يفيد حاجة الإنسان للدعم المعنوي، وحاجة الداعية للقدوة، والتذكير له بما يشد عزمه، ويقوي إرادته، بما يُذْهِب عنه الحزن والأسى، بل ويمتد فائدة ذلك إلى كل نشاط وعمل يقوم به الإنسان، ويواجه فيه تحديات من الصعوبات والعوائق، وكذلك يفيد أن الحق له من يعاديه ظلماً وبطراً، وأن من الناس من لا يقبل الحق عناداً وتكبراً، وإذا كان هذا مع الرُّسُل، وفي مصير حاسم، وهي الجنة أو النار، فكيف بمن هم دونهم من الناس، وكيف في مجالات الحياة المختلفة التي هي دون الآخرة.

ثم يبين سبحانه وتعالى منهج تعامل أولئك المرسلين مع أقوامهم ﴿ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ ﴾ فكان الصبر سلاحهم على تكذيب أقوامهم لهم، بل تجاوز الأمر من التكذيب إلى مد سلطان الأذى ﴿ وَأُوذُواْ ﴾ فصبروا على أنواع الأذى، ومن غزارة البيان أن كلمة ﴿ وَأُوذُواْ ﴾ استوعبت أنواع وأصناف الأذى التي واجهها كل نبي، على اختلافهم، واختلاف نوع الأذى، ثم بين الله تعالى امتداد زمن صبرهم، بأنهم التزموا به حتى تحقق نصر الله تعالى لهم ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ مما يفيد أن عليك وعلى المؤمنين الصبر، فإن الله تعالى سينصرك عليهم يا أيها النبي كما نصر رُسُلَه من قبل، فلا تحزن، واصبر على ما يقولون، وعلى تكذيبهم، وعلى أذاهم، ليكون تحقق هذا النصر آية من آياته سبحانه وتعالى، ولقد وعد سبحانه وتعالى بالنصر فحصل وتحقق، فكان آية عملية باهرة. كما أن في هذا التوجيه من الله تعالى تطمين للنبي صلى الله عليه وسلم، ولمن آمن معه.

ثم بين تعالى تأكيده لوعده ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فلن يتبدل وعد الله تعالى بالنصر لك ولعباده المؤمنين. وجاء التأكيد على هيئة قاعدة عامة ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فإي وعد قد وعد الله تعالى به، فهو ماض كما وعد، فلا تبديل ولا ناقض لما وعد، ولا لِمَا حكم. ولا مبدل لِمَا أخبر به، ولا لقضائه، فإن قضاء الله تعالى نافذ كما يقضي. ثم بين جَلَّ جلاله لنبيه صلى الله عليه وسلم، أنه قد جاءك ووصلك خبر المرسلين ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: ورد إلى علمك من تكذيب أقوامهم لهم، ثم انتهاء الأمر بنصر الله تعالى لهم، بما يفيد ويعني أن حال النصر لك أمراً مؤكداً إذاً، كحال النصر لمن سبقك من الْمُرْسَلين.

ثم أوضح سبحانه وتعالى حال النبي صلى الله عليه وسلم وتألمه من إعراض قومه، فكان يعظم ويشق عليه إعراض من أعرض عن دين الله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ وكلمة ﴿ كَبُرَ ﴾ تدل على تعاظم إعراضهم على نفس النبي صلى الله عليه وسلم، لما كان يحمله عليه الصلاة والسلام من مشقة الحرص على إسلام قومه، وعظيم ما يحمله من هم توليهم، فشق عليه ذلك كثيراً، بسبب حرصه وحبه صلى الله عليه وسلم الخير لهم، ولما يعرفه من مغبة هذا التولي والإعراض، والذي سيؤدي بهم إلى عذاب النار وبئس المصير. فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ فإن استطعت أيها الرسول صلى الله عليه وسلم أن تجد طريقاً في الأرض، أو ما ترقى به إلى السماء، لتأتيهم بما يجعلهم يؤمنون فافعل. وقد ذكر الزمخشري رحمه الله تعالى عن دلالة الآية الكريمة: أي إن استطعت أن تجد منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تأتيهم بآية يؤمنون بها ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ فافعل، يعني أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه صلى الله عليه وسلم على إسلام قومه، وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بها، رجاء إيمانهم، وقيل: كانوا يقترحون الآيات، فكان يود أن يجابوا إليها. لتمادي حرصه على إيمانهم صلى الله عليه وسلم، فقيل له إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله[١] ومعنى ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ أي: بعلامة وبرهان على صحة قولك غير الذي أتيتك، فافعل[٢] وهذا يبين قدر حرص النبي صلى الله عليه وسلم على غيره من المعرضين عن دين الله تعالى، وذلك شفقة عليهم، ومحبة للخير لهم، ليكون قدوة للمؤمنين في حرصهم على دعوة غيرهم لدين الله تعالى. وهذا يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك إلا ما يمكنه الله تعالى منه،

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١٩/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٦/٩)

ويبين أن لله تعالى حكمة فيما يقضي، فإن الله تعالى يعلم أن ما أنزله من القرآن العظيم لا تضاهيه حجة، ويعلم ما لا يعلم النبي صلى الله عليه وسلم من حال كل شخص فيما لو تحقق ذلك، فإن الله تعالى يعلم أنهم لا يكذبونه، ويعرفون صدقه وصدق ما جاء به، ولكن كفرهم هو كفر بجحود.

ثم بين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين: أن هداية الناس جميعاً ليست ممتنعة على الله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فلو أراد الله تعالى هدايتهم، لجمعهم على هدايته جميعاً، ولكن لسابق علم الله تعالى بمن يهتدي وبمن لا يهتدي، فإن منهم من يهتدي، ومنهم من يصر على كفره وامتناعه عن الإسلام بجحوداً، بالرغم من قوة آياته، ووضوح براهينه وحججه سبحانه وتعالى. وبالتالي يكون المعنى: فمهما كان الحرص منك على من سبق علمي بهم، فلن يحدث منهم الإيمان ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فلا تكنن ممن لا يعلم: أن لو يشاء الله تعالى لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه[١] مما يدل على أن علم النبي صلى الله عليه وسلم محصور فيما يُعَلِّمُه اللهُ تعالى، وهذا ليفهم ويعلم الناس أن هداية الله تعالى ليست ممتنعة للخلق، ولكن عِلْمُ الله تعالى سابق لما سيكون من العبد قبل أن يخلقه تبارك وتعالى، فعلمه واسع عظيم عَزَّ وجل.

ثم بين سبحانه وتعالى صفة الذين يستجيبون لله تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ فالذين يستجيبون لك هم المتصفون بالسماع والاصغاء والتفهم، وهم الذين يريدون الحق، فيقبلون ما سمعوا، وينتفعون بما علموا، وهم المؤمنون. فهناك سماع استهداء وطلب للحق، وقبول، وهناك سماع تكبر وعناد، وهو سماع العاصي المعاند، كما قال تعالى عن بني إسرائيل في سورة البقرة ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾

ثم وصف الله تعالى حال الذين لا يستجيبون ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فحال الذين لا يستجيبون كحال الأموات، لأن قلوبهم ميتة كموت الأموات ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فشبه الله تعالى أموات القلوب بأموات الأجساد. فيبعث الله تعالى أولئك الكفار مع الموتى ليوم الحساب، وأما حال المؤمنين فهو حال أهل القلوب الحية، فيستجيبون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأما الكفار فلا يستجيبون حتى يبعثهم الله تعالى، ثم يحشرهم كفاراً، فيجيبون اضطراراً. وكذلك يحمل المعنى دلالة أخرى، ذكرها أهل التفسير: أن المقصود بهم: الأموات حقيقة، ضربهم الله تعالى مثلاً، والمعنى أن الموتى لا

---

(١) المرجع السابق (٩/٢٢٨)

يستجيبون حتى يبعثهم الله تعالى، فكذلك الذين لا يسمعون[١] وكلا المعنيين يتضمنه ويستوعبه النص الكريم، فاتسعت دلالته، وكثرت فائدته، وهذا إعجاز بياني في تظافر الأوجه، دون تعارض، فسبحان من أعجز ببيانه عباده. وبالتالي لا يشق عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك، وعن تصديقك، وعن دعوتك لهم بعد ما علمت هذا.

ومن شدة تعنت وعناد الكافرين أنهم يطالبون ما يشتهون من الآيات ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ وفي هذا تأكيد وبيان لعلم الله تعالى السابق بأنهم يتمنعون عناداً وجحوداً، فلا يؤمنون، بل يكابرون. ويقولون هلا أُنْزِلَت عليه علامة، مما يدل على جحودهم لآيات القرآن الكريم، الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وفي مرادهم ومقصدهم بالآية هنا هو نزول الملائكة على مرأى منهم ومسمع، وقد بين الله تعالى هذا المطلب في أوائل هذه السورة ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ ﴾ فأمر الله تعالى أن يقول لهم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فإن الله تعالى قادر على أن ينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم حجة على ما يريدون ويسألون، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف، الذي هو الابتلاء والامتحان. وأيضاً لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها، بل سيعاجلهم العقوبة[٢] ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فأكثرهم لا يعلمون حكمة الله تعالى، من أنه سبحانه وتعالى قادر على أن ينزل الآية، غير أنه يمهل لهم، فلو أنزلها وامتنعوا لعاجلهم الهلاك. فسبحان الله العليم الحليم الحكيم.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١ ﴾

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/١١٣)

يخبر الله تعالى عن عظيم خلقه فيما يدب على الأرض ويطير بجناحيه أنهم أمم أمثال جنس البشر ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ﴾ فليس هناك نوع من أنواع الدواب التي تدب على الأرض، أو الطيور التي تطير بجناحيها إلا وهي أمم، كالأمم البشرية، مما يدل على كثرتها في العدد، وكثرتها في النوع الواحد، وكذلك كثرة أصنافها، وهذا تبيان لعظيم مخلوقاته سبحانه وتعالى، وأن لها من الخصائص ما يتفق مع نوعها؛ ومع حكمة وعلة خلقها. ودلالة كلمة ﴿ دَآبَّةٍ ﴾ من قوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ جمعت جميع ما يمشي على رجليه، أو على يديه ورجليه، وكذلك جمعت جميع الزواحف، وجميع ما كان دَبُّه على الأرض قفزاً، أو غيرها مما يتباين الناس في مشاهدته، بحسب نوع ما عندهم، لأنها جميعاً تدب على الأرض.

وجمعت دلالة كلمة ﴿ طَٰٓئِرٍ ﴾ جميع ما يطير فوق الأرض، أو ما كان يجمع بين الطيران والمشي، وأكد الله تعالى ذلك ببيان خاصية الجناحين ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾ تأكيداً بيانياً لزيادة الفهم، وزيادة في التعميم والإحاطة. يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن ذكر الجناحين: تأكيداً وإزالة للإبهام، فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر، تقول للرجل: طِر في حاجتي، أي أسرع[١] فإن لذكر الجناحين له مغزى بياني، فسبحان الله العظيم، كما أن في ذلك لفت الانتباه لعلة الطيران، وهما الجناحان، وفي تثنية الجناحين ﴿ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾ ما يدل على أنه لا يطير بجناح واحد، وأفاد كذلك أن توازن الطائر في الهواء لا يكون إلا بجناحين، وكذلك عظيم خلق الخالق، وحسن تدبيره وإبداعه سبحانه وتعالى.

وفي ذكر الطير بما ميزه من الجناحين، وبما كان سبباً له على الارتفاع والعلو ما يستثير الفكر والتفكير في مخلوقات الله تعالى، وعظمة تكوينها، وإبداع تنوعها. وأن هذه المخاليق هي أمم ﴿ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ﴾ فإنهم خلق كثير مثل خلق البشر، وكلمة ﴿ أُمَمٌ ﴾ تفيد الجمع والكثرة والتعدد والتنوع، وكل أمة هي جماعة لا حصر لأعدادها، كما أن البشر خلق كثير لا حصر لهم، كما تفيد المماثلة في التوالد والتكاثر مثلكم، وأيضاً الهلاك والموت مثلكم، والأكل والشرب والتنفس مثلكم.

وفي قوله تعالى ﴿ أَمۡثَالُكُم ﴾ ما يفيد التشبيه من حيث التنوع، والكثرة، ومن حيث فهم بعضها لبعض، فكل أمة يفهم بعضها بعضا؛ بما فتح الله تعالى عليهم من أسباب الفهم، سواء بالحركة، أو الصوت، أو غير ذلك من وسائل التفاهم. قال عطاء رحمه الله تعالى: أمثالكم في معرفة الله تعالى، وقال الزجاج: أمثالكم في

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧٠/٦)

الخلق والموت والبعث، وقال ابن قتيبة: أمثالكم في كونها تطلب الغذاء، وتبتغي الرزق، وتتوقى المهالك[١] وهي أمم يقتص الله تعالى بينها، كما جاء في الحديث (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[٢] وجميع تلك الأفهام تتعاضد ولا تتعارض، مما يبين أنها أمم أمثالكم في الكثير من الخصائص، وليس في جميعها، حتى التسبيح لله تعالى، فإنها تسبح الله عَزَّ وجل، كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فلو تأمل الكفار ذلك لكانت آيات كافيات لهم، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وموضع الاحتجاج من هذه الآية: أن الله تعالى رَكَّب في المشركين عقولاً، وجعل لهم أفهاماً ألزمهم بها أن يتدبروا أمر النبي صلى الله عليه وسلم، ويتمسكوا بطاعته، كما جعل للطير أفهاماً يعرف بها بعضها إشارة بعض[٣] وفي هذا دلالة على عظيم خلقه تبارك وتعالى، مما يدل على عظمته وكمال قدرته، وسعة سلطانه، ودقة تدبيره لهذه الخلائق التي تنوعت في مهامها، وخصائصها، وأشكالها وصورها، وجمالها، وتنوع مطاعمها، فيهمن سبحانه وتعالى عليها كلها، خلقاً وتدبيراً، ويكفل لها ارزاقها جميعاً.

ثم بين الله تعالى حصره لكل شيء ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍ ﴾ فمع كثرة ما خلق تبارك وتعالى إلا أنه ما ترك شيئاً إلا وقد كتبه في أم الكتاب ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يحشر الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير، وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾[٤] فلا شيء يحدث إلا وقد سبق الكتاب إلى قيده وإثباته، ولا يحدث شيء في تلك الأمم ولا في غيرها إلا بمشيئته عَزَّ وجل. وخص الله تعالى من المذكورات الإنسان، والدواب، والطائر، وجميعها محسوسات للإنسان، يشاهدها ويخالطها، ولم يذكر من العوالم الغيبية شيء، من الملائكة، والجن، ومما لا يعلمه الإنسان، وذلك لمخاطبة جنس الإنسان بما يعلمون من المحسوسات، ليستدلوا بها على ما لا يعلمون ولا يشاهدون من عالم الغيب.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٦)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٤/١٩٧) برقم (٢٥٨٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢٦)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٢٣٦)

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى ما يدل على ألوهيته وربوبيته وعظمته، وعظيم خلقه، ذكر سبحانه وتعالى الذين لا يستجيبون له أمام هذه الآيات الباهرات من عظيم صنعه ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ فالذين كذبوا بعد بيان هذه الحقائق من الآيات الباهرات، فهم بمنزلة الصم البكم ﴿ صُمٌّ وَبُكۡمٌ ﴾ فالأصم لا يسمع كلام من يكلمه، والأبكم لا يتكلم، فلا يتلفظ بما في قلبه، فهو عاجز عن ذلك عجز قدرة، وأما الموصوفون بهذا، فقد أخذوا صفة الأبكم في النطق والكلام، فلا ينطقون بما استقر في قلوبهم من الحقائق، بأن هذه الآيات كافيات للإيمان، وهم كذلك بمنزلة من استعار صفة الأصم الذي لا يسمع ما يُقال له. فإن هذا الصاد المكابر استعار صفة الأصم والأبكم تجاه من يخاطبه، وتجاه ما يسمع من الحق، فحاله كحال من منع أذنيه وأمسك لسانه، فهو تشبيه لكل من كفر وصد عن الإيمان بما أمر الله تعالى به. فهؤلاء في ظلمات الكفر يتيهون.

وجاءت كلمة ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ بصيغة الجمع، لتفيد كثرة أنواع ظلمات الكفر، التي منها الإنكار، والشرك، والإيمان ببعض والكفر ببعض. فالدواب والطيور اهتدت لمصالحها، وهؤلاء نفروا عن مصالحهم، فكانت تلك المخلوقات خير منهم وأفضل.

ثم بين سبحانه وتعالى قدرته ومشيئته على هذا الكافر ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فمن يشأ الله يميته على الكفر، ومن يشأ يجعله مسلماً، ويميته على ملة الإسلام، فيجعله على صراط مستقيم. فالهداية والتوفيق منه سبحانه وتعالى، مما يفيد أن لو أراد الله تعالى أن يلزم الكافر بالهداية لألزمه بذلك، فكفره لا يعني عدم القدرة على إرغامه، فمشيئة الله تعالى ماضية إذا ما أراد شيئاً، فهؤلاء أرادوا الكفر واختاروه، ومشيئة كل أحد تحت مشيئة الله تعالى، ومن يشاء الله تعالى أن يثبته على الصراط والطريق المستقيم، فيثبته ويوفقه، فهو المتصرف في خلقه بما يشاء. وهذا يستدفع المؤمن أن يسأل الله تعالى الثبات على الطريق المستقيم، ولا يغتر ولا يتباهى، أو يتنقص من أحد، فالملك لله تعالى، وعليه أن يدعو الله تعالى لغيره بالهداية والتوفيق.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين ما بينه عَزَّ وجل عن عظمته وقدرته، وعظيم سلطانه. فقال جَلَّ جلاله ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فبدأ الخطاب بالسؤال ﴿ أَرَءَيۡتَكُمۡ ﴾ بمعنى أخبروني فيما أسألكم واستخبركم عنه، أرأيتم أنفسكم فيما إن جاءكم عذاب الله تعالى ﴿ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ ﴾ أو أتتكم الساعة التي تُبعثون

فيها ﴿أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أتخصون الله بالتضرع والدعاء، أو تذهبون إلى معبوداتكم من الأصنام والأوثان إن صدقتم، وقلتم الصدق؟ فبدأ القول بسؤال تقريري، أمام ما قد يحدث إذا أراد الله تعالى. فقل يا محمد للمكذبين الجاحدين المعاندين لو جاءكم عذاب الله، أو أن القيامة قامت، وعاينتم بأعينكم ذلك، هل ستطلبون من أحد غير الله تعالى أن يدفع عنكم ما حل بكم؟ فهل ستدعون الأصنام العاجزة التي لا تقدر على شيء؟ أم ستدعون الله تعالى؟ فأخبروا بالصدق إن كنتم صادقين؟ فستكون الإجابة الحتمية حينها، لن ندعو إلا الله تعالى. فيكون الرد عليهم، فلماذا تعبدون غير الله تعالى؟ فيكون السؤال الاستخباري مقرراً لهم بالحقيقة التي يكابرون فيها. ويفيد هذا أهمية إقامة الحجة بإعادة الذهن للحقيقة، خاصة في المواقف التي لا مفر فيها من الحقيقة، فإنها أدعى للتفاعل. وكذلك أهمية السؤال التقريري في استثارة الذهن، والعودة بالمخاطبين إلى الحقائق.

ثم يقر الله تعالى الحقيقة والواقع الذي سيكونون عليه عند وقوع العذاب عليهم أو قيام الساعة ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ فيقررهم الله تعالى بأنهم وقت الشدائد لن يدعون إلا الله تعالى. بل إنهم يَخُصُّونَهُ بالدعاء دون غيره مما يعبدون من دونه عَزَّ وجل. فواجبكم إذاً هو توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة.

وتفيد ﴿بَلۡ﴾ في هذا السياق ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ الإبطال والتصحيح، إبطال ما قبلها ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ وإثبات صحة ما بعدها ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ فأبطل السياق دعوة غير الله تعالى من المعبودات ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ لتنحصر الحقيقة في قوله تعالى ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ فلن تدعوا ولن تلجأوا إلا إليه عَزَّ وجل، فهذه الحقيقة التي ستكونون عليها، وهو إعلام منه سبحانه وتعالى بواقع ما سيكون عليه حالهم، فإنهم سيعودون ويرجعون للحقيقة والفطرة السوية، التي خالفوها عناداً وجحوداً وكفراً بعد أن جاءهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. ثم يأتي بعد ذلك بيان مشيئته سبحانه وتعالى ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ فيكشف الضر الذي تدعونه أن يكشفه إن شاء كشفه، أو أن يمضيه سبحانه وتعالى. وفي جملة ﴿إِن شَآءَ﴾ ما يبين ويفيد كمال السلطة والسلطان له عَزَّ وجل، فمنكم السؤال والالتجاء والتضرع، وله حق الإزالة والكشف والعطاء، أو الإمضاء كما يريد سبحانه وتعالى، فلا معقب له، ولا مُلزم له، فله ملكوت السموات والأرض، فهو العزيز الحكيم.

بل سيكون منهم نسيان ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ فيتركون جميع تلك المعبودات، ويُعْرِضُون عنها إعراض الناسي لها، مما يفيد أنهم ينتقلون حينها من الشرك إلى الإخلاص في الدعاء لله تعالى، كما فعل فرعون وأتباعه؛ عندما عاينوا الغرق. فكانوا يجأرون إلى الله تعالى أن يخلصهم مما

جاءهم من الأهوال. لأنه يحصل في ذهن من يهوله أمر من الأمور أن ينسى ما لا ينتفع به من الوسائل، فلا يفكر إلا في الحقيقة الفطرية، بما يؤكد أنهم كانوا يدركون أن ما يلوذون به من معبودات لا تنفع نفسها، فكيف تنفع غيرها، ولكن تقليداً ومتابعة للأهواء الشيطانية. فهو النسيان الذي يجتمع فيه ترك جميع المعبودات من غير الله تعالى، ليعودوا إلى الحقيقة من أنفسهم اضطراراً، لأنها الفطرة الصحيحة، فلماذا إذاً تشركون مع الله تعالى في وقت الرخاء، وتخلصون له وقت الشدائد. وفي هذا التوجيه: تحذير وتعليم وتصويب لهم بأسلوب الاستعراض لما قد يكون، وكيف حينها يكونون، ليعود الْمُخَاطَب إلى الواقع.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يتناول السياق القرآني الكريم استكمال بيان قدرته وسُننه سبحانه وتعالى، لعل المخاطبون به يعقلون، ويتضرعون. فقال عزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هذه الآية متصلة بما قبل، اتصال الحال بحال قريبة منها، وذلك أن هؤلاء سلكوا في مخالفة نبيهم مسلك من كان قبلهم في مخالفة أنبيائهم[1] وقد بدأ الخطاب الكريم ببيان ما أرسل الله تعالى للأمم السابقة من الرُّسل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فلما كذبت تلك الأمم بِرُسُل الله تعالى، عاقبهم الله تعالى ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وقد اشتمل هذا العقاب على أمرين: هما ﴿ بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ فالبأساء: المصائب في الأموال، وما يعتمد عليه الإنسان في معيشته، ومن الفقر والضيق في المعيشة، وأما معنى الضراء، فهو: ما يصيب الأبدان، وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام، وهدف

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧٣/٦)

هذا العقاب من الله تعالى رحمتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ فرحمته عَزَّ وجل في ابتلائه لهم، لعلهم يؤوبون ويعودون للحق فيؤمنوا وتخبت قلوبهم للحق؛ فيدخلون الجنة. لأن الله تعالى علل العقوبة بما يدفعهم لمصلحتهم، لا ليطردهم الله تعالى عن رحمته، وكلمة ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ تفيد الرجاء والإشفاق من لمخاطبين، لعلهم يرجون ويشفقون على أنفسهم؛ فيحصل منهم التضرع، فَفِعل الله تعالى بهم من البأساء والضراء هو من أجل أن يتضرعوا، ويخلصوا لله تعالى العبادة والإنابة والتذلل له سبحانه وتعالى، فيخضعوا له بالطاعة الخالصة.

ودلالة (لعل): من الله تعالى تفيد التحقق، لأنه لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى، فهو المتفرد بكمال المنع والعطاء، إذ الملك ملكه سبحانه وتعالى، يتصرف فيه كيف يشاء. وكلمة (لعل) في هذا السياق متعلقة بالمخاطب، والتي تفيد استطاع المُخَاطَب للتضرع، بدفعه بالبأساء والضراء، وفعل التذلل والتخشع لربهم، ليتوبوا من ذنوبهم. مما يفيد أن عقوبة الله تعالى كانت تأديبية، ورحمة بهم، من أجل صلاح وانصلاح أمرهم، فرحمة الله تعالى تظهر في كل أمر وقضاء لله تعالى. بل حتى هذا البيان هو رحمة للمخاطبين، لعلهم يتعظون بما تم بيانه عن حال الأمم السابقة، فيطيعوا، ويتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو خطاب تحذيري من أن يسلكوا مسلك تلك الأمم، فيعجل الله تعالى لهم العقوبة. كما أن في الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، ليدرك أن رُسُل الله تعالى قد وجدوا من أقوامهم مثل الذي واجهته وتواجهه من إعراض قومك.

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى في توضيح العلاقة بين الآية السابقة والتي بعدها: أن معنى الكلام: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فلم يتضرعوا ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾[1] فهلا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا، وهذا عتاب على تماديهم، فلم يتضرعوا ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فقلوبهم والحال منهم قد بلغ من الشدة ما بلغ، فقد كانت قاسية، فلم يتضرعوا إلى الله تعالى، استعلاءً واستكباراً، مما يدل على أن القلوب قد تقسوا، فتصبح كالحجارة، أو أشد قسوة من الحجارة، فنسأل الله تعالى السلامة، وقد ساعدهم على ذلك الشيطان ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فقد حَسَّن لهم الشيطان العناد والصدود، والجرأة على الله تعالى، وعلى رُسُلِه عليهم الصلاة والسلام، فكان أثر الشيطان منصب ومتعلق بالتزيين والتشجيع لهم. حتى أنهم لم يبالوا بما أصابهم من شدة البأساء والضراء. مما يفيد ويبين أهمية الحذر من الشيطان، فإنه عدو مبين، وشديد العداوة للإنسان، وأن على المرء أن يتعظ ويعتبر ويتضرع إلى الله تعالى فيما يصيبه، ويفتش ويصحح مسلكه مع الله تعالى. ومن جميل الاستنتاجات ما ذكره الزمخشري رحمه الله تعالى: فلم يتضرعوا إذ جاءهم

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٣/٩)

بأسنا، وقد جاءت كلمة ﴿ فَلَوْلَآ ﴾ لتفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع، إلا عنادهم وقسوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم[١]

ثم ذكر الله تعالى إعراضهم وتوليهم عما جاءهم على أيدي الرسل، وما أصابهم من البأساء والضراء، فلم يتضرعوا، ولم يتوبوا ولم يؤمنوا، فعاقبهم الله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ فلما تركوا وأعرضوا عن أمر الله تعالى، حتى حصل النسيان منهم له، أغدق الله تعالى عليهم أبواب العطاء، استدراجاً عقابياً منه لهم، ففرحوا بما أصابهم من النعيم، وانغمسوا فيها، فأخذهم العذاب على غفلة من أمرهم، أثناء ذلك الفرح والسرور، ليكون وقعه أشد ألماً لهم.

والنسيان في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ هو الترك، وهو ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى ينحذف من القلب ذكره[٢] والمعنى: قد أعرضوا قصداً وعناداً حتى ذهب من قلوبهم ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ فقد أعرضوا عن ما وُعِظُوا بِه، وبما جاءهم من البأساء والضراء، وأعرضوا عن ذلك، ففتح الله لهم رخاء الدنيا، ويُسرها في جميع أبواب الخير استدراجاً لهم ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ وهو فتح استدراج لهم، بأن فتح الله تعالى عليهم أبواب أنواع الخير، من أصناف النعمة، والصحة، والسعة. وكلمة ﴿ فَتَحۡنَا ﴾ تفيد كثرة تدفق الخير والسعة، كما أن الفتح يفيد إزالة الإغلاق، بما يفيد السعة. وأفادت جملة ﴿أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ تعدد الأنواع والأصناف، وأبواب السعة المختلفة في كل شيء، إذ أن كلمة ﴿أَبۡوَٰبَ ﴾ تفيد الجمع، وهو جمع الكثرة والتنوع والتعدد، كما تفيد السعة في العطاء، فإن فتح الباب دلالة على السعة العظيمة، وجملة ﴿ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ تفيد تأكيد التنوع، كما أن كلمة ﴿ شَيۡءٍ ﴾ جاءت نكرة، فأفادت سعة التنوع والعموم، لتستوعب الجميع دون استثناء.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٢-٢٣)

(٢) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٩١)

ثم أخبر الله تعالى بما كان منه عَزَّ وجل من عقوبته لهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ فلما وصلوا إلى الفرح بالنعمة، وذلك لسعتها وتنوعها بعد ما أصابهم من غم البأساء والضراء الذي أصابهم لعلهم يتعظون، نزل عليهم العذاب. فكان ذلك الفرح هو فرح بطر وأشر، لا فرح شكر وعبادة، فحينها باغتهم الله تعالى بعذابه ﴿ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ جاءهم العذاب فجأة، من غير توقع منهم لذلك، بسبب انغماسهم وتماديهم في فرح لذائذ النعمة والتنعم بها، ففاجأهم العذاب إلى درجة الإبلاس ﴿ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ والإبلاس هو: الخنوع من الذي انقطعت حجته، فتلبس الحزن من سوء الحال، مع اليأس من عودة الخير بعد نزول البلاء، فكلمة مبلس تفيد اليائس من عودة الخير، وانقطاع الرجاء، مع شدة الحسرة، وشديد الحزن. قال الزجاج رحمه الله تعالى: المبلس: الساكت المنقطع في حجته، الذي أيس أن يهتدي إليها[١] فاجتمعت عليهم تلك الحالات بسبب كفرهم وتماديهم في صد رسالة الله تعالى إليهم مع أنبيائه. فإن من أشد العقوبات أن يجتمع فيها: الأخذ على غرة، والأخذ أثناء الاستغراق في النعيم. مما يفيد أن العطاء والمنع له حكمة بالغة، فالكيس الموفق، من وفقه الله تعالى لمعرفة حال المنع والعطاء، مع حال العمل والطاعة له سبحانه وتعالى.

ثم بين الله تعالى نتيجة ذلك العذاب الذي باغتهم به ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فقد استأصلهم جميعاً، وأكد عَزَّ وجل أن الاستئصال استوفى آخرهم ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ لأن الدابر يدل على الآخر، فلم تبق للقوم الظالمين باقية ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ثم جاء الثناء الكامل، والشكر التام لله رب العالمين ﴿ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الذي أنعم على رُسُلِه بالنصر على القوم الظالمين الذين كذبوا بحجج الله تعالى وبراهينه التي جاء بها المرسلون عليهم الصلاة والسلام، فالحمد والشكر والثناء لله تعالى على النصر الذي أجرى الأسباب لتحقيقه. مما يبين أن النصر من الله تعالى، وأنه ينصر الحق ويهزم الباطل، وقد يمهل أهل الباطل، لعلهم يتعظون ويرجعون عن غيهم. وأن الحمد ينصرف لله جَلَّ جلاله الذي يحقق النصر. وزاد من التعظيم والتبجيل لله تعالى إضافة ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ للفظ الجلالة، فهو المربوب، المعبود، والخالق لكل العالمين، فليس في الكون شيء إلا والله تعالى ربه وخالقه ومُوجده من العدم.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢١٤)

ثم يتكرر الأمر من الله تبارك وتعالى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بأن يقول للمكذبين به ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ أعلمتم لو أن الله تعالى افقدكم هذه النعمة العظيمة، نعمة السمع والبصر؛ فأصبحتم لا تسمعون المسموعات، ولا تبصرون الْمُبْصَرَات، وأخذ بصائركم ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ فلا تعقلون ما تدركون، فيطبع عليها حتى لا تفقهوا قولاً، ولا تفهموا مفهوماً، بعد أن كنتم بها تستمتعون، ولكنكم عطلتموها عن الحق جحوداً.

وهذا السياق فيه توجيه لهم بالنظر والتأمل في نعمة هذه الحواس، فيما لو أن الله تعالى أخذها، فهل هناك إله من آلهتكم غير الله تعالى يستطيع أن يأتيكم ما فقدتم؟ سؤال يستثير الذهن، ويُعيد الْمُخَاطَب إلى الحقيقة من خلال التأمل في هذه الحقائق ﴿ مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ حتماً أنهم يدركون تماماً أن معبوداتهم لا تستطيع ذلك، وحتماً أنهم يدركون أنهم لا يستطيعون ردها لأنفسهم، وهذا أسلوب السبر والتقسيم الذي يسبر به عجز الممتنعات عن تحقيق ذلك، حتى لا تبقى إلا إجابة واحدة، وهي: أن الله تعالى وحده هو الذي يستطيع ردها، إذاً فلماذا تشركون مع الله تعالى غيره من الأصنام العاجزات الممتنعات عن رد ما لو أخذ الله سمعكم وأبصاركم وأفئدتكم، فاتضح وتبين لكم عجز آلهتكم، وهذا أسلوب السبر والتقسيم. وفيه توبيخ لهم، واستحثاث للتفكر والتأمل، مما يبين أن دين الله تعالى هو دين الفطرة، الذي لا يصادمه العقل الصحيح، فهو دين الله جَلَّ جلاله. وهو أسلوب يبين عظمة منهج الله تعالى في إحقاق الحق، بإعادة الْمُخَاطَبين إلى الحقائق، وتقليب الفكر بالتأمل. مما يعلم الإنسان كيف يفكر، وكيف يحاج غيره بالحق.

وقد نسب الله تعالى الأخذ إليه ﴿ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ ﴾ وكذلك الختم على القلوب ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ وكذلك نسب الإعادة والإتيان بما أخذ إليه ﴿ مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ ولم يقل إن فقدتم، أو ذهب سمعكم وأبصاركم، وانختم على قلوبكم، وهذا من دقة البيان وإعجازه، فالموطن موطن حجة، والموقف موقف سلطان وبرهان، فهو الذي خلق وأعطى، وهو الذي يأخذ ويمنع، وهو الذي يبدئ ويعيد، سبحانه وتعالى، وهذا تأكيد للحجة عليهم.

ثم يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بلفت انتباهه إلى التأمل والتبصر في تصريف الله تعالى للآيات ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ تأمل كيف نقلب الحجج ونصرفها لهم بأنواع وأوجه متعددة، ومع جميع تلك البراهين وتعدد تصريفها وبيانها إلا أنهم يُعرضون عنها ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أي: يُعرضون. وهو أيضاً لفت الانتباه لكل أحد، فإن سياق دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿ ٱنظُرْ

كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴾ شاملة لكل أحد من الناس. كما أن دلالة ﴿ٱنظُرۡ﴾ تبين أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي توصله إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله تعالى. ﴿ٱنظُرۡ﴾ شاهد وتأمل وتدبر أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وغيره من الناس، وتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم به، رفعة له، وأن غيره تابع له في التوجيه، ودلالة كلمة ﴿ٱنظُرۡ﴾ تفيد نظر التَّبَصُّر بالعين، الذي يندرج تحته الانتباه، ويجتمع معه كذلك النظر بالبصيرة، للتأمل، وهو التدبر والتفكر، والذي يحتاج إلى إعمال الفكر بالتأمل، المصحوب بغرض الاستنتاج،

بل جاء التوجيه بالنظر مقترناً بأداة الاستفهام﴿كَيۡفَ﴾ فقال تعالى ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل والتفكر في تقدير هذا التصريف للآيات، فتأمل كيف نقلب الحجج ونصرفها لهم بأنواع وأوجه متعددة، ومع جميع تلك البراهين وتعدد تصريفها وبيانها إلا أنهم يُعرضون عنها.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ أنها تلفت الانتباه إلى تقليب البصر والتأمل، وتقليب الفكر في الشيء، لتكتشف ما فيه من الحقائق المذهلة، وما فيه من الْحُسْن في التصريف والتدبير. وأن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة ليتفقه به الإنسان في المواعظ، والأحداث المتنوعة، وفي المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الصواب والخطأ، والحق والباطل.

كما أن دلالة ﴿كَيۡفَ﴾ أعطت المزيد عن حال الأمر المنظور إليه، ودلالته، وأن لفظة ﴿ٱنظُرۡ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب نفسه، بأن يتأمل ويقلب الفكر، ومن الناحية التربوية فإن نصوص القرآن الكريم تحمل مقاصد علاجية للواقع، وإنمائية لتنمية الخير والصلاح في النفس البشرية، ووقائية من أن يسلك الإنسان مسالك الشر وعواقبه الوخيمة. ودلالة ﴿كَيۡفَ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور الحال كما هو، وبجميع ما يحيط به. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

ودلالة ﴿كَيۡفَ﴾ مع ﴿ٱنظُرۡ﴾ استفهام، يتوصل به إلى الدليل من خلال حال الأمم، فهو استفهام سيأخذ بصاحبه إلى مشاعر التهويل من أحوال تلك الأمم، وحال أمته فيما لو أصابها ما أصابهم، أي:

فكيف يكون حالهم؟ وكيف يصنعون؟ فيما لو حل بهم عذاب الله تعالى كما حل بمن سبق. وهي تحمل كذلك استفهام التوقف والتعجب، والتأمل لموقف سيمر به هؤلاء إن لم ينقادوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حال وقوع العذاب بهم. إن أسلوب القرآن العظيم يستثير العقول، والأفئدة، والمشاعر ليتحقق الخير للنفس المتأملة المستجيبة للموعظة.

ثم يقول تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ قل لهم أعلموني وأخبروني إن أتاكم عذاب الله تعالى لقاء شرككم به سبحانه وتعالى، وتكذيبكم برسالتي إليكم، فجاءكم العذاب فجأة، فباغتكم به، فلم تشعروا به إلا وهو واقع بكم، وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فهل يُهلك اللهُ تعالى إلا الظالمين الذين يستحقون العذاب بظلمهم الذي ارتكبوه، بعبادة غيره من الأصنام والأوثان، وتكذيبهم الظالم بالرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاء به من الحق، فهل سيهلك الله غير هؤلاء؟ والجواب حتماً سيكون، لا. فالهالكون بالعذاب هم الصادون المعاندون.

وهذا أسلوب حواري نحو التعقل، وقبول الحق، من أجل إيصالهم بالترغيب والترهيب إلى السلامة والنجاة، من خلال استعراض ما حاق بالأمم التي كذبت رسلهم، مما يعطي أهمية تربوية لاستعراض الأحداث من أجل تربية النفوس، واستثارة الفكر نحو العواقب والمالات، وأهمية التربية والتوجيه بالأحداث مع أخذ العبرة بالغير في تصرفاتهم وما حدث لهم. وكذلك أهمية التحذير بعد البيان والتحقيق. وهذا يبين أن منهج الله تعالى في كتابه العزيز، وفي شرعه الحكيم قائم على البيان والبراهين، وتجلية الحقائق، وتصحيح الفكر بالعلم العظيم الذي يأخذ بألباب من تابعه إلى الارتقاء في كل خير، والبعد به عن كل جهل وشر.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ
وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا
شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ
حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان محتوى رسالة المرسلين ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فمحتوى رسالات الأنبياء قائمة على البشارة والنذارة، بما يعزز عمل الترغيب للطاعة، والترهيب من الكفر والمعصية. واقتصر النص الكريم على كلمتين: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ليدل ذلك على المضمون، فالبشارة تكون بالخير والثواب، والإنذار يكون بالعقوبة، فأغنت دلالتها عن التفاصيل، وهذه من قوة البيان وجزالة اللفظ والمعنى، فدلت نصوص الشريعة على أن ما أعده الله تعالى للمؤمنين في الدنيا والآخرة، خير عظيم، لا حصر له، ومن ذلك البشارة بالمغفرة والجنة، وحسن الخاتمة، وطمأنينة النفس، والنصر والتمكين، والبركات وسعة الرزق. وأما إنذار الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهو من قضب الله تعالى، ومن النار وبئس المصير، ومن الخذلان، ومن ضنك النفس والعيش، والحياة.

وقد بين الله تعالى أسس الاتباع والنجاة في أمرين: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ الأول: الإيمان، والثاني: أن يُتْبِع الإيمان بالأعمال الصالحة التي جاءت على أيدي الرسل، وبيانها في كُتُبِ الله تعالى التي أنزلها، وآخرها وخاتمها القرآن الكريم، فيجب بعد الإيمان إصلاح ما كُلِّف به. مما يبين أنهما عنصران مرتبطان ببعضها البعض، وأنهما شرطان لحصول الفوز والنجاة ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فمن أدرك هذين الشرطين وعمل بهما فإنه يحصل على الأمن الذي هو ضد الخوف، ويحصل على طمأنينة النفس مما مضى، والذي هو ضد الحزن، وقد نفى تبارك وتعالى أن يحصل له ما يخاف منه، وهو الخشية من سوء المصير، وكذلك لن يحصل له الحزن على ما فاته في الدنيا، فقد نفى الله تعالى عنه أمرين عظيمين: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فالخوف متعلق بالحاضر والمستقبل، وأما الحزن: فهو متعلق بالماضي، مما يفوت على الإنسان، أو يتحسر على فعله أو تركه، وبالتالي فقد امتلك الأمن، وطمأنينة النفس التي هي مفتاح السعادة.

وقد اشتملت الآية الكريمة على ثلاثة بيانات عظيمات: الأولى: بيان لمحتوى: وهي: رسالة المرسلين ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ بشارة ونذارة: فإن مع المرسلين بيان ما يدفع العباد إلى الخير ويرغبهم فيه، وما يرهبهم من الشر ويدفعهم عنه، وأما البيان الثاني: فهو عن المنهج العملي التطبيقي ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ فالإيمان شامل لكل ما جاء به المرسلون، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر. مع العمل بمضمون شريعة الله تعالى، لأن الإصلاح لا يكون ولا يقوم إلا وفق منهج عملي تطبيقي، وليس هناك منهج للإصلاح إلا ما جاء به المرسلون من الله تعالى، وأما الأمر الثالث: فهو النتيجة لمن أطاع ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فإن من آمن وأصلح تتحقق له النتيجة التي هي انتفاء ما يخاف منه حاضراً ومستقبلاً، وكذلك انتفاء ما يحزنه مما فاته مما سلف، والتي هي أسس السعادة.

فبعد أن بين الله تعالى جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أوضح جزاء من يكذب بآياته ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ فالذين اختاروا المعصية بتكذيب الحق فإنه ينالهم العذاب بكفرهم. وفي هذا إنذار ووعيد لمن يُضاد رُسُل الله تعالى، فالذين يكذبون الرسل، ويخالفون أمر الله تعالى ونهيه، ويكذبوا بالحجج والبينات من الهدى، فسوف يباشرهم العذاب، جزاء فسقهم.

ومن دقائق الفوائد: دقة الوعيد، ففي قوله تعالى ﴿ يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ دليل على مباشرة العذاب لهم، فيمس ويخالط حواسهم، كما أنه جاء بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يَمَسُّهُمُ ﴾ ليبين استمرار العذاب حين يصيبهم، فلا ينفك عنهم أبداً، وليبين أنه قد يكون حاضراً في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون في الدارين معاً، وقد حصل لقوم عاد وثمود ولوط وفرعون عذاب في الدنيا، وسيأتيهم ما وعدهم الله تعالى به في الآخرة. كما بين الله تعالى أن هذا العذاب هو بسبب فسوقهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ فَسَمَّى اللهُ تعالى تكذيبهم وجحودهم فسق، وذلك لعدم قبولهم الحق البائن، لأن عدم الدخول فيه بمثابة الخروج، فلم يؤمنوا بما جاءت به الرسل جحوداً للبينات من الله تعالى. فالفسق هو الخروج من الشيء. بما يدل على يقينهم بصحة وقوة حجج ما جاءهم من الحق، فاستيقنوه تماماً، ثم كذبوا به، فعدم دخولهم فيه بمثابة الخروج منه، لتمام يقينهم به. وهذا من دقة البيان الذي أغنى عن التفصيل، والذي تميز به القرآن العظيم.

ثم أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم ويعرفهم بحقيقة نبوته، وحدود قدرته وعلمه ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ فلا أدَّعي وأقول: أنني أملك خزائن الله تعالى، فأتصرف فيها بالعطاء والمنع، وكذلك لا أقول أنني أعلم الغيب ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ فلا أعلم الغيب إلا بما يوحيه اللهُ تعالى به إليَّ، وكذلك ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ فلست من الملائكة، فأطلع على ما لا يطلع عليه البشر ويشاهدونه، فما أنا إلا بشر رسول. مما يبين أنه صلى الله عليه وسلم لم يَدَّع لنفسه ما ليس له، ولم يتعامل معهم بكبر، ولا تباهي، فهذا البيان يدل على أن الله تعالى قد أوضح بشرية نبيه صلى الله عليه وسلم، غير أنه خصه بشرف النبوة، واصطفاه برسالته. وهذا أدعى إلى تفاعلهم وتجاوبهم معه صلى الله عليه وسلم. ثم بين الله تعالى

حقيقة العبودية والطاعة من نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فلا أتبع إلا ما يُوحيه الله تعالى إليَّ به. فمسلكي هو اتباع منهج الله تعالى. بل أفاد السياق ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ حصر الاتباع فيما يوحيه الله تعالى به، ولا يخرج عن ذلك أبداً. فلا يجتهد باجتهادات من عنده عليه الصلاة والسلام في أمر الدين والرسالة. فأثبت الله تعالى له أنه عبد مأمور، ولا يتكلم بشيء من عند نفسه، بل بما يُوحَيه الله تعالى إليه. فإن أمره ونهيه وبيانه صلى الله عليه وسلم هو وحي من الله تعالى له به. فلا يخرج عَمَّا أمره الله تعالى به.

ثم يوجه لهم سؤالاً تقريرياً، بمقارنة الكفر بالإيمان من خلال صفتين محسوستين: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فهل يستوي من لا يرى ولا يشاهد وهو ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ومن يرى ويشاهد، وهو ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ وهذه المقارنة تستوجب تقرير حقيقة عدم التساوي، فيكون القول أو الرد: لا يستويان. فإذاً ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أفلا تتأملون وتتفكرون في شأنكم؟ كمن يتعامل مع الحق وكأنه أعمى؛ لا يبصر هذا الحق، بل ينكره ويكفر به، فمثله مثل الأعمى. فلا يستوي هذا الأعمى مع هذا البصير الذي يتعامل مع الحق ببصره وبصيرته، فيرى الحق ويؤمن به، ويتبعه قولاً وعملاً. فكما أن الأعمى والبصير لا يستويان في الرؤية، فكذلك من يكفر بالحق الذي لا يكذبه إلا معاند، ومن يُصَدِّق بالحق وينقاد إليه. فهذه الآية الكريمة تقررهم بالحقيقة التي لا يختلف فيها العقلاء، كما أنه سؤال استنكاري عن عدم استجابتهم لما وَضُحَتْ حقيقتُه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ويبين هذا أن منهج الله تعالى قائم على الحقيقة، وعلى التفكر والإقناع، وعلى الأدلة والبراهين، كما أنه يغرس ويربي الذهن على مكارم التعامل، ويفتح العقل والذهن بالحقائق، وينمي لدى أتباعه حُسن الفكر، ودقة الفهم. كما أفادت الآية الكريمة أهمية أسلوب المقارنة، وأهمية أسلوب استنطاق الحقائق، واستخراجها من العقول والأفهام، وإعادة الْمُخَاطَب إلى الحقيقة بأحسن الأساليب وأبلغها أثراً.

ثم يوجه الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما يجب أن يقوم به ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فأنذر وأعلم بالقرآن الذين يخافون يوم الحشر، لأنهم موقنون به، ويدركون أنه ليس لهم من دون الله تعالى من يتولى أمرهم، فيدفع عنهم ما يحذرون، ولا من يشفع لهم، لأن الجميع ليس لهم من الأمر شيء إلا بإذن الله تعالى. وذكر ابن الجوزي قول الزجاج رحمهما الله تعالى عن الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فقال: وإنما ذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم، وإن كان منذراً لجميع الخلق، لأن الحجة على الخائفين الحشر أظهر، لاعترافهم بالمعاد، فهم أحد رجلين:

إما مسلم؛ فَيُنْذَر ليؤدي حق الله عليه في إسلامه، وإما كتابي، فأهل الكتاب مجمعون على يوم البعث، وذكر الولي والشفيع لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم عَزَّ وجل أن أهل الكفر ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع، وقال غيره: ليس لهم من دونه ولي، أي: ليس لهم غير الله ولي ولا شفيع، لأن شفاعة الشافعين بأمره(١) سبحانه وتعالى. ويدخل في ذلك كل عاقل قد تأثر بالحجج فخاف من يوم الحساب، وبما يفيد أن من آمن باليوم الآخر، فهو أهل لأن يتأثر بالإنذار.

والإنذار بالقرآن هو الإعلام، لأن القرآن الكريم متضمن للوعد والوعيد، كما هو متضمن بالبشارة لمن آمن وأطاع. وخص منهم ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم المنتفعون به، فيخافون من عذاب يوم الحشر إن لم يستجيبوا، فهؤلاء ينتفعون بالموعظة، ويتجاوبون معها، وينتفعون بالتذكير، فهي لهم أنجع وأنفع. ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعلمون أنه ليس لهم من دون الله تعالى من يتولى أمرهم، ليدفع عنهم العذاب، ولا من يشفع لهم، فيطلبون ما يوقيهم من عذاب الله تعالى، فيسلكون مسلك الطاعة، فينتفعون بما جاءهم من الحق. فهؤلاء لعلهم يعملون بما توجبه التقوى من الطاعة التي ينجيهم الله تعالى بها يوم القيامة. لأن التقوى متضمنة للخوف والرجاء اللذان يدفعان المؤمن نحو العمل بالطاعة، رجاء الفوز، واجتناب ما نهى الله عنه خوفاً من العذاب.

ثم يُوجِّهُ اللهُ تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى مسلك عظيم، ذلك أن المشركين طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد عنه جماعة من ضعفاء المسلمين، حتى يحضروا مجلسه، فنزلت هذه الآية(٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فلا تطرد المؤمنين المتصفون بارتباطهم بالله تعالى في عبادتهم صباحاً ومساء، يطلبون ويريدون الله تعالى بهذا العمل، إخلاصاً له عَزَّ وجل.

وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن المراد بالدعاء ﴿يَدْعُونَ﴾ الصلاة المكتوبة، قاله: ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم(٣) والدعاء لله يكون بذكره وتمجيده، والثناء عليه قولاً، وقد يكون عملاً بالجوارح، بما فرض عليهم(٤) وجملة ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أشمل من أن تُحد بنوع من العبادة والذكر، فقد جعلها الله تعالى عامة،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٢٥٨)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٣)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٢٦٩)

لتفيد العموم، وليس التخصيص، وليتبين من ذلك شدة حرصهم على ما يرضي الله تعالى، بكل ما يستطيعون مما عرفوه من نبيهم صلى الله عليه وسلم من العبادات.

ثم قال الله تعالى ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من جزائهم، ولا كفاية أرزاقهم، أي جزاؤهم ورزقهم على الله، وجزاؤك ورزقك على الله، لا على غيره، وإذا كان الأمر كذلك، فأقبل عليهم وجالسهم، ولا تطردهم[١] ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن فعلت ذلك تكون من الظالمين، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يقع منه طرد من آمن به، وقد زكاه ربه تبارك وتعالى في سورة القلم، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فهذا التوجيه ليكون قاعدة للأمة، لئلا يفعلوا ذلك المسلك، بل عليهم أن يتولوا بعضهم بعضا، مهما كان ضعف وفقر بعضهم، وأن لا يتولوا من فعل مثل ما فعل كبراء وسادات المشركين. كما أن في هذا التوجيه من الله تعالى احتفاء ورفعة وعناية بأولئك الذين أسلموا، كما أن فيه تزكية وتشجيعاً وتثبيتاً لهم، رضي الله عنهم، وأيضاً بياناً لغيرهم من أن دين الله تعالى ومنهجه قائم على حفظ أتباعه، وأن قيمة الإنسان ومنزلته عند الله تعالى بتقواه، وليس بحظوته ومنزلته عند الناس. وأن النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بموجب ووفق ما يأمره الله تعالى به. وكذلك في هذا النهج إظهار لقوة الإسلام، والتقليل والزجر من شأن من يريد أن يتصرف في الدين بما يراه ويهواه، وإعلان وبيان بأن الله تعالى غني عن خلقه، وأنه ينصر ويغني رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقوته لا بقوة الأشخاص. فإن في هذا التوجيه الرباني فوائد عظيمة جليلة.

ويبين الله سبحانه وتعالى سنته في الابتلاء، وسبب هذا الابتلاء ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فكما فتنا الذين من قبلك، فتنا هؤلاء ببعضهم البعض، والفتنة بمعنى الاختبار والامتحان والتمحيص، ليتباين ويتمايز الصادق من الكاذب، وتظهر حقائق الناس، فإن الابتلاء بالفقر والغنى والجاه وعلو الشأن فيه تمحيص لحقائق العباد. فإن كبراء المشركين استنكفوا من إسلام الضعفاء، واستنكفوا من أن يخالطونهم ويجالسونهم، فيتساووا معهم، ولذلك طلبوا طردهم وإبعادهم، حتى أنهم كانوا يتساءلون، كما قال تعالى عنهم ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ فيقول الكبراء: أهؤلاء الضعفاء ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ تفضل الله عليهم بالهدى، وخصهم من بيننا؟ فهو استفهام استنكاري، كيف يسبقون إلى الفضل من بيننا، فيتمنع الكبراء عن الإيمان لسابقة الفقراء والضعفاء إلى الإسلام، فيأنفوا أن يسيروا مسار الضعفاء والفقراء،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٧٩)

فيرد الله تعالى على هؤلاء بسؤال تقريري عن الحقيقة ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أليس الله تعالى بعلمه يعلم من يشكر نعمة الرسالة، ونعمة هذا الدين، فيوفقهم ويَمُنَّ عليهم بذلك. فإن الله تعالى يعلم الذين يشكرون نعمته إذا تفضل عليهم بالهداية، فيهدي ويوفق من يعلم أنه لذلك شاكراً، فإن عِلْمَ اللهِ تعالى سابقٌ، وقد سماهم الله تعالى بالشاكرين ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ لأن قبول النعمة دليل على الاعتراف بها، ودليل على أنهم قابلوها بالشكر والثناء على المنعم، فاستحقوا بفضل الله تعالى هذا اللقب العظيم من رب العالمين، وهي تزكية لهم، وتقرير شكرهم وحمدهم لله تعالى؛ الذي هداهم ووفقهم.

ودلالة ﴿ أَلَيْسَ ﴾ تفيد التقرير، أي: تقرير علم الله تعالى السابق لحال العبد قبل أن يكون، فإن الله تعالى عَلِمَ عن هؤلاء أنهم مطيعون فَمَنَّ الله عليهم بالهداية والتوفيق. كما ورد تسمية الهداية بالامتنان ﴿ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ لتفيد التفضل والتكرم، بأن التوفيق راجع إلى الله تعالى. مما يوجب سؤال الله تعالى الثبات والتوفيق والخير، ودفع الشر ومنعه، فهو الذي يدير الأسباب كيف يشاء سبحانه وتعالى.

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ
أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ
قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمنهجية التعامل عند استقبال المؤمنين، وذلك بإكرامهم والحفاوة بهم، بالسلام والبشارة بالخير من ربهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهذا تكريم من الله تعالى لهم، إذ أوصى سبحانه وتعالى

عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم بالسلام عليهم، وأوجب لهم رحمته، وأن يقبل توبة من عمل السوء بجهالة وأصلح، فإنه متصف سبحانه وتعالى بالمغفرة والرحمة.

وقد بدأ التوجيه الكريم بقوله عزَّ وجل ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي فأكرمهم بالسلام، ورحب بهم، بالتحية التي تحمل الطمأنينة ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فإن دلالة السلام تتضمن السلامة والأمن. وقد جمعت دلالة لسياق معنيين: أحدهما: أنه أمر بالسلام تشريفاً لهم، والثاني: أنه أمر بإبلاغ السلام إليهم من الله تعالى[١] وهما دلالتان لا تعارض بينهما، فمن سعت بلاغة السياق الكريم أن أعطت هاذين المعنيين. وفي المعنى الثاني ما يبين رحمة الله تعالى، ومحبته للمؤمنين، وعلى المعنى الأولى. وهي تحية عظيمة لما تحمله من معاني الدعاء بالأمن والطمأنينة، فكيف إذا كانت منه صلى الله عليه وسلم لهم، وكيف إذا كان الذي أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بها هو الله تعالى. وفي هذا دليل على أن منهج الإسلام قائم على التواد والتراحم والتواضع، والأمن والسلام، وإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسلم على المؤمنين، فإن ذلك يلزم المؤمنين فيما بينهم، وأن يُسَلِّم المرؤوس على الرئيس، وأن يسلم الرئيس على المرؤوس، كما أن في هذا تكريم لهم، ودليل على فضلهم ومنزلتهم عند الله تعالى. وهي تحية تحمل الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالسلامة والأمن والطمأنينة،

ثم يبلغهم الله تعالى أنه قد أوجب على نفسه الرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ أي: أوجب الرحمة على نفسه الكريمة إيجاب فضل وتفضل وإحسان منه. وفي هذا بشارة برحمة الله تعالى، كما أن في قوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ﴾ ما يفيد التفضل منه جَلَّ جلاله، وتقدست أسماؤه، حيث يخبر بما أوجبه على نفسه، مما يثير جانب الاطماع في رحمته تبارك وتعالى، ويدل على عظيم كرمه وتفضله، والرحمة تتضمن الإحسان والإنعام والتفضل على المرحوم من ربه. وإذا كانت هذه الرحمة من الله الرحمن الرحيم، فإنها قد استوعبت واستوفت الخير العظيم الذي لا يحده أحد.

ثم تفضل تبارك وتعالى ببيان مسلك التوبة منه عزَّ وجل ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فمن اقترف منكم ذنباً وهو جاهل به، ثم التزم بأمرين ﴿تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ ﴾ فالأول: ﴿تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ أي: أقلع عنه، وعَزَم أن لا يرجع إليه، وندم على ما كان منه. والثاني: ﴿وَأَصۡلَحَ ﴾ أي: أصلح ما أفسده، في نفسه وفي غيره، ورجع للصواب والطاعة،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٣٥)

فإن له المغفرة من ربه تبارك وتعالى. وقد أورد الله عَزَّ وجل مغفرته بدلالة التعميم ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب، ورحمته بالعباد. فإن الله ﴿ غَفُورٞ ﴾ يغفر السيئات ويمحوها عن التائبين، فلا يعاقب عليها إذا أقلعوا عن ذنوبهم وتركوها، بل يمحوها ويسترها، وكذلك هو ﴿ رَّحِيمٞ ﴾ فهو المتصف بالرحمة، والمبالغ فيها من غير تخصيص. بما يدل على كثرتها وتنوع مجالاتها. أي: الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم باعتبار الفعل، هو إيصال رحمته إلى خلقه. مما يستحث به العباد على طاعته تبارك وتعالى، وهذا والله من عظيم كرمه ورحمته سبحانه وتعالى. إذ يرغبهم فيما يصلون به إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة من الترغيب لعباده في تصحيح أحوالهم. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى تصحيح الأخطاء، وأنها ليست حاجزاً، ولا عائقاً عن المغفرة والرحمة من لدنه تبارك وتعالى. فإن ربكم يصفح عن الأخطاء والزلات لمن استغفر وتاب، وعاد للحق، وأنه يكرم عباده على طاعتهم بمغفرته لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً يتنعم ويتمتع بنعمة الانقياد والصدق، والتآخي، والتفاعل مع الإصلاح والبناء الذاتي، وفي جميع أوجه الخير، حتى يشد بعضه بعضاً.

ثم يقول تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ وكما فصلنا وبينا ما تقدم بيانه من الهدى والرشاد، والدلائل والحجج على المشركين، كذلك نفصل لك أدلتنا وحججنا بالقرآن في كل حق ينكره أهل الباطل، لتستبين وتتضح سبيل ومسلك المجرمين المكذبين المعاندين، فإن في تفصيل الآيات ما يبين ويكشف سبيل المجرمين. حتى تجتنبوها وتتوقوا منها، لأن في كشفها تعرية لها ولهم، حتى لا يغتر بها إلا من كان مثلهم. وكذلك حتى يتجنبها ويتوقاها المؤمنون في كل وقت وحين، لأن سبيل المجرمين واحدة في أهدافها وغاياتها، وإن تعددت واختلفت وسائلها ولذلك ذُكِرت ﴿ سَبِيلُ ﴾ مفردة. لأنها وإن تعددت سُبُل المجرمين إلا أنها واحدة في صفة الانحراف. وهذا من دقائق البيان.

ويأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ فقل لهم يا محمد إن الله تعالى نهاني ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ والنهي يقتضي الامتناع ﴿ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ نُهيت أن أعبد المعبودات من الأصنام والأوثان التي تدعونها، وتتقربون إليها، وتخافونها وترجونها، والنبي صلى الله عليه وسلم ممتنع أصلاً أن يحصل منه ذلك، ولكن لبيان ما يفكرون فيه، مما سيقطع الأمل والرجاء في أن يترك

النبي صلى الله عليه وسلم دينه ويذهب إلى معبوداتهم، فليس أمامهم إلا الإسلام، أو مسلك الجحود والكفر والشرك والعناد، فحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون منه شرك، أو أن يفكر فيه، وهذا أسلوب يخاطب به ما يفكرون فيه، فإن كنتم تفكرون في ذلك، فلن يكون منه صلى الله عليه وسلم ما تتوهمون وتفكرون فيه.

كما أن في هذا بيان وتوضيح لحقيقة مسلك المشركين بأسلوب الاستبعاد من أن يسلك نبي الله مسلكهم صلى الله عليه وسلم، مع بيان وتوضيح مكان الضلالة عندهم، بأنه الشرك، أن تدعوا من دون الله تعالى غيره من الأصنام والأوثان وغيرها من المعبودات ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلا تفكروا في هذا الأمر البتة، بل عليكم أن تقطعوه نهائياً من أفكاركم وتخيلاتكم.

ثم يبين الله تعالى لهم مسلك نبيه صلى الله عليه وسلم بأسلوب التجلية لحقيقة ما يقومون به ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ فإنني لا أتتبع ما تهون من الباطل. فأنتم تتبعون الهوى، وأنا لا أتبع الهوى، ولا أتبع ما تميلون إليه من الباطل، فإنما الاتباع الصحيح هو للدليل والحقيقة، وأنتم ليس لديكم دليل ولا حقيقة على عبادتكم المبنية على الشرك، وإنما هي أهواء، وأن النتيجة: إن اتبعت أهواءكم، أكون قد وقعت في الضلال الذي أنتم واقعون فيه، ولم يحصل ليَّ الهدى ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فإن ماثلتكم في اتباع الهوى، أكون قد وقعت في الضلال، فتنتفي عني الهداية والاستقامة، ومسلك المهتدين، فأكون بذلك في مسلك الضالين. ودلالة كلمة ﴿ضَلَلْتُ﴾ تستجمع أضداد الهداية، وأضداد الوضوح، وتستجمع أنوع الغفلة وأنواع العدول عن الاستقامة والحق والحقيقة. فهي محاجة بأسلوب المقارنة الفكرية القائمة على الاستدلال واستثارة الذهن للحقيقة، فسبحان من أعجز بأسلوب كلامه عباده، فإن القرآن العظيم هو علم القوة والعزة والرفعة، وعلم الحجة ومناقشة الفكر، وليس الالزام القهري، بل إن الاتباع في منهج الإسلام قائم على البصيرة والبينة. مما يفيد أن قوة حجج الإسلام كافية في الإقناع.

وتتوالى الأوامر الربانية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ قل يا نبي الله للمشركين ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ إني على حجة وبرهان، وبصيرة من الله تعالى، كافية في دلالتها على بيان صحة ما بُعِثْتُ به. فإن دلالة ﴿بَيِّنَةٍ﴾ تدل على الوضوح من كل وجه، فتدل على وضوح وقوة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، من حيث المضمون والدليل والبرهان، فهي دلالة يقين، فاصلة بين الحق والباطل، فإنني على بصيرة من شريعة الله تعالى التي أوحاها إليَّ ربي. مما يفيد ويدل على أن ما أنتم عليه من شرك هو نقيض ذلك، ومضاد ومجانف له. فلا برهان لكم به، ولا بينة ولا حجة عندكم على الكفر

والشرك، وأنَّ الذي أنا عليه من البينات ليس هو من عندي، بل هو من عند الله تعالى ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فنسب مصدر البينة لله تعالى. وأما ما أنتم عليه فليس له بينة ولا دليل. فقد حقق هذا النص الكريم استدلالاً وحجة لا يستطيعون الرد عليها إلا بالموافقة والإذعان. ومع هذا فقد قابلتم ما جئتكم به بالصدود والرفض ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ فرفضتم هذه البينات من الهدى، وصددتم عن الحق الذي جاءني من الله تعالى، فكان الأولى بكم هو قَبُول الهدى الذي كَمُلَت وبانت به الحجة.

ثم بين الله تعالى عبودية نبيه صلى الله عليه وسلم وحدود مسؤوليته وقدرته، وذلك بنفي مقدرته صلى الله عليه وسلم على معاقبتهم والانتقام منهم ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ فليس عندي ما تستعجلونه من العذاب، فعنادكم وتكذيبكم هو استعجال منكم للعقوبة التي لا أملكها، إذ لا يملكها إلا الله تعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ فَمَرَدُّه الحكم في ذلك إلى الله تعالى، فهو الذي يفصل بالحق. فلن يظلم الله تعالى أحداً، وهو خير من يفصل ويبين الْمُحِق من الْمُبْطِل، فهو أعدل من حَكَم ويحكم ويفصل في الأمر، فلا يقع في فصله وقضائه جور ولا حيف، فإن شاء عجل لكم، وإن شاء أنظركم، فله الحكم والحكمة فيما يقضيه سبحانه وتعالى. وفي هذا بيان لمحدودية ما فوض الله تعالى نبيه فيه صلى الله عليه وسلم، وأنه عبد مأمور برسالة الله تعالى للعباد.

ومن سعة الدلالة والبيان قوله تعالى ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ فهي تعني أن ما يقصه ويذكره ويخبر به فهو حق وصدق من الله تعالى، وكذلك تعني جملة ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أن ما يقضي ويحكم الله تعالى به بين الحق والباطل هو الحق الذي لا جور ولا ظلم فيه، وكلا الدلالتين ممكنتين، ومتضافرتين، وغير متضادتين، مما يدل على عظمة البيان وسعته لتعدد الأوجه من غير تضاد ولا إعجاز ولا إطناب، فهو غاية البيان البلاغي.

ومن دقائق البيان كذلك قوله تعالى فيما يقوله رسوله صلى الله عليه وسلم للمشركين ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ فليس عندي ما تستعجلونه من العذاب، فعنادكم وتكذيبكم هو استعجال منكم للعقوبة التي لا أملكها، إذ لا يملكها إلا الله تعالى، وكذلك تستوفي ما قاله المشركون، كما في قوله تعالى من سورة التوبة ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ وكما قال تعالى عنهم في سورة الإسراء ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ فسؤالهم وعنادهم هو استعجال منهم لسخط الله تعالى وعقوبته. فهذا إعجاز في سياق البيان، بأن يتضمن المرادين الذي شمل التأويلين، أو الدلالتين.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، بأن يقول لهم ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ فلو أني أملك العقوبة التي استعجلتم لها بكفركم، وطلبتموها، لأوقعتُ بكم ما تستحقونه، ولتم الفصل في ذلك الأمر بأسرع الفصل والقضاء، وتعجيله لكم. وهذا من باب التخويف والتهديد لهم، وإلا فإنه صلى الله عليه وسلم قال عندما استأذنه مَلَك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، قال صلى الله عليه وسلم (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)[١] ولكنه على سبيل التهديد والتقريع والتخويف.

ثم أظهر الله تعالى عظيم علمه بهم، فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فهو الأعلم بالظالمين، وخصهم هنا بالعلم من بين شمولية علمه عَزَّ وجل، وذلك للمزيد من التخويف بالتخصيص، فربكم عليم بكم أيها الظالمون وبما يحكم به عليكم، سواء بالتعجيل أو تأجيل، لِمَا له في ذلك من الحكمة، وهو أعلم كذلك بما سيؤول إليه أمرهم، أو بعضهم، من الاهتداء والدخول في الإسلام، أو البقاء على كفرهم، فإن علم الله تعالى واسع عظيم، فهو أعلم بما سيكون من العبد، مما لا يعلمه العبد عن مستقبل نفسه، وما سيؤول إليه أمره. فسبحان الله العظيم.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٤٢٨-٤٢٩) برقم (٣٢٣١)

ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظيم سعة علم الله تعالى، وكمال قدرته ومُلْكِه، فإن عند الله تعالى خزائن الغيب التي لا يعرفها ولا يعلمها أحدٌ من خلقه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فعند الله تعالى ما لا يعلمه خلقه، إذ غَيَّب عنهم العلم والمعرفة بخزائنه عَزَّ وجل، فلم يَطَّلِعُوا عليها، ولن يستطيعوا أن يُدركوها، فقد خَصَّها بعلمه وحده لا شريك له ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وفي هذا حصر وقصر علم خزائن الغيب على الله تعالى فقط، فإذا كان علمه تبارك وتعالى قد وسع ما غاب عن عباده، فلن يغيب عن علمه ما يعلمه جميع خلقه، بل وحتى ما يسرونه ويُخْفُونه ويَتَخَفّون به عن بعضهم البعض، فإن الله تعالى عنده علم كل شيء، مما كان، وما هو كائن، وما لم يكن. قال تعالى في سورة لقمان عَمَّا استأثر بعلمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ وقد بينت الآية من سورة لقمان: عمق جهل النفس الذي امتدت مساحته إلى أن تجهل عما ستكتسبه في غدها الذي هو الأقرب من حيث الزمن. بل ولا تعلم عن موعد أجلها، ولا المكان الذي ستموت فيه، وكيف سيكون موتها.

ثم أفرد الله سبحانه تعالى بعضاً من مخلوقاته بالذكر والبيان لها، فيتجلّى دقة إحاطة علمه عَزَّ وجل بدقائق حركة صغائرها، فكيف إذاً بغيرها مما يكبرها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فإن الله تعالى يعلم ما في البر والبحر، ليشمل ما في جوف مياه البحار والمحيطات والأنهار من حيواناتها ومعادنها وشعابها وأصدافها، فلا يغيب عن علمه جزئياتها ولا مفرداتها، فما تسقط من ورقة على الأرض، ولا حبة من حبوب الثمار والبذور، إلا ويعلم شأنها، وكذلك مما كان ليناً رطباً أو يابساً منها إلا يعلمه، مهما كان موقع ذلك المذكور، حتى وإن كانت في ظلمة لا تراها العيون، ولا تسمعها الآذان، أو كانت في غياهب باطن الأرض، إلا وقد أحاط بها علماً جَلَّ جلاله، فلا شيء إلا وقد أحصاه وأحاط به قدرة وعلما، بل قد كتبه قبل حدوثه في اللوح المحفوظ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فسبحان من خلق وأحصى، وعلم السر والنجوى، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فقد عَلِم بما كان قبل أن يكون، وبما هو كائن وما سيكون، ولا حركة في الكون إلا بعلمه ومشيئته سبحانه وتعالى. وقد أعطت دلالة كلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ تمام وكمال الوضوح الذي لا لبس ولا غموض فيه.

ومن عظمة السياق التعليمي للآية الكريمة: التدرج في البيان، بأن ذكر الله تعالى كمال الملك والعلم، مع خصوصية ما استأثر به ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ثم تدرج إلى ما يخص الإنسان

مما يتعامل معه ويحسه ويشاهده، ويتفاعل معه في حياته، وهما البر والبحر ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ مع ما في اشتمال اسمهما على محتواهما، فاشتمل اسم البر على جميع ما تحتويه الأرض، واشتمل اسم البحر على جميع ما يحتويه سطحه وباطنه، بل وشملت دلالة البحر جميع مجامع المياه. ثم تدرج بالمخاطب إلى دقائق ما يشاهده ويحسه ويعاينه ويلامسه من أوراق الشجر والحبوب ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ فعلى كثرة ما يسقط من أوراق الشجر فإنه يعلم سبحانه وتعالى كل ورقة، أين سقطة وكيف سقطت. ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ وكذلك حتى ما يسقط في ظلمات الليل، الذي تعجز أبصار العباد عن رؤيته، فإن الله تعالى يعلمه. وكذلك ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾ فإن من دقة علم الله تعالى أنه يعلم ما كان رطباً ليناً يتساقط، أو كان منها يابساً إلا ويعلمها علماً دقيقاً. بل من دقة علم الله تعالى أنه ﴿ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ فإنه في كتاب واضح ومبين لكل ذلك. بل أفادت دلالة ﴿ إِلَّا ﴾ التي تقدمت على ﴿ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ الحصر الدقيق الذي لا يستثني شيء من ذلك.

كما أن كل لفظة قد جمعت جميع أصنافها وأنواعها ومفرداتها. فجمع النص الكريم بين دقة البيان؛ وبين دقة منهج التعليم. فكلمة ﴿ وَرَقَةٍ ﴾ مفرد، وجمعها أوراق، وكذلك ﴿ حَبَّةٍ ﴾ مفرد وجمعها حبوب، بما يفيد أن الذي يعلم ما انفرد من مجموع صنفه من الأوراق، وحال سقوطها، وما انفرد من الحبوب مع كثرة أنواعها وأصنافها، فإنه لا يعجزه ولن يعجزه معرفة تداخله واختلاطه، فدل ذلك على عظيم سعة علمه سبحانه وتعالى، فالذي يعلم مفردات الكثرة من الأوراق والحبوب، لا يخفى ولن يخفى عليه مجمله، فإن في ذلك دلالة على عظيم علمه سبحانه وتعالى، الذي وسع كل شيء في الأرض وفي السماء، فلا يغيب عنه قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير. فيعلم عن كل أحد من عباده ما يكون منه، من قول وعمل واعتقاد. فعليكم أيها العباد أن تتعاملوا مع ربكم من خلال هذه الحقائق.

ثم ينتقل السياق في تدرج إلى بيان خصائص من حياة الإنسان، وقدرة الله تعالى فيها، والتي منها الخصيصة الشبيهة بالبعث بعد الموت ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ فهذه صورة لحالة من حالات الإنسان الباهرة العظيمة، التي يفقد فيها الإنسان مشاعره عند نومه، وتنتقل حالته إلى حالة شبيهة بحالة الموت، فينتقل من اليقظة إلى الوفاة الصغرى، ثم تحدث بقدرة الله تعالى ومشيئته عملية الاستيقاظ ، وقد يستقصر المستيقظ ساعات غيابه في نومه، مع أنه يعيشها يومياً، فَمَن هو الذي أخذ هذه النفس مدة نومها، ثم أعادها لتعود كما كانت من الحركة بعد السكون، وإلى الشعور بعد انعدامه، ومن الغياب إلى الانتباه، فقد كانت غائبة

عن الوجود، وقد سمى الله تعالى ذلك بالوفاة، لأنها تشبه وفاة الموت ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ ومعنى يتوفَّى كما قال بعض أهل العلم، ومنهم القرطبي رحمهم الله تعالى: هو استيفاء الشيء. وتوفي: أي استوفى عدد أيام عمره، فالذي ينام كأنه استوفى حركته في اليقظة، والوفاة: الموت[١] والنوم هو قبض الروح عن التصرف، كما تُقبض بالموت.

فلفت الله تبارك وتعالى انتباه الإنسان إلى أنه هو الذي بقدرته سبحانه وتعالى تَوَفِّى النائم في منامه. فإن الذي يتوفاكم بالليل حتى انعدمت إحاطتكم بأنفسكم، هو الذي أحاط بكم علما في حركتكم، وما تكسبون، وما تعملون في النهار ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ فتدرج في التعليم والإعلام من السكون إلى الحركة، فمن حال النوم إلى حال اليقظة، ومن إيقاع الوفاة والسكون بكم، إلى العلم بدقائق حركة الإنسان، وذكر سبحانه وتعالى الجرح في النهار ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ فالجرح هو الكسب، وهو الغالب على حركة الإنسان في النهار، من أجل تحصيل المنافع والمكاسب، وسميت بعض أعضاء الإنسان بالجوارح لأنها الكاسبة، ومن ذلك الاجتراح، وهو الاكتساب، وقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن الاجتراح عند العرب هو عمل الإنسان بيده، أو رجله، أو فمه، وهي الجوارح عندهم[٢] فكانت كلمة ﴿جَرَحۡتُم﴾ أشمل وأبلغ وصفاً لحال الإنسان في النهار. وخص الليل بالنوم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ لأنه الأكثر نوماً، بينما خص النهار بالجرح لأنه الأكثر حركة وتكسباً ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ بالرغم من أن الإنسان قد ينام القيلولة في النهار، وربما عمل بالليل، ولكنه على غالب أحوال الإنسان، ولأنه الأصل في حياته، وهو الأمر الفطري والطبيعي للإنسان، فسبحان الله تعالى في عظمة بيانه ودقة كلامه، ونهج السياق وتحقيق المراد، وقوة اللفظ وغزارته، وفي جمال مبناه وقوة معناه. فإن في هذا ما يبين للإنسان كمال قدرته سبحانه وتعالى، وسعة علمه، وتأكيد ربوبيته وألوهيته، بأنه رَبَّ كل شيء ومالكه وخالقه، وأنه لا إله إلا هو، الخالق الذي يجب ألا يُعْبَد غيره سبحانه وتعالى.

ثم يتدرج البيان القرآني الكريم في التفصيل والإيضاح، إلى البعث، فيقول تبارك وتعالى ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ فيلفت الانتباه إلى أنه هو الذي بقدرته يوقظكم من نومكم ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٥/٩)

فهو الذي يوقظكم في النهار، لتتمكنوا من إدارة حالكم. وفيه لفت الانتباه كذلك إلى أنه يجب أن تدركوا قدرة ربكم على البعث بعد الموت يوم القيامة.

وفي تدرج بياني يقول تعالى ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لتبلغوا الأجل المحدد لانقطاع حياتكم، فيستوفي كل إنسان ما ضُرب له من العمر، فيعلم المخاطب بذلك كمال قدرته وتدبيره سبحانه وتعالى في انقضاء الأجل، وأيضاً ليعلم الإنسان ويقيس على ما علم من المحسوس: من حال اليقظة بعد النوم بما غاب عنه من البعث والنشور بعد الموتة الكبرى، فإن الذي أيقظ بعد فقدان الحياة بالموتة الصغرى، هو الذي يبعث بعد فقدان الحياة بالموتة الكبرى، فيفقد الإنسان يقظة الحياة، والحركة والاكتساب. وبالتالي فما هو الذي يمنع أن تتعلم أيها الْمُخَاطَب من ذلك، بأن الذي أحياك بعد أن أماتك في نومك، هو الذي يحيك بعد أن يميتك الموتة الكبرى. ففي هذا استدلال وقياس؛ وتقريب الفهم والعلم للمخلوق من الخالق، بأفضل وأقوى الحجج والبراهين. ولو تأمل الإنسان في نومه، لوجد أن النوم يغلبه مغالبة، ويطرحه إن لم يستجب له طواعية، وكذلك نهاية الحياة الدنيا غالبة عليه مغالبة لا مفر له منها، فيا أيها الإنسان استجب لآخرتك بطاعة الذي قضى لك أجلا مسمى إلى حين.

ثم يتدرج التوجيه والبيان الرباني إلى خاتمة المطاف ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة. فإن مرجع الجميع وعودتهم بعد الموت سيكون لله تعالى، وقد نسب المرجع والعودة إليه تبارك وتعالى ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيكون الحساب والجزاء ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا البيان عن إخبار الإنسان بكل ما صنع، دليل على قوة الإحصاء ودقته، فلن يغيب عن علمه سبحانه وتعالى معصية ولا حسنة مهما كان صغرها، كما أحصى تساقط الأوراق والحبوب وغيرها فيما سبق من البيان الكريم. وبالتالي فليس بعد هذا الإنباء والإخبار إلا الجزاء، فإن هذا تعليم بيان وإنذار، قد استوفى كل ما يستدعي الإيمان به عَزَّ وجل، وبأنبيائه، وبما معهم من الكتب، وآخرهم وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك الإيمان بالبعث والنشور، مما يستوجب طاعته سبحانه وتعالى، باتباع رسوله الكريم، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكتابه القرآن العظيم.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى قوته القاهرة ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء[1] ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: ملائكة يحفظون الإنسان، ويحفظون أعماله إلى أن يحضره الموت، قال السدي: هي المعقبات من الملائكة، يحفظونه ويحفظون

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٣/٢)

عمله[١] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ حتى إذا جاء أجله المسمى، توفته الملائكة الموكلون بأمره وشأنه، قال ابن عباس رضي الله عنهما، وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة، يخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم[٢] وهم لا يفرطون في ذلك. ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ أي: ردهم الله بالبعث للحساب[٣] وقال الطبري، رحمه الله تعالى: رُدَّت الملائكة إلى الله سبحانه وتعالى[٤] ويحتمل أن المراد بقوله تعالى ﴿ رُدُّوٓاْ ﴾ يعني جميع الخلائق إلى الله تعالى يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله[٥]﴿ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي: خالقهم ورازقهم وباعثهم ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ ﴾ فله سبحانه وتعالى الحكم والقضاء والفصل، ومن صفة حساب الله تعالى سرعة الحساب والحكم والفصل ﴿ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ فلا يحتاج سبحانه وتعالى إلى ما يحتاجه المخلوق من الأوراق والعد، والعدد، والفكر، فهو أسرع مَن حاسب وحَسَب سبحانه وتعالى، ليس كمثله شيء. وفي هذا مدح وثناء على قدرة الله تعالى، المتناهية في سرعة الحساب والفصل والجزاء. فلا تُقاس أمور الآخرة بأمور الدنيا، ولا تقاس قدرة الخالق بالمخلوق، وفي إدراك هذا، ما يقوى إيمان المسلم، ويدفعه للامتثال.

﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٩/٩)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٣/٢)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٧)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩٣/٩) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٣/٢)
(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٣/٢)

يكشف الله تعالى ويبين ما كان من حال المشركين، وذلك بمخاطبة نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بما يخاطبهم به ويقوله لهم ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ قل لهم، سائلاً ومذكراً لهم بحالهم عندما تمر بهم الشدائد، وهم في البر، أو عندما يكونوا في البحر، فاسألهم بسؤال تقريري، يقرر حالهم عندما تعصف بهم الشدائد، فلمن يلجؤون، وسمى الله تعالى تلك الشدائد بالظلمات ﴿ ظُلُمَٰتِ ﴾ لقوتها وشدتها، فيشعر الواقع فيها بظلمة كل شيء؛ حتى الفكر والتفكير، كما جاءت ﴿ ظُلُمَٰتِ ﴾ بصيغة الجمع، لبيان تعددها وتنوعها وكثرتها، وأن مِن قوة كربها على النفوس أنها حالكة الظلام، لا بصيص للنجاة، ولا سبيل ولا أمل للخروج منها، فكيف هو حالكم عندما تعصف بكم تلك الشدائد، فلمن كنتم تلجؤون؟ فمن نجاكم منها؟ عندما كنتم تبادرون ربكم بالدعاء، والتذلل والاستكانة له عَزَّ في علاه، والاستغاثة به وحده، سبحانه وتعالى لا شريك له، وتتركون كل معبوداتكم، فلا تلتفتون إليها، وإنما تلجؤون إليه وحده لا شريك له ﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فتدعونه ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ أي: تذللاً، فتظهرون تذللكم وشدة فقركم وحاجتكم إليه سبحانه وتعالى، وكذلك تدعونه خفية ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ فتدعونه في نفوسكم، كما تدعونه ظاهراً، وتقولون ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فتشترطون على أنفسكم إخلاص الشكر والتذلل له وحده لا شريك له إن أنجاكم من هذه الكرب حال ما تقعون فيها. وفي اشتراطهم هذا، دليل على اعترافهم بأنهم حال الرخاء لا يكونون كما يجب من الإخلاص لله تعالى في شكره وتوحيده، بل إنهم في الرخاء يعودون إلى معبوداتهم من الأصنام، وفي هذا اعتراف منهم بوجود الله تعالى، وأنهم لا ينكرونه، ولكن يعبدون معه آلهة أخرى، يَدَّعون كذباً أنها تقربهم إلى الله زلفى.

فالسؤال في الآية الكريمة ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ هو سؤال تقريري، لحالهم وواقعهم بما يكونون عليه وقت الشدائد، وانحرافهم عن الإخلاص عند الرخاء، وفي نفس الوقت هو سؤال استنكاري، إذ كيف تصدون عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وعن كتاب الله عَزَّ وجل وعن طاعته، وهذا هو حالكم وقت الشدائد. مما يبين أن صدودهم هو صدود عناد وتكبر، وهذا يفيد في المجال الدعوي والتربوي والتعليمي أهمية السياق، وأهمية تقرير المخاطب، وأهمية الاستنكار بعد التقرير، وأهمية التذكير، وإعادة المخاطب لواقعه وحقيقته، فإنها أدعى في إقامة الحجة والبرهان.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم بما يقررهم أن الله وحده هو الذي ينجيكم ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ فهو الذي ينجيكم من تلك الشدائد العظام، بل ينجيكم ﴿ وَمِن

كُلِّ كَرْبٍ ﴾ فجمع الله تعالى في هذه الجملة ﴿ وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ جميع الشدائد التي يقعون فيها، فجمعت صغيرها وكبيرها، ونوعها وعمقها وحالها. ومعنى الكرب هو: الغم الذي يأخذ النفس عن اعتدالها إلى ما يقلقها، فينقلب بها إلى ما يُضَاد الاعتدال.

ثم بين الله تعالى حالهم بعد انتهاء الكروب والشدائد ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ فتعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك، وكأنه لم تقع بكم شدة من قبل، وكأنكم لم تأخذوا العهد على أنفسكم، إذ كنتم تقولون ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ مما يبين أن حال بعض الناس عند الشدائد هو الاستكانة والعودة إلى الحقيقة الأصلية من الطاعة والتضرع إلى الله تعالى، ثم إذا زال الكرب، وأصابته العافية نسي ما كان عليه من حال، ومن تعهداته لله تعالى، وإن في معرفة هذا ما يستوجب الحذر من هذه الحال، فيستوجب الانقياد لله تعالى حال الرخاء، وحال الشدة.

وبعد أن وَضَّح وعَرَّف اللهُ سبحانه وتعالى المشركين فيما سبق من آياته البينات بوحدانيته، وبما لا يستطيعون إنكاره من الحجج والبراهين، والتي منها استغاثتهم به سبحانه وتعالى عند اشتداد كرباتهم عليهم، يحذرهم الله تعالى ببيان قدرته على معاقبتهم بعذاب شديد من عنده ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ فيأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينذرهم بقدرة الله تعالى على أن ينزل عليهم عذاباً من السماء، كالرجم، والصيحة، والريح، أو أن يصيبهم العذاب من تحتهم ﴿ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كالخسف، والرجفة، أو ﴿ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ فيبث فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فِرَقاً، لأن اللبس هو الخلط، فاللبس يؤدي إلى التفرق، والتفرق يؤدي إلى التباغض والتعادي، ثم يحصل بينكم القتال بسبب هذا الاختلاف ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ فبالقتال والحرب تتذوقون شدة بأس بعضكم بعضا. وفي هذا خطاب تحذيري، وترهيب من مغبة العصيان والتمرد، وعدم الطاعة، كما أن فيه بيان من أن الاختلاف يولد المعاداة، والمعاداة تُثمر الحرب والقتال، وكل طرف يريد أن يذيق الطرف الآخر بأسه وشدته ونكايته به ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ مما يبين شراسة الاقتتال والعداوة.

كما يبين هذا النص الكريم: أن بعض الاختلاف انتقام من الله تعالى للمتمردين على دينه بالمعصية. ومن لطف الله تعالى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى كما في صحيح مسلم أنه قال عليه

الصلاة والسلام (سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها) [1]

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالتأمل في تَنْويعِ الله تعالى للآيات، والحجج والبراهين، ليتفقهوا ويتفهموا، وهو كذلك توجيه عام للْمُخَاطَبين من خلال شخص النبي صلى الله عليه وسلم، الذي هو المبلغ عن ربه تبارك وتعالى. فقال جَلَّ جلاله ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ تأمل كيف ينوع الله تعالى آياته ويُصَرّفُ الحجج مرة بما في السموات والأرض من آيات، ومرة بما أصاب الأمم وتغيير حالها من حال إلى حال، ومرة بما خلق من النبات والأنعام، وتقليب الليل والنهار، ومرة بما يحصل لهم كالنوم واليقظة، كل ذلك حتى يفقهوا بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي. مما يبين ويفيد أهمية التفكر والتفهم في آيات الله تعالى، وتصريفه لها سبحانه وتعالى، حتى يدرك الإنسان عامة، والمؤمنون خاصة حكمة الله تعالى وحججه وبراهينه. كما يفيد هذا أهمية تصريف الأمثلة والبيان والشرح عند التعليم، فإنه أدعى للفهم والفقه، وبيان المعرفة وترسيخها.

ودلالة كلمة ﴿ٱنظُرۡ﴾ جاءت بصيغة الأمر، لتفيد أهميته، ولتفيد عظيم ما تنظر ويُنْظَر إليه من تصريف الله تعالى للحج والبراهين، ليؤمنوا، ويوحدوا الله تعالى، ويطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وجملة ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ تفيد الأمر بالتأمل والتدبر، وتقليب البصر والبصيرة لإدراك ذلك، وما فيه من تنوع الحجج وقوتها الكافية، ومع ذلك يصدون عنها. ففي كلمة ﴿ٱنظُرۡ﴾ الأمر بنظرة التأمل، والتفكر في عظمة البيان، والحجج من الله تعالى. وكذلك فيها مع ما بعدها من السياق التعجب من حالهم تجاه عدم تجاوبهم مع تلك الآيات الباهرات. وفيها أيضاً التعجب، وهو عجب الاستنكار من هذا الإعراض والصدود المتعمد، وفيها الأمر بالتعرف على الآيات وقوة بيانها، وقوة حجتها، ومنهج تصريفها وبيانها، وانصرافهم عنها، وكذلك رحمة الله تعالى للناس بهذه الآيات الباهرة، ليتفقهوا ويفقهوا بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي وعموم الكفر، فينقذوا أنفسهم بطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وكذلك تفيد دلالة ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ الأمر بالتعرف على منهجية بيان الآيات والحجج، وقوة بيانها واستدلالها، وحجيتها، ووضوح برهانها، ومع كل هذا البيان العظيم ينصرفون عن آيات وحجج الله تعالى، فتأمل كيف ينصرفون عنها، بما يعطي العبرة والدروس. وأيضاً تعطي دلالة ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ في هذا السياق المبالغة من التعجب لأمرهم، وصدودهم، وكذلك التعجب من قوة الآيات والحجج، وقوة تصريفها بالتنوع والبيان،

---

[1] مسلم، صحيح مسلم (٢٢١٦/٤) برقم (٢٨٩٠)

وعرضها بأوجه مختلفة، فتلامس واقعهم عند الكرب، فيلتجؤون إلى الله تعالى حينها، بل وإفرادهم لله تعالى بالتذلل، وبطلب الحاجة والمسألة أن يزيل كربتهم، ومنها بيان آية منامهم واستيقاظهم، وقياسها على الموت والبعث والنشور، وغيرها من الآيات التي تناولتها آيات الله تعالى، فعجب لأمر هؤلاء، وعجب لأمرهم هذا. وكذلك تفيد دلالة ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ﴾ في سياقها: عجب التعظيم للبيان من الله تعالى في إقامة الحجة عليهم، والمبالغة في التعجب من حالهم. وكذلك عجب الاستنكار لإعراضهم؛ مع قوة ما جاءهم من تلك الحجج والبراهين. فسبحان الله في قوة بلاغة بيانه؛ وجزالة كلامه، وسبحان الله تعالى في رحمته، وسبحان الله في أدلته وحججه وآياته، فما أعظم كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وما أعظم هدايته ورحمته بخلقه جَلَّ جلاله.

بعد هذا البيان المستفيض بالآيات والحجج والبراهين، يقول الله تعالى عن كفار قريش ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ فوجه الله تعالى خطاب الإخبار والبيان لرسوله صلى الله عليه وسلم، فلقد كذب ﴿ قَوۡمُكَ ﴾ أي: كفار قريش بما جئتهم به من القرآن والهدى والبيان والتحذير من العقاب ﴿ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ فالذي كذبوا به هو الحق الذي لا حق سواه. بما يفيد حصر الحق فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى.

وجملة ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ تفيد أيضاً التحذير والتوبيخ لهم، بما يستغربه العاقل، إذ كيف يكذبون هذا الحق الواضح، مما يستثير هذا السياق الفكر للتأمل والتفكر في كيف يصد العاقل الحق المبين؟ فما الذي يمنعهم من قبوله؟ إلا العناد والكبر والحسد، بما يفيد انتفاء الموانع كلها عن قبولهم للحق، ولكن يا نبي الله أعلمهم، وأخبرهم بحدود مسؤوليتك عنهم ﴿ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾ أي: لستُ عليكم بحفيظ، ولست موكلاً بكم، ولست بحافظ أعمالكم حتى أجازيكم عليها، إنما أنا منذر، فقد بَلَّغتُ وأنذرتُ. وفي هذا نفي مسؤولية الرسول صلى عليه وسلم عن عدم إسلامهم. فلستَ مُكَلَّفاً أيها الرسول أن تكون بمنزلة الوكيل عليهم، وهو ما تطيب به نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المسؤولية، ومن حيث أنك بذلت الوسع، وأديت الواجب وأديت ما أنت مكلف به من مسؤولية. وفي نفس الوقت يحمل هذا البيان التحذير لهم من مغبة تكذيبهم.

ثم قال تعالى ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ وهذا مزيد تحذير ووعيد لهم، فلكل خبر قرار يستقر عنده، ونهاية ينتهي إليها، فيتبين الحق والصدق من الكذب والباطل ﴿ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ وسوف تعلمون حينها أيها المكذبون صحة ما أخبركم به من وعيد الله إياكم، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: رأوا ذلك وعاينوه، فَقَتَلَهُم يومئذ بأيدي أوليائه من المؤمنين. وذكر كذلك: فكان نبأ القرآن استقر يوم بدر، بما كان

يعدهم من العذاب[١] وقال السدي: فاستقر نبأ القرآن بما كان يعدهم من العذاب يوم بدر، وفي الآخرة جهنم[٢] مما يبين أن ما وعد الله تعالى به يتحقق، سواء كان موعد تحققه في الدنيا أو في الآخرة.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمنهجية التعامل مع من يخوض في آيات الله تعالى بالاستهزاء والطعن والرد، فيقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعاً له ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ إذا رأيت في مجالسهم أنهم يخلطون بين الحق والباطل، بالتكذيب والاستهزاء فلا تجالسهم حتى ينتقلوا إلى أمر آخر. وذكر السعدي رحمه الله تعالى: أن المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، فأمر الله تعالى رسوله أصلاً، وأمته تبعاً له، إذا رأوا من يخوض في آيات الله بشيء مما يخالف الحق، فأعرضوا عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور، فإن كان فيه مصلحة، كان مأمور به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد، ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق[٣]

وجاءت دلالة كلمة: خوض، في القرآن الكريم بمعنى الكلام الباطل المخالف للحق، أو الخوض فيما يُذَمُّ الشروع فيه، قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ وقال تعالى في سورة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١١/٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٣/٣)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٢/٢)

التوبة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ وقال تعالى في سورة الطور ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ ما يبين ويُثبت خوض خصوم هذا الدين في مضمونه، لإبعاد الناس عنه، وفي الشطر الثاني من قوله تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ بيانٌ لمنهجية التعامل مع من يخوض في آيات الله تعالى، ويتنقص منها، وكلمة ﴿ يَخُوضُونَ ﴾ تعني الكلام في دين الله تعالى بالباطل، وذكر الإمام الشوكاني رحمه الله: أن كل شيء خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل أي خلطه، وأصل الخوض يكون في الماء، فاستعمل في غمرات مجاهيل الأشياء، تشبيهاً بغمرات الماء، فاستعير من المحسوس للمعقول(١) وفي لسان العرب: الخوض: المشي في الماء وتحريكه، ثم استعمل في التلبس بالأمر. والخوض من الكلام: ما فيه الكذب والباطل(٢) وفي هذا البيان من الله تعالى كشف لما يقومون به من القدح، وخلط الحق بالباطل، فيكون خلطهم في آيات الله تعالى بصنوف التكذيب، من التندر والاستهزاء والطعن والرد والتشكيك، والتأويل الفاسد، فيدخل في كلمة ﴿ يَخُوضُونَ ﴾ جميع أوجه التلاعب بآيات الله تعالى، فاستوعبت دلالتها البيانية جميع أنواع ما يخالف الحق. كما استوعب قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَخُوضُونَ ﴾ جميع من يقدح ويكذب بآيات الله تعالى ويستهزئ بها من المشركين واليهود، والحاسدين، وأهل الأهواء، والباطل. وهذه من دقة البيان في استيعاب اللفظة لجميع أصناف الخائضين، وحالات الخوض في آيات الله تعالى، دون حصرها في فئة محددة، وإن كان نزولها في معالجة واقع في حينه، إلا أن سلطان النص وقاعدته مستمرة، فالعبرة بدلالة النص لا بخصوص السبب.

ثم بعد البيان جاء الأمر بمنهجية التعامل معهم، لتكون قاعدة للمؤمنين في كل زمان ومكان ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ فاترك مجالسهم، حتى يتركوا الخوض في القرآن العظيم، ويخوضوا في غيره، وفي هذا ما يفيد عدم مجالسة الذين يستهزئون بالدين، ويحرفون دلالات الكتاب والسنة، وأما إذا خاضوا في غير ذلك فلا بأس إن كان فيه مصلحة. وقد سمى الله تعالى ما ينتقلون إليه من حديث في غير آيات الله تعالى بالخوض ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ والخوض كما تبين هو الكلام بالباطل، وذلك أن خوضهم

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٢٨/٢)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (١٤٧/٧)

في غير آيات الله تعالى لن يسلم من شيء من الباطل، لكنه أهون، ولذلك سَمَّاه الله تعالى: خوض ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ ﴾ فلن يسلم من تداخل الباطل بالحق، لأن من تجرأ على آيات الله تعالى فهو متجرئ على ما هو دونه، ولكنه أخف، كونه في أمور الدنيا، فيكون في حديثهم شيء كالتفاخر، أو التحاسد، أو الكذب، أو الغلط، أو عدم التثبت من الأخبار، وغير ذلك. والإذن بالجلوس معهم في غير الخوض في آيات الله تعالى لتحقيق المصلحة، كالنصح والإرشاد والبيان، فلعلهم يرجعون ويهتدون، أو تتحقق بذلك منفعة أو مصلحة تتضح في وقتها، وفي ترك هذه المساحة من الجلوس معهم ومخالطتهم في غير الخوض في آيات الله تعالى، ما يبين عمق أحكام الله تعالى ودقتها في مراعاة أمور يتبين حالها الْمُخَاطَب بحسب الحال، والله تعالى مطلع على السرائر والأحوال، لكنها دقة في الضبط، وتقعيد القواعد السلوكية والاجتماعية مع غير المسلمين؛ ممن له خوض في آيات الله تعالى بالباطل.

ومن فضل الله تعالى أنه بين منهجية التعامل حال إن حصلت غفلة أو نسيان، أو انتقل الكلام إلى الخوض في آيات الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن حصل النسيان، فلا تقعد مع هؤلاء الظالمين بعد هذه الذكرى من الله تعالى. ومن دقة البيان القرآني الكريم، أن جعل الله تعالى سبب وعلة القعود معهم بعد النهي هو افتعال من الشيطان، وذلك بإحداثه ما يوقع النسيان، فإذا ذكرت فلا تقعد معهم، وهذه قاعدة وبيان في منهجية معالجة حال ما يقع فيه. وإن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو لجميع المؤمنين.

وعن حدوث النسيان من النبي صلى الله عليه وسلم: أنه في إحدى الصلوات قيل للنبي عليه الصلاة والسلام: صليت كذا وكذا. فثنى واستقبل القبلة وسجد سجدتين، ثم سلم، فلما أقبل عليهم بوجهه قال (إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني) [١] وفي قوله صلى الله عليه وسلم (إنما أنا بشر مثلكم) يدل على أن النسيان يكون فيما هو مخصوص ببشريته صلى الله عليه وسلم، وأما فيما يخصه من النبوة وأمر تبليغ الرسالة فإن الله تعالى عاصمه من ذلك.

وعن قوله تعالى ﴿ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: هذا النهي للتحريم، لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم، وعن الإنكار. فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر، والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زواله وتخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/١٤٨)

قال ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ولكن ليذكرهم، ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى[١]

وقرر تبارك وتعالى منهجية وقاعدة لذلك، فقال عزَّ وجل ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فمن اتقى الله تعالى، وخافه، فأطاعه فيما أمر، واجتنب ما نهاه عنه، فليس عليه من إثمهم شيء. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن الذين يتقون في قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أن فيه قولين: يتقون الشرك، والثاني: يتقون الخوض[٢] فالمؤمنون الذين يتقون الشرك، ويتقون الخوض في آيات الله تعالى، ليس عليهم محاسبة الخائضين على كفرهم وآثامهم، وإيقاع عقوبة خوضهم، وأيضاً لا يلزمهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم، أي: من حساب الله تعالى للخائضين المستهزئين بآيات الله تعالى، ولكن الذي يلزم المتقين هو تذكيرهم بالموعظة والبيان لهم، وقد حرر الإمام الطبري رحمه الله تعالى دلالة كلمة ﴿ذِكْرَىٰ﴾ بمعنى الذكر، وأن الذكر والذكرى بمعنى واحد[٣] فلعل الخائضين يتقون مغبة الاستهزاء فيتركونه، وبذلك يتقون وعيد العذاب ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مما يبين أهمية الدعوة، وأهمية تنبيه المدعو، وتصحيح فكره، وأن لا يُسكت عنه، وسواء استجاب أم لم يستجب، وكذلك أهمية التقوى، إذ نعت الله تعالى المؤمنين الذين جالسوا الخائضين بالتقوى ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لأن التقوى تمنعهم من مشاركتهم ومجاملتهم بالخوض معهم فيما خاضوا فيه، أو عدم إنكار ما يخوضون فيه. كما أن التقوى تستدعي وتستثير المتقي نحو بيان الحق، فيقوم بواجب التنبيه والبيان بما يعظ به الخائضين بالباطل. مما يفيد كذلك أن من سكت عنهم فقد جاراهم في خوضهم، فلم تتحقق منه وفيه التقوى، مما يبين أن للتقوى أثر في التفاعل الصحيح مع المواقف. وهذا يستدفع المتقي إلى بذل النصح المناسب الذي يستدفع به المنصوح نحو الأخذ بالحق، لعله يهتدي ويتقي الباطل، فيتقي بذلك العذاب.

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٣٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٤٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٣١٦)

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بترك الذين تعنتوا من أهل الكفر والضلال ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وفي هذا النهي ما يفيد عدم إشغال نفسك وقلبك بالذين اتصفوا بالاستهزاء واللهو واللعب بآياته سبحانه وتعالى إذا تُليت عليهم، كونهم مغترين بظاهر الحياة الدنيا، فأعرض عنهم. وفي هذا التوجيه من الله تعالى ما يفيد التهديد والوعيد لهم، فاتركهم في استهزائهم ولعبهم، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد والانتقام. كما أن دلالة كلمة ﴿ لَعِبًا ﴾ تفيد أن تعاملهم مع ما جاءهم من الحق هو تعامل من يلعب بالشيء، تسلية واستهتاراً. وكلمة لهو ﴿ وَلَهْوًا ﴾ تفيد تأكيد دلالة اللعب، بأنهم منشغلون عما يهمهم ويعينهم من أمر الله تعالى ونهيه، إلى الغرور بالحياة الدنيا، فأشغلتهم وغرتهم زينة الحياة الدنيا عن الأعظم والأنفع والأبقى ذخراً يوم القيامة. فجاء الوصف مصوراً لحالتهم وطريقة تعاملهم مع دين الله تعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم في لعب ولهو.

ثم يقول تعالى ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ فذكرهم بالقرآن ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ ﴾ لأن القرآن الكريم فيه عظيم المواعظ، وأبلغها أثراً، وأوضحها بياناً قبل أن يُهلكوا بما اكتسبوا، فارتهنوا به ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي تُرتهن وتُهلك بما كسبت، قال مجاهد وقتادة والحسن وعكرمة والسدي: الإبسال: تسليم المرء للهلاك[1] فَذَكِّرِ بهذا القرآن أولئك المتلاعبين والمستهزئين قبل أن ترتهن نفوسهم بالهلاك، فيسلمونها للشقاء والعذاب المقيم، فعندها لا ينفعهم أحد من دون الله تعالى ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ فلا يتولاها من دون الله تعالى لا قريب ولا صديق، ليشفع لها فيما كسبت وارتهنت به من العذاب ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ فإن تفتدي بكل فداء من سوء العذاب، فلن يقبل منها شيء أبداً، وفي هذا قطع بأن العذاب متحقق للمكذبين المستهزئين المتلاعبين بدين الله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أولئك الْمُهْلَكُون بما اقترفوا على أنفسهم، فَأُسلِمُوا لعذاب الله تعالى جراء ما كسبوا في حياتهم الدنيا من الصد عن دين الله تعالى، واتخاذه لعباً وسخرية. ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ

([1]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/٧)

بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ فإن لهم من العذاب ماء ساخن شديد الحرارة، فيشربونه لشدة حاجتهم له، وأيضاً لهم عذاب مؤلم جزاء بما كانوا يكفرون من آيات الله تعالى وينكرون رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمشركين ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ أيمكن لنا أن ندعو من دون الله تعالى أصناماً وأوثاناً لا تنفعنا ولا تضرنا، كيف يمكن ذلك؟ فهو سؤال استنكاري، يحمل في دلالته معاني ومقاصد بيانية عظيمة، منها: قطع الوهم والرجاء والأمل من أن يتخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دين الله تعالى، بأسلوب بياني توضيحي وقطعي عن عجز كل ما يُعبد من دون الله تعالى عن النفع والضر، ليدخل في ذلك جميع ما يُعبَد وما يخترع من معبودات من دون الله تعالى، سواء ما يعبدونها أو ما يعبدها غيرهم، لأن ذكرها لم يكن بمسمياتها بل جاء بسياق العموم عن عدم قدرتها على النفع والضر، وليس بسمياتها ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ فيدخل في ذلك كل معبود من دون الله تعالى على مر الأزمان والأمكنة والعصور، كما أن الله تعالى حدد أن كل معبود هو من دونه سبحانه وتعالى ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ وكل شيء هو دونه وأسفل منه، وتحت سلطانه وقهره عزَّ وجل. وبالتالي كيف تعبدونها وتتركون توحيد ربكم الخالق العظيم؟

وفي هذا تصوير دقيق لحقيقة كل ما يعبد من دون الله تعالى أنه عاجز تمام العجز. فكيف ندعوا ونتجه لمعبودات عاجزة عن تقديم النفع لنا، وأيضاً ممتنع عليها أن تعاقب من عصاها، فتُلحِقُ به ضرراً ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ وفي ذلك استبعاد أن يكون ذلك منها، فكيف إذاً تُعبد من دون

الله تعالى مع هذا العجز الثابت عليها ولها، وفي هذا استثارة للعقول نحو التفكير فيما تتجه إليه من المعبودات العاجزة، وأيضاً تحقيراً لكل فكر وعقل ينحدر به هواه لهذا أو لمثله.

وجاء استثارة الفكر والعقل من خلال سؤال بياني لحقيقة المعبودات من دون الله تعالى، فقد استثار البيان الذهن للتفكر والتأمل، ليعود المخاطَب إلى الحقيقة الناصعة، وأيضاً ليكتشف الإنسان بهذا البيان عمق جهله في التوجه بالعبادة لأصنام عاجزة ليس لها حول ولا قوة. لتكون النتيجة: فإن دعوناها كما تدعونها، فهو ارتداد وانحدار من الحق الواضح الجلي إلى الباطل البائن الواضح الذي لا لبس فيه، فَيُعْتَبَر حالُنا انتكاسة بعد الرشد والفلاح، فكيف يكون ذلك مع هذه الحقائق؟ ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ فليس في عبادتها بعد أن عرفنا الله الملك الحق فلاحاً وفضلاً وتقدماً وارتقاء، بل نكوصاً وتراجعاً وتدهوراً عن الحق إلى الباطل، ومن الهدى إلى الضلال، ومن سلامة الفكر إلى ضلال الفكر، ومن النجاة إلى الوقيعة.

وقد صور السياق الكريم هذا الرجوع بالارتداد على الأعقاب ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ والأعقاب مؤخرة الرجل، فهو ارتداد معضل، ممتنع على العاقل أن يقع فيه، فينتكس على عقبيه، مع وضوح الهدى ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ فالارتداد عن دين الله تعالى كمن يترك المشي عل قدميه ليمشي على عقبيه، فهو رجوع مُعْضِل وممتنع على العاقل أن يفعله، وكما هو ممتنع عن العاقل أن يسير على عقبيه، أي: مؤخرة قدميه، ويترك كامل نعمة القدمين فإنه كذلك يمتنع على العاقل أن يترك نور الحق ليسير في ظلام الجهل والكفر. وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ونُرد إلى ادبارنا، فنرجع القهقري خلفنا، لم نظفر بحاجتنا. وأن العرب تقول لكل طالب حاجة لم يظفر بها: رُدَّ على عقبيه. ويراد به في هذا الموقع: ونُرد من الإسلام إلى الكفر بعد أن وفقنا الله[١] فهي صورة بليغة المعنى وموضحة للهيئة بأدق البيان وأجزله.

وقد جاء النص الكريم متضمناً للتعليل الجازم ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ مما يجعله أمراً مستحيلاً، ليقطع بذلك أملهم وتفكيرهم، وليدركوا الحقيقة الناصعة إدراكاً جازماً. ثم أكد ذلك بمثال ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا﴾ فالذي يرتد على عقبيه بعد هذا الهدى والنور الواضح من الله تعالى، ليذهب إلى ما هو من دون الله تعالى من المعبودات، كمثل الإنسان الذي في فلاة من الأرض، فاستغوته الشياطين، وزينت له هواه، وجعلته في حيرة، وشتات فكري وعقلي وذهني، في حين أن أصحابه الثابتون على الحق، بما هداهم الله تعالى وثبتهم، ينادونه، وهم ماضون على طريق الهداية: هَلُمَّ إلينا، لتكون معنا على الهدى، إلا أنه مع ذلك لا يستجيب لهم، بالرغم من أنه في مساحة من المتاهة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٧/٩)

والحيرة التي لا يعرف كيف يخرج منها، بل أظهرت حاجته لمن ينقذه، ولكنه لا يستجيب لهم. مما يدل على قوة الجحود والعناد الذي أدى به إلى الكفر.

ومن دقة تصوير حال من استهوته الشياطين، وحال أصحابه، أن الله تعالى وصف المكان الذي فيه من استهوته الشياطين بالأرض الواسعة في متاهتها، وهو حائر بين مفاوزها، ومجاهلها ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ بينما وصف أصحابه الذين هم على الحق، أنهم على طريق الهدى، وهو الطريق الواضح الموصل للمراد ﴿لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ لأن الهدى طريق السلامة والنجاة، بينما الأرض عموماً فلاة. وحال هذا الصاد عن الله تعالى هو حال التائه في متاهة الأرض التي يعجز أن يهتدي فيها للجهة التي يقصدها ويريدها. وجملة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تفيد العموم، بأنها مساحة عامة غير محددة بمعالم حتى يخرج منها، ليتبين مقدارها جهالة متاهتها، فإنها تشكل مصيبة له. والمصيبة الأخرى التي هو فيها أنه ﴿حَيْرَانَ﴾ والحيران هو الذي لا يهتدي للجهة التي يقصدها ويريدها. وبالتالي فإنه في أشد الحاجة لمن يرشده، ولكنه لا يستجيب. والمصيبة الثالثة: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ فمع ضلاله في تيه الأرض التي حار فيها، فإن الشياطين تتجاذب هذا التائه حتى استهوته فهواها، إذ حملته على اتباع الهوى، مما يدل على عظيم صورة الضلال الذي هو فيه، وكذلك حاله، ومقدار معايشته لهذا الضلال، وأيضاً ما هي عليه حاله ونفسيته، وما تقوم به الشياطين تجاهه، حتى أوصلته إلى الدرجة التي استهوته فاستهواها، فإنها صورة معبرة وكاشفة لمقدار ظلمة الشقاء والحيرة والنكد الذي يعيشه الضال عن هدى الله تعالى.

ثم أعقب هذا المثال رداً قاطعاً على من دعا إلى عبادة الأصنام ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ فحصر الحق والهدى الذي يهدي إلى الخير في هدى الله تعالى فقط ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ومن دقائق السياق أن حصر الهدى الحقيقي في دين الله تعالى، كما أضيف الهدى إلى الله تعالى، تعظيماً وبياناً أنه الهدى الذي ارتضاه وبينه عَزَّ وجل هو الهدى الحقيقي، وأن غيره ليس هدى، وليس من عند الله تعالى، ولا يرتضيه لعباده، مما يوضح ويؤكد بطلان نهجهم، وأنه عار وخال من الهدى، بل جهلاً، لا حجة ولا علم لهم فيه، وأن منبع مسلكهم الأهواء الشيطانية، حتى أن صاحب تلك الأهواء كالذي استغوته الشياطين، فجعلته في غواية ومتاهة من الهوى، كالأرض التي لا يستطيع أن يهتدي فيها لمخرج.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم قائلا لهم ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أُمرنا بأن نسلم ونستسلم لله تعالى، فنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فنخلص له دون سواه، فهو رب كل شيء ومالكه ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي هذا رد عليهم: بأن تلك المعبودات، ليست هي رب، بدليل تعددها، حتى أن العابدين لها لا يقرون لواحد منها بربوبيته لكل شيء، وهذا دليل بطلانها، وأنها مخترعات بشرية. وكذلك أمرنا من الله تعالى بإقامة الصلاة، والتقوى ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: الإتيان بالصلاة والمحافظة عليها، وتحقيق التقوى بالإخلاص له سبحانه وتعالى، والخوف منه، واتقاء سخطه وغضبه، والرجاء فيه وحده سبحانه وتعالى. ثم بين الله تبارك وتعالى مآل المطيع والعاصي بإيضاح المرجع والمآل ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فهو الذي إليه مرجعكم، فيجمعكم يوم القيامة، فيكون الحساب والجزاء. وفي هذا البيان ما يفيد التحذير والتهديد للمكذبين بالعذاب، مع البشارة للمؤمنين، بأن مرجعهم إلى الله تعالى، حيث يوفهم أجورهم، ويجازيهم بجنات النعيم.

ثم يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: أخبر هؤلاء الذين اتخذوا آيات الله لهواً ولعباً بأن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ فهو الذي خلقها بالعدل، فهو الخالق والمالك والمدبر لهما ولمن فيهما[1] وذكر العلماء في معنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: خلقهما للحق، وخلقهما حقاً، وخلقهما بكلامه وهو الحق، وخلقهما بالحكمة [2] وبالرغم من تعدد الدلالات إلا أن مجموعها متعاضد غير متضاد ولا متعارض، فأعطى معنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أنه سبحانه وتعالى خلقهما لإقامة الحق في الأرض وفي السماء، وليس للباطل، فتضمن ذلك الهدف والغاية، وأيضاً أنه عَزَّ وجل قد خلقهما حقاً، أي صدقاً وصواباً وعدلاً، وبالتالي فليس غيره ممن تعبدونه من الأوثان والأصنام خلقت ذلك، فإذاً كيف تعبدون عاجزاً، وكيف تتوجهون وتصرفون العبادة لمن لا يستطيع أن يخلق شيئاً، فضلا عن خلق السموات والأرض وما فيهما. وأما عن الدلالة الثالثة: خلقهما بكلامه، وهو الحق، ففيه معنى القدرة، بأن خلقهما عَزَّ وجل بقوله تعالى **(كن)** وفي المعنى الرابع: خلقهما بالحكمة، فلأن الله تعالى حكيم، اسماً وصفة، ففي ذلك تنزيه له سبحانه وتعالى عن العبث، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لحكمة وغاية. وبهذا تضافرت المعاني، بما يبين ويدلل على رحابة الكلمة التي استوعبت

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥١/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٧/٣)

تضافر الدلالات المقصودة. فسبحان من أعجز بقوة كلامه وغزارة بيانه عباده، فاتضحت حكمته وإعجازه حتى في الكلمة الواحدة من كلامه عَزَّ وجل.

ويقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، وأخبرهم بيوم القيامة ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي يوم القيامة الذي يقول الله تعالى له **(كن)** فيكون عن أمره، كلمح البصر أو هو أقرب[1] وهذا بيان لعظيم قدرته وسلطانه سبحانه وتعالى ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ فقوله الصدق الكائن لا محالة، سبحانه وتعالى ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فهو الذي له تمام وكمال الملك، إذ تنتفي في ذلك اليوم أملاك بني آدم عنهم، فيما مَلَّكَهُم الله تعالى من أرزاق الدنيا، ويصبح الْمُلْكُ له وحده عَزَّ وجل، فهو المنفرد بالملك وحده ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ والصور هو قرن ينفخ فيه، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال (الصور: قرن ينفخ فيه)[2]

ثم بين سبحانه وتعالى أن من صفاته الكريمة أنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ فهو عالم بما غاب عن العباد معاينته، أو علمهم به، وكذلك عالم بما شاهدوه ورأوه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فهو عالم بالسر والعلانية، فلا يخفى عليه شيء، وأنه تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فهو حكيم سبحانه وتعالى في تدبيره لملكه، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وكذلك حكيم في تصريفه لخلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. وكذلك من صفاته العظيمة أنه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العالم بكل ما يعملون ويكسبون من خير وشر، فلا يفوته من أعمالهم شيء. مما يفيد الحذر يا من تطاولتم على نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى حججه وآياته، فإنه عليم، وحكيم في تعامله وخبير بتصرفاتكم، فلا يغيب عنه منها شيء، فاحذروا يوم ينفخ في الصور، ثم الجزاء.

ومن دلائل ومعاني الخبير: العليم بدقائق مصالح عباده، وبمواضع ومصالح الأشياء جميعاً، وكذلك منافعها ومضارها، فلا تخفى عليه عَزَّ وجل بوادر الأمور، ولا عواقبها، فإن الله عَزَّ وجل خبير بما يناسب

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥١/٢)

(٢) أبوداود، سنن أبي داود (١٠٧/٥)

ويصلح لكل عبد من عباده، فيما هو قليل أو كثير، نوعاً ومقداراً، وحالاً وزماناً ومكاناً، فمعرفته عَزَّ وجل أكثر وأخبر من معرفة العبد بنفسه.

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٧٤)
وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ
ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ
هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ
بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهۡتُ
وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٧٩) وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ
قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي
كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ
أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ
(٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ (٨٢) وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ
ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (٨٣) ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى قصة نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في محاجته لوالده وقومه فيما يعبدونه من دون الله تعالى، وكانت المحاجة بأسلوب حكيم، تستثير العقول، وتشدها نحو معرفة حقيقة من يستحق العبادة والخشية، ليصل بذلك إلى أنه لا خالق ولا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

فابتدأ السياق الكريم بقوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ فاذكر يا محمد لقومك ما قاله إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه آزر في شأن ما كان يعبد آزر من الأصنام ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً ﴾ إذ سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام والده سؤال استنكار من أجل أن يعيده إلى الحقيقة ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً ﴾ كيف يا أبتي تتخذ أصناماً، ثم تجعلها إلهاً، فتتقرب إليها، وتتألهها، وتعبدها؟ وكلمة ﴿ أَتَتَّخِذُ ﴾ تفيد الاستنكار، كيف تتخذ أصناماً آلهة، فتعبدها من دون الله تعالى، فإنه لا

يليق بك ذلك. وفي هذا اثبات وتقرير بأن تَوَجُّه والده آزر لتلك الأصنام هو بقصد العبادة، التي لا تستحق ذلك، كما تفيد ذلك الاستنكار أنك يا والدي أنت الذي اخترتها من بين غيرها، أي فكونك اتخذتها فإنه يجوز منك أن تتخذ غيرها، وهذا يدل على بطلانها، فلماذا اخترتها؟ إذ أن الاله لا يستبدل، ولا يُختار، لأنه لا بد أن يكون واحداً لكل المخاليق، كما يدل هذا على أنها لم تُوجب وتفرض نفسها عليك لتتخذها آلهة، بل أنت الذي اخترت، وأنت الذي اتخذت، فهو سؤال يستثير العقل والفكر ليستحثه نحو التأمل والتدبر، ليتوجَّه بالعبادة إلى الله تبارك وتعالى، الذي خلق فسوى ورزق فهدى.

ثم يقول له ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ فكمي فيما أراه من اتخاذك وقومك هذه الأصنام أنكم في متاهة من الضلال الواضح البائن، الذي لا يتطلب استجلاء البيان، ولا الاستيضاح. إذ أن كلمة ﴿ ضَلَٰلٖ ﴾ تفيد العدول عن الحق، وعن استقامة الطريق، بما هو ضد الهداية تماماً، وكلمة ﴿ مُّبِينٖ ﴾ مؤكدة للضلال بأنه ظاهر الوضوح، فرفعت مستوى الوضوح إلى المستوى الذي لا يخفى على ذي عقل من أنه ضلال ظاهر الوضوح.

ثم يقول الله تعالى في شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ وكذلك كما أوضحنا وأنرنا له بصيرته في الابتعاد عن عبادة الأصنام واستنكارها، فعرف أنها لا تنفع ولا تضر، وأنها لا تستحق أن تُعبد من دون الله تعالى، أرينا إبراهيم كذلك ﴿ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ليجتمع له مع نعمة البصيرة نعمة التأمل والتفكر في مُلْكِ الله تعالى من السماوات والأرض، وما اشتملت عليه من الآيات والحجج والبراهين القاطعة، فيتحقق له بذلك قوة اليقين ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ أي: ليحصل له قوة اليقين، لأن في تأمل مخلوقات الله تعالى المبثوثة في السماوات والأرض من الشمس والقمر، والسحاب والمطر، والجبال والأودية ومجاري السيول، والأنعام واختلافها، والإنبات والزروع وعلاقتها بالمياه، وتدبير الله تعالى لها، وغير ذلك من الآيات، فإنها تزرع اليقين، الذي هو تحقق العلم، فيتحقق باليقين عمق الفهم وسكونه، وثبات الحقيقة في القلب، فلا تتزعزع. فيتحقق بذلك لإبراهيم عليه الصلاة والسلام مما يرى من ملكوت الله عَزَّ وجل وحدانية الله تعالى وقدرته، فيكون موقناً حساً ببصره، وموقناً بقلبه وبصيرته.

ومن الفوائد البيانية أن دلالة كلمة ﴿ مَلَكُوتَ ﴾ من قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ تفيد المبالغة في صفة الملك، فقد أعطت زيادة الواو والتاء المبالغة، فهي أبلغ في اللغة، فالأصل مُلْك، والمبالغة تفيد تأكيد المعنى، وتقويته وزيادة. وهذا التنويه

من الله تعالى يفيد أهمية التفكر والتأمل والتدبر في ملكوت الله سبحانه وتعالى، فإن فيه الدلائل الساطعة، والبراهين القاطعة على أنه رب هذا الكون ومالكه، وأنه لا معبود بحق إلا هو عَزَّ وجل.

وأول فضائل التفكر والتأمل هو معرفة الحقيقة التي ينغرس بها اليقين، وكذلك معرفة كيف يخاطب غيره بالحقيقة بعد أن أدركها إدراكاً تاماً صحيحاً، قال تعالى عن تأمل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴾ فلما أظلم الليل حتى ستر بظلمته كل شيء، رأى إبراهيم عليه السلام نجماً مضيئاً من نجوم السماء، قد يكون الزهرة، أو المشتري، أو غيره من النجوم الساطعة، وعند ذلك قال تَنَزّلاً واستدراجاً لأجل الاحتجاج على قومه ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ فأراد ببصيرته وبصره التي أنعم الله تعالى بها عليه أن يخاطب قومه بما يبين لهم الحقيقة، هل يستحق هذا النجم الساطع القوي أن يكون إلاهاً يُعبد أو لا. فغاب هذا النجم عن الأنظار كأي نجم من النجوم ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴾ فلما غاب ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴾ لا أحب إلهاً يغيب عن مصالح من عبدوه، لأن النجم مُسَيَّر من غيره، فهو مُسَيَّر من الله تعالى، يُظهره ثم يُغَيِّبُه عَزَّ وجل. فاستخرج لهم نتيجة أنه لا يستحق أن يُعبد هذا النجم. مما يدل على أهمية التفكر، وأهمية استثارة ذهن المخاطبين إلى لحقيقة بأسلوب مقنع، لا يجادلون فيه إلا إن كان استكباراً منهم.

ثم تدرج معهم إلى ما هو أكبر من النجم، وهو القمر ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ فلما ظهر القمر بنوره، قال هذا الذي يستحق العبادة، وليس ذلك النجم، استدراجاً ذهنياً لقومه نحو الحقيقة، إلا أن هذا القمر على كبر حجمه وقوة نوره أفل وغاب، فحصل له ما حصل للنجم قبله، فأسقطه من استحقاق العبودية، واستعاض عن قوله ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴾ بالافتقار مباشرة لربه تبارك وتعالى أن يهديه ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فالنتيجة إذاً أنه لا يستحق أن يُعبد، فعاد بقومه إلى أن هناك الرب الحقيقي الذي يستجيب لمن سأله، وأن الهداية والتوفيق محصورة فيه سبحانه وتعالى ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فإن لم يحقق لي الهداية ويثبتني عليها فلا أستطيع تحصيلها من نفسي، ولا الثبات عليها إن حصلتها، فأكون من غير هداية الله تعالى من الفئة التي ضلت وتاهت، ثم تدرج إلى ما هو أقوى نوراً ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ فعلل قبوله بالشمس رباً لكبرها، وتفوقها على النجم وعلى القمر، ولكن حصل للشمس ما حصل

للنجم والقمر من الأفول والغياب والتخلي عن من يعبدها، فقرر براءته مما يشركون به ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ وهنا لم يقل تبرأت من شركي، أو مما كنت أعبد، وإنما قال ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ فنسب الشرك لهم، ولم ينسبه لنفسه، لأنه لم يكن مشركاً قط، بل كان حنيفاً مسلما. وهذه دقة بيانية في الإعجاز البياني، فسبحان الله العظيم.

ثم بين لهم توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته ﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي جعلت توجهي وقصدي والتجائي وعبادتي وسؤالي لله الذي أوجد وأنشأ السماوات والأرض. وهنا لفت انتباه قومه إلى الملكوت كله ﴿ فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ لينتقل بهم إلى الحقيقة، وأن النجوم والقمر والشمس التي نوهتُ عنها لكم بالربوبية ما هي إلا مفردات من هذا الكون العظيم، فلا تستحق العبادة، بل الذي يستحقها هو الذي خلقها وخلق السماوات والأرض. ثم أكد توجهه لله تعالى فاطر السماوات والأرض بالإخلاص له وحده لا شريك له ﴿ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ مخلصاً له تبارك وتعالى، مع نفي الانتماء لكل من أشرك. فلست من المشركين، فلست فرداً منهم. لأن ﴿ مِنَ ﴾ تفيد التبعيض، فلست أنا فرداً من المشركين. وهذا دليل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن مشركاً قط، بل إن نعته للكوكب والقمر والشمس بالرب إنما هو تنزلاً لإقامة الحجة والبرهان على قومه، والتدرج بهم نحو بيان ضعفها وقصورها، وأنها لا تستحق أن تُعبد، وأن هناك من يغيبها بالأفول في هذا الملكوت العظيم وهو الخالق لها وللكون كله. كما أن في قوله ﴿ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ تأكيد للنفي الأول الذي في قوله تعالى ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ وفي هذا تبرئة للنفس من الشرك، وإعلان تلك البراءة، ودفع وإزالة ما يمكن أن يتوهم ويظنه الغير، مما يدل على خطورة الشرك، وأهمية إظهار التوحيد وإعلانه.

وهنا جادله قومه ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ ﴾ فجادلوه في توحيد الله تعالى، وبراءته من الأصنام، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: جادلوه في آلهتهم، وخوفوه بها[1] فقال منكراً لهم ﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ ﴾ وهو اعتراض من إبراهيم عليه السلام عليهم بأسلوب الاستنكار بعد هذه البيانات والمقدمات التي أوضحت لكم

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٢/٣)

بها حقيقة توحيد الله تعالى ﴿ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ أتحاجوني في توحيد الله تعالى وقد أوضح وبين لي ما اهتديت به، واستدليت به على وحدانية ربنا تبارك وتعالى، وبطلان كل معبود من دونه.

ثم ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه عدم اكتراثه بتخويفهم له من آلهتهم ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ فلا أخاف من آلهتكم التي تشركون بها، لأنها لا تضر ولا تنفع، بما يفيد إن كنتم تخافون ضرها وترجون نفعها، فأنا على خلاف ذلك معكم، فلا أخافها أبداً، بما يفيد تحدِّيه لِمَا يزعمون من تأثيرها، ليؤكد لهم سلامته منها، وأنها عاجزة عن كل شيء، وإنما هي خدعة يخدعون بها أنفسهم، وأن ليس لها حقيقة من النفع والضر، فحدد وقصر خوفه من الله تعالى فقط ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ إلا أن يلحقني شيء أراده الله تعالى بي، وأما غيره فلا تأثير ولا خوف لي منها.

ثم بين لهم إحاطة علم الله تعالى بكل شيء ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ فقد أحاط ربي علمه بي وبكم، وبكل شيء، فإن علم ربي عَزَّ وجل كامل وتام سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء. ثم يحيلهم إلى ما يجب عليهم من التدبر والتأمل والتفكر ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تعتبرون بكل هذا، أفلا تعقلون خطأ ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأصنام بعد هذا البيان، وهذه البراهين. إنه سؤال يستحثهم على التأمل والتفكير في هذه المعبودات الضعيفة العاجزة التي يعبدونها ويتركون توحيد الله تعالى الذي له ملكوت السماوات والأرض.

ثم أجابهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بسؤال تقريري، واستنكاري ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ﴾ فكيف تُخَوِّفُوني من أصنامكم، وتريدون مني الخوف منها، بينما أنتم لا تخافون من الله ربي فيما وقعتم فيه من الشرك به سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ﴾ أفلا تخافون من مغبة وجُرم شركم بالله تعالى، وهو لم يُنَزِّل عليكم برهاناً ولا دليلاً على ما تقومون به من الشرك. وبالتالي فما هو دليلكم؟

وبالتالي فأي أحد مِنَّا أحق بالأمن إذاً ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أينا أحق بالأمن من مغبة وعاقبة أمره وفعله واعتقاده، فأينا أحق بالأمن من عذاب الله تعالى، هل هو مَن وَحَّد لله تعالى، أو من أشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً؟ فأينا على الحق والصواب؟ هل مَن عَبَد الذي بيده النفع

والضر ؟ أو من عبد الذي لا ينفع ولا يضر ؟ فأخبروني ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فأخبروني إن كنتم تعلمون البراهين والحجج والحقائق الصحيحة، وتميزون بها الحق من الباطل ؟ فهو سؤال يقرر به أن ليس أمامهم إلا التوحيد، وأن ما هم عليه من الشرك، فإنه لا دليل عندهم عليه من الله تعالى، ولا حتى حجة عقلية تمكنهم من الرد المقنع، بما يقرر أن ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام هي التي في أمن من عذاب الله تعالى. وهذه محاجة قوية في إثبات الحقائق، ورد الطرف الآخر للحقيقة الواضحة البينة. بل إنها تُعَلِّم وتُعَقِّل الإنسان، وتفتح ذهنه للحقيقة الساطعة. مما يبين أد دين الله تعالى قائم على الحق والحقيقة والبرهان.

ثم يخبر الله تعالى بأولى الفريقين بالأمن من عذابه سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: هذا خبر من الله تعالى عن أولى الفريقين بالأمن[1] بأنهم الذين اتصفوا بصفتين عظيمتين: الأولى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فهم المؤمنون الذين حققوا الايمان بالله تعالى وحده. والصفة الثانية ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ الذين لم يخلطوا ذلك الإيمان بالشرك، فأخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا في عبادته، مما يدل على أن الإنسان قد يؤمن بالله تعالى رباً، ولكن يشرك مع الله تعالى غيره في عبادته، أو في شيء من العبادة، فمن يحقق تلك الصفتين فهم الذين لهم الأمن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فهؤلاء الآمنون يوم القيامة، والمهتدون في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فإن هؤلاء قد تحققت لهم الهداية، والسير على المنهج الصحيح القويم، وكونهم هم المهتدون دل على أن غيرهم ليس من المهتدين.

وهذا يدل على أن الشرك أعظم أنواع الظلم كما جاء في موعظة لقمان لابنه في سورة لقمان ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وأن من تلبس بالشرك فقد ألبس إيمانه بالظلم، ولم يتحقق له الأمن، ولم تتحقق له الهداية، مما يفيد أهمية الحذر والوقاية منه، أعاذنا الله تعالى والمسلمين منه ومن كل ما يسخطه سبحانه وتعالى.

ثم بين تبارك وتعالى ما تفوق به إبراهيم على قومه به من الحجج والبراهين ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ فذلك هو ما جرى بينه وبين قومه من احتجاجاته، حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة التي آتيناه إياها، وألهمناه فهمها، ووفقناه لها، وقد نسب الله تعالى الحجة التي أعطاها لإبراهيم له سبحانه

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦٩/٩)

وتعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ﴾ فالحجة حجة الله تعالى، والْمُعطِي لها هو الله عَزَّ وجل ﴿ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ مما يدل ويثبت أن التوفيق والإلهام وتحصيل العلم وفهمه كله من الله تعالى، وأن العبد ما هو إلا آخذ بالأسباب. فكم من الناس تساووا في الأسباب، وتفاوتوا في الفهم والتحصيل. اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه. فالخير منك وحدك لا شريك لك.

ثم قال تعالى مبينا لحقيقة إعزازه لمن يشاء على غيره ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ فالذي رفع درجات إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الله تعالى، وهو الذي يرفع درجات من يشاء من عباده في العلم والفهم والتحصيل، وفي غيرها من الجاه والمال والمكاسب والمحامد، فهو الذي يضع كل شيء موضعه بحكمته وعلمه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فهو حكيم في سياسة خلقه، وفي مقدار عطائه لعباده، وفي تفاوتهم في العطاء والمكاسب وفي التحصيل والفهم، وفي القدرات، وفي كل أمر، لأنه حكيم في تدبيره، وذلك لعلمه الدقيق بكل أحد من خلقه، وما يتوافق معه ويناسبه، وما هو أنسب له عن غيره، وما هو أكمل له، وإن في معرفة هذه الحقائق ما يدفع ويُبعد الإنسان عن الحسد، والطغيان، والتكبر والتجبر والتسلط، وأنه كلما قل فهم العبد لذلك، وكثر جهله بحكمة الله تعالى فيما يعطى ويمنح ويرفع ويخفض، تخبط العبد في سلوكه وجهله. اللهم علمنا وبصرنا واهدينا ووفقنا واحفظ الهدى علينا.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

بعد أن بين الله تعالى ما واجه إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قومه، ومواجهته لهم بالحكمة والحجة، والصبر على ذلك، انتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان ما أنعم الله تعالى به على عبده ورسوله وخليله إبراهيم

عليه الصلاة والسلام، فقال عزَّ وجل ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ فقد أكرم الله تعالى نبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فضلاً عظيماً، إذ سَمَّى ما أعطاه بالهبة، أي المنحة، فقد كبر هو وزوجته سارة، فأيس وزوجته من الولد لكبر السن، ، كما جاء في سورة هود ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ فيكون موقع دلالة ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ في بيان العطاء أنه غير المتوقع، وأنها خصيصة خُص بها، فسبحان الوهاب، واسع العطاء، الرحمن الرحيم، فإسحاق ابنه من صلبه، ويعقوب ولد لإسحاق، بل إن من مزيد عظيم الهبة قوله تعالى ﴿ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ أي: أرشدناهم ووفقناهم إلى الحق والصواب، وجعل صفوة الخلق من نسله، وإنها لهبة ومنقبة عظيمة كريمة من الله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به، كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد، لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب، لضعفه، وقعت البشارة به وبولده، باسم يعقوب، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم، فعوضه الله تعالى عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين، من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه[١]

ثم نوه تبارك وتعالى بهدايته لنوح من قبلهم بمثل ما هدى إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الحق والصواب ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ ثم نوه سبحانه وتعالى عن المزيد من الذرية في سياق يجمع دلالتين ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فيحتمل أن الضمير عائد إلى نوح لأنه أقرب مذكور، ويحتمل أنه عائد إلى إبراهيم، لأن السياق في مدحه والثناء عليه. ففي كونه عائد على نوح عليه السلام، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لو أريد بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم، ولا شك أن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم، ولكنه من ذرية نوح، فلذلك وجب أن تكون الهاء في الذرية من ذكر نوح. فتأويل الكلام: ونوحاً وفقنا للحق والصواب من قبل إبراهيم وإسحاق، ويعقوب وهدينا أيضاً من ذرية نوح داود وسليمان[٢] وأما كون الضمير عائد إلى إبراهيم باعتبار أن السياق في مدحه والثناء عليه فيكون للتغليب كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى، مستدلا بسياق التغليب في قوله تعالى كما في سورة البقر: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٠/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٨٢/٩)

قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ فإسماعيل عمه، دخل في أبائه تغليباً[1] وهنا يمكن القول أن المقصود كلا الوجهين، هذا الوجه وهذا الوجه، فكلاهما مقصودان، لتعم الدلالة الوجهين معاً، وذلك لاشتراكهما في الاصطفاء والدلالة، فوجه الجمع ورحابته دليل على الغزارة البيانية للسياق القرآني الكريم، فكلاهما مرادان، ولا تضاد بينهما. فسبحان الله العظيم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ﴿ دَاوُۥدَ ﴾ وهو دواد بن إيشى ﴿ وَسُلَيۡمَٰنَ ﴾ ابن داود ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ وَيُوسُفَ ﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ وَمُوسَىٰ ﴾ بن عمران بن يصهر بن قاهت بن لاوى بن يعقوب ﴿ وَهَٰرُونَ ﴾ اخو موسى[2] ثم قال تعالى بعد ذكر هؤلاء الأنبياء ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فبمثل ذلك نكافئ ونجازي المحسنين. فاستحق إبراهيم بثباته على توحيده، ودينه، ودعوته، أن يوصف بصفة الإحسان، فرفع الله تعالى درجته، ووهب له أولاداً أنبياء أتقياء. فكما أنعمنا على هؤلاء الذين أحسنوا، فكذلك نجزي بالإحسان كل من أحسن، فاتصف بصفة الإحسان، وفي هذا دفع وتشجيع ووعد متحقق من الله تعالى بأن يجزي من يحسن بالتوفيق والرفعة والمكانة السامية، والذرية المباركة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى المزيد من أسماء الأنبياء الذين اصطفاهم، فقال تعالى ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهدينا أيضاً من ذريته لهذا الذي هدينا له نوح من الهدى والرشاد، ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ بن إدو ﴿ وَيَحۡيَىٰ ﴾ ابن زكريا ﴿ وَعِيسَىٰ ﴾ ابن مريم ابنة عمران ﴿ وَإِلۡيَاسَ ﴾ ابن تسبى، بن فنحاص، بن هارون، بن عمران، ابن أخي موسى نبي الله. وقيل إن إلياس هو إدريس، والذي رجحه الإمام الطبري أن ما قاله أهل الأنساب أشبه بالصواب، بأن إدريس جد نوح بن لَمْك. وأن أخنوخ هو إدريس. وذلك أن الله تعالى نسب إلياس في هذه الآية إلى نوح، وجعله من ذريته، ونوح هو ابن إدريس عند أهل العلم[3] ثم قال تعالى ﴿ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فإن الذين تم ذكرهم؛ هم من الصالحين، وكلمة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/١٦٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٣٨٢)

(٣) المرجع السابق (٩/٣٨٣)

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وصف عام يجمع جميع أوصاف الصلاح في أنفسهم ومع ربهم ومع غيرهم من الخلق، فجمعت كمال الوصف في العبادة والأخلاق.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من الأنبياء ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكذلك هدينا إسماعيل ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ وهو ابن إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ قيل هو صاحب إلياس ﴿وَيُونُسَ﴾ هو يونس بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ من ذرية نوح، وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أن لوطاً وهو ابن هاران بن ازر، ولوط هو ابن أخو إبراهيم عليه الصلاة والسلام(١) ثم قال الله تعالى ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا تفضيل وتزكية من الله تعالى لهم، بأن فضَّلَهم على العالمين، لقاء ما وصفهم به من الصلاح ولزوم الإحسان. مما يعزز ويدفع المؤمن بأن يسعى في الاقتداء بالصالحين من النبيين، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو قدوتنا، ورسول الله إلى الناس جميعا.

ثم قال عَزَّ وجل ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومن آباء هؤلاء المذكورين وذرياتهم وإخوانهم اخترنا من اصطفيناهم بالهداية للحق والصواب، وإبلاغ الرسالة إلى من أرسلناهم إليهم، أي: أن هناك غير ما ذكرنا ممن اخترنا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم لرسالتنا وتبليغها إلى العباد. ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فهذا الهدى الذي هم عليه، هو هدى الله، أي: دين الله تعالى وهدايته ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فهو الذي يهدي به من يشاء من عباده، مما يُوجب سؤال الله تعالى الهداية، وسؤاله الثبات، وسؤاله حُسن الخاتمة ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلو اشرك أولئك الأنبياء المذكورين لبطل عملهم من الحسنات والصلاح، لأن الله تعالى لا يقبل الشرك، وإنما يقبل توحيده وإفراده بالعبادة التي شرعها، وأرسل بها الأنبياء. مما يدل ويفيد على عظيم أمر الشرك، وأنه لا يقبله حتى ولو حصل من الذين أنعم عليهم بالرسالة وخصهم واصطفاهم بها.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إن هؤلاء الأنبياء الذين تم ذكرهم، واصطفيناهم بالرسالة إلى الخلق، هم الذين آتيناهم الكتب التي أنزلناها عليهم، بل ومننا عليهم أيضاً

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/١٦٠)

بالحكم ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي: العلم والفقه، والفهم بالكتاب، ومعرفة ما فيه من الأحكام. ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد وكلنا بالإيمان بها ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي: الأنصار من أهل المدينة، والمهاجرين من أهل مكة[1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أولئك النبيين المذكورين[2] الذين هداهم الله تعالى، اقتدي وتأسى بهديه أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أهمية القدوة، وأهمية التأسي والاقتداء. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني الأنبياء المذكورين، مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان، وهم الأشباه ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هم أهل الهدى لا غير ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي: اقتد واتبع[3] ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا أطلب منكم على القرآن، ولا على إرشادي وبياني لكم أجرة تدفعونها إليَّ، ولا مقابل تقدمونه لي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ إنه فقط موعظة للخلق، فالذي أتيتكم به وهو القرآن، إنه للموعظة والهداية والإرشاد، مما يفيد أنه لا نفع أطلبه منكم بأجرة تقدمونها لي، بل أنتم المنتفعون به.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان ردود الجاحدين من اليهود والمشركين، وتشنيع الله تعالى عليهم جحودهم ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ فما عظّمُوا الله حق تعظيمه سبحانه وتعالى، وما أجَلُّوا الله حق إجلاله، وجملة ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ تفيد أنهم لم يعملوا ما يتناسب مع عظمة الله تعالى ومكانته

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٥٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/١٦٠)

وقدسيته وجلاله وقدرته، فما أنزلوا الله حق منزلته في قلوبهم وعلى ألسنتهم وفي أفعالهم، إذ ردوا كتاب الله تعالى وأنكروه وأنكروا رسوله ورسالته ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ ففي هذا القول إنكار للقرآن العظيم، وَرَدٌّ له، وعدم تنزيهه من الافتراء، بل في هذا القول منهم أن القرآن مفترى إنكارٌ لجميع الكتب ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وبالتالي كذبوا بجميع الرسل، بل في هذا نفي عام عن أن يكون الله تعالى قد أنزل على بشر من شيء، وجملة ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ نفي لكل نوع من الإنزال، سواء كان الإنزال كتباً، أو كان توجيهاً وتبليغاً، بل في ذلك قطع للعلاقة بين الله تعالى وبين البشر، وقد شمل النفي جميع الأنبياء والمرسلين ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فقطعوا بذلك الاصطفاء والاختيار من الله تعالى للأنبياء والمرسلين، وكذلك نفي الوحي. مما يبين تقريرهم بأن الله تعالى ترك عباده هملا، وحاشاه وتنزه سبحانه وتعالى أن يترك عباده هملا من غير توجيه ورعاية، وهو الذي خلقهم لعبادته.

فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فقل يا محمد لهؤلاء المنكرين: مَنْ هو الذي أنزل التوراة الذي جاء به موسى عليه السلام، ليستضيء به الناس ويهتدون بنوره وهداه. وهذا سؤال تقريري لما يعرفون عن موسى عليه السلام، وسواء كانوا من اليهود الذين يُخْفُون حقيقة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم المذكورة في التوراة، أو من غيرهم من المشركين الذين علموا من اليهود بأمر موسى عليه السلام، فلم يكن الأمر خافياً عليهم. مما يدل على أنه متقرر عندهم أمر نبوة موسى والكتاب الذي أُنزل عليه، وإلا لما جاء الخطاب مقرراً لذلك بهذا السياق. وقد بين الله تعالى مراده من إرسال الرسول بأنه لبيان مضمون الكتاب الذي أنزله، والمتصف بصفتين عظيمتين ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فأحدهما: أنه ﴿نُورًا﴾ فهو نور، يضيء لهم طريق الحياة الصحيحة التي يصلون به إلى الآخرة بسلام، والثاني: ﴿وَهُدًى﴾ فهو متضمن للبيان والمنهج الذي يهدي به من اتبعه من الناس إلى الغنيمة والخير والسعادة. وخص الله تعالى به جنس الناس ﴿لِّلنَّاسِ﴾ مما يبين أن مراد الله تعالى من إرسال الرسل هو هداية الخلق، وأن ما ينزل من عند الله تعالى من الكتب هي نور وهداية، فاتصفت بأعظم صفتين يحتاجها الناس، وهما النور الذي يبدد ظلام الجهل والكفر، والثانية: أنه المنهج الذي يسيرون به في هذا النور، فلا يخطئون ولا يضلون في القول والعمل. لتتحقق لهم به سعادة الدنيا والآخرة.

ثم بين سبحانه وتعالى تعامل اليهود مع الكتاب الذي جاء به موسى، وهو التوراة ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ فيبدون ويظهرون منها ما يشاؤون وهو القليل، ويخفون الكثير من التوراة. أي: جعلوا منهجهم فيه أنهم يكتبون من الكتاب الأصلي ما يريدون إظهاره في قراطيس، حتى يتمكنوا من التبديل والتحريف، وإخفاء ما يريدون ويشتهون منها ﴿ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ فيبدون ويظهرون منها ما يشاؤون، ويخفون الكثير منها، إذ أن كلمة ﴿ كَثِيرًا ﴾ تبين وتوضح حجم الإخفاء الذي يخفونه ويتلاعبون به من التوراة أنه الأكثر، وأن الذي يظهرونه من التوراة هو القليل. بما يوضح ويكشف مقدار جرأتهم على الله تعالى، وعلى تحريف مراده عَزَّ وجل بما يتناسب مع ما يشتهون ويهون، فجعلوا دين الله تعالى تبعاً لأهوائهم، ولم يجعلوا أنفسهم تبعاً له. فذاك هو تعامل اليهود مع كتاب الله تعالى.

ثم قال الله تعالى ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ وهذا السياق كما نقل ابن الجوزي وغيره أنه: يحمل أنه خطاب لليهود وهو قول الجمهور، وأنه خطاب للمسلمين، قاله مجاهد، فعلى القول الأول: عُلِّموا ما في التوراة، وعلى القول الثاني: عُلِّموا على لسان محمد صلى الله عليه وسلم[١] ومع كلا الوجهين يستقيم المعنى، وتكثر به فائدة النص، وهذا من عظيم خصائص البيان في القرآن العظيم، ففي كون المقصود به اليهود، يكون المعنى كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي وعُلّمتم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، على وجه الْمَنّ عليهم بإنزال التوراة[٢] وأما على الوجه الآخر بأن المقصود به المسلمين، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خير ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك، لا أنتم، ولا آباؤكم[٣] وهذا من فيض تعدد أوجه البيان في القرآن الكريم، فيعطي النص الدلالات المتعددة المتضافرة والمتآلفة، وهو نوع من الإعجاز البياني في كتاب الله تعالى.

ثم يَرُدُّ اللهُ تعالى عليهم، وذلك بتوجيه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم جواباً على ما طرحوه بقولهم ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ فقل لهؤلاء المكذبين ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ فإن أجابوك، وإلا فقل لهم ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ الذي أنزله. ثم بعد هذا البيان الواضح الجلي من الله تعالى، يقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم، ومهدداً لهم، ومحذراً من تماديهم في الكفر

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٨/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦/٧)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٢/٢)

والإنكار ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ اتركهم في باطلهم يلعبون، فسمى تبارك وتعالى خوضهم في الباطل باللعب، لأن فيه انشغال وتغافل عن الحق، فالجاد لا ينشغل بما هو دون الجد، وإذا انشغل بما هو دون المصلحة الحقيقة، فإنه بمثابة من يلعب بذلك الانشغال عن المهم والأهم.

ثم قال تعالى توضيحاً وبياناً لمنزلة القرآن الكريم ومضمونه ومكانته، وكذلك رداً على الذين قالوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ فإن هذا القرآن متضمن لصفات عظيمة جليلة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ ففي بيان صفات القرآن الكريم ترغيب لهم فيه، بالاستماع إلى مضمونه، لأن بيانه ومنطوقه يؤكد أنه نزل من عند الله تعالى، فإن هذا القرآن هو ﴿كِتَٰبٌ﴾ فأول صفة للقرآن الكريم أنه كتاب، ولا يسمى الكتاب كتاباً إلا إذا تضمن نصوصاً من الكلام، ولن يكون هذا الكلام لأحد غير الله تعالى، لأن الصفة الثانية تبين وتؤكد ذلك، وهي: أنه مُنَزَّل ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ والنزول يقتضي أنه جاء من العلو والارتفاع، الصفة الثالثة: أن الذي أنزله هو الله تعالى، فقد قرر الله تعالى ذلك؛ بأن نسب إنزال القرآن إليه عَزَّ وجل ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فالذي أنزله هو الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، فنزل به جبريل من السماء على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فنفى عنه صفة البشرية قطعاً، والصفة الرابعة: أنه مبارك ﴿مُبَارَكٞ﴾ أي بورك فيه، فجعل الله تعالى فيه البركة، والبركة تعني الزيادة، فهو كثير البركة، وكثير المنافع، وكثير الفوائد. وقد ورد الوصف بالبركة عاماً ﴿مُبَارَكٞ﴾ فاستوفت جميع أنواع البركة، وجميع أوجهها، ولم تُحصر بركته في شيء محدد، ليكون نفعه عاماً، فيكون أخذه بركة، والاهتداء به بركة، وقراءته بركه، وحفظه بركة، وللمريض بركة، وفي تعليمه بركة، ودارسته بركة، وتشريعه بركة، وتطبيق أحكامه بركة، وتفهمه بركة، فلا تُعد ولا تحصى جزئيات بركة القرآن الكريم. والصفة الخامسة: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فهو موافق ومصدق للكتب السابقة التي أنزلها الله تعالى من قبل، فهو يصدقها، وشاهد لها بالصدق. والصفة السادسة: أن هذا القرآن نذير ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ لأن الإنذار متضمن في الإبلاغ بالمخاطر لمن يكفر به ويعاند، وما يلحقه من عقاب في الدنيا والآخرة، والبشارة لمن آمن وأطاع بالنصر والتمكين والجنة في الآخرة. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: وخص أم القرى، وهي مكة، لكونها أعظم القرى شأناً، ولكونها أول بيت وضع للناس، ولكونها قبلة هذه الأمة، ومحل حجهم، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض، والمراد

بمن حولها، جميع أهل الأرض، والمراد بإنذار أم القرى: إنذار أهلها وأهل سائر الأرض[١] قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يريد الأرض كلها[٢]

ثم بين الله سبحانه وتعالى العلاقة الترابطية بين من يؤمن بالآخرة وبين الإيمان بالقرآن الكريم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما فرض الله عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها[٣] فما تضمنه القرآن من بيان عن اليوم الآخر، وسُبُل الهدى والرشاد التي يُتوصّلُ بها إلى النجاة من النار، والفوز بالجنان، يجعل المؤمن المتمسك بذلك يؤمن ويوقن بأن هذه التفاصيل في القرآن الكريم لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى، وبالتالي يؤمن بالقرآن وبالرسول الذي أُنْزِل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم. وهذا يدل على الترابط بين الإيمان باليوم الآخر وبين الإيمان بالقرآن، على أنهما متلازمان، لما في القرآن الكريم من الدلائل الموضحة والمبينة لحقائق الآخرة التي يعرفها المؤمنون باليوم الآخر.

وهذا يبين أمرين: الأول: العلاقة بين الإيمان باليوم الآخر وبين القرآن العظيم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: أن الذين يؤمنون باليوم الآخر حقيقة يؤمنون بالقرآن. والأمر الثاني: العلاقة بين العبادة التي ذروتها الصلاة وبين الإيمان باليوم الآخر، والقرآن، فلما اشتمل الإيمان بالآخرة على الإيمان بما فيها من الحساب والجزاء، والجنة والنار، دفع ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ثم ترتب عليه المحافظة على الصلوات. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فإن العلاقة متلازمة بين الإيمان باليوم الآخر والقرآن والمحافظة على أداء الصلوات، فكل من يؤمن باليوم الآخر ويؤمن بهذا القرآن فإنه يحافظ على أداء الصلوات.

وقد أورد ابن الجوزي دلالتين: الأولى: أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بالقرآن، والثانية: أن الذين يؤمنون باليوم الآخر يؤمنون بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم. فالمعنى: من آمن بالآخرة آمن به، ومن لم يؤمن به فليس إيمانه بالآخرة حقيقة، ولا يعتد به، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فدل

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٣٩/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٩/٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٢/٢)

على أنه أراد المؤمنين الذين يحافظون على الصلوات[١] فأصل الدين خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن، وخص الصلاة لأنها عماد الدين، ومن حافظ عليها كانت لطفاً في المحافظة على أخواتها[٢] وقال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في معناها: من كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد في الآخرة إلى الله، ويصدق بالثواب والعقاب، فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد، ويصدق به، ويُقر بأن الله أنزله، ويحافظ على الصلوات المكتوبات التي أمره الله تعالى بإقامتها[٣] وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في دلالتها: يريد أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، بدليل قوله تعالى ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ فإيمان من آمن بالآخرة، ولم يؤمن بالنبي عليه السلام ولا بكتابه غير معتد به[٤] وبالتالي فإن هذا يفيد أن من علامة الإيمان بالقرآن الكريم هو الإيمان باليوم والآخرة والمحافظة على الصلوات، وأن من لم يؤمن بالقرآن لن يؤمن باليوم الآخر حقيقة، ومن أظهر إيمانه به، أي باليوم الآخر فلا يُعتد بإيمانه، كما أنه لن يكون محافظاً على الصلوات. وأن من آمن بالقرآن، يؤدي به إيمانه هذا إلى تحقيق الإيمان باليوم الآخر الذي تضمن تفاصيل بيانه القرآن الكريم، وسيدفعه ذلك إلى المحافظة على الصلوات.

وهذا يفيد أيضاً أن كل من آمن بالله واليوم الآخر، فنه يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزله الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فالذي يؤمن بالآخرة، يؤمن بالبعث والنشور والحساب ثم الجزاء، وبتفاوت الناس في الجزاء، فكل بحسب طاعته تكون منزلته، وأيضاً هناك نار وعذاب للعاصين، وكل بحسب معصيته. فالمؤمن باليوم الآخر ينتابه من هذا الإيمان أمران، هما: الخوف والرجاء، فالخوف من العاقبة، وما يتبع ذلك من العذاب، وما يخص الكافر من الخلود في جهنم، وينتابه كذلك الرجاء بأن يدخله الله تعالى الجنة، وينجيه من العذاب، وهذان العاملان يدفعان المؤمن بالآخرة إلى الحذر من مغبة التمرد، فيفزع إلى الاجتهاد في طاعة الله تعالى بأداء العبادة، ومنها الصلاة، فيحافظ عليها ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وتأتي علاقة ذلك الإيمان بالآخرة والحفاظ على الصلوات وبين الإيمان بالقرآن، فإنها علاقة التوضيح والوضوح والبيان لما تضمنه القرآن الكريم من تجلية اليوم الآخر وما فيه، وأيضاً بيانه وتوضيحه المنهج والطريق لِمَن أراد الاستعداد لليوم الآخر، فإذا سمع من يؤمن بالآخرة آيات القرآن، استشعر وتأكد أن هذا التوضيح والبيان الذي في القرآن هو كلام الله تعالى، ولا يمكن إلا أن يكون من عند الله تعالى، وأن الذي نزل عليه القرآن هو نبي الله ورسوله، فيؤمن به. ويمتد سلطان هذا التأثير على كل من يؤمن بالآخرة ويحافظ على عبادته حتى من أهل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٩/٣)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٤٤/٢)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠٤/٩)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦/٧)

الأديان السماوية في كل زمان ومكان، كما قال تعالى في سورة المائدة عن القسيسين والرهبان من النصارى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ فصفاتهم أنهم عباد ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ ويدفعهم للعبادة إيمانهم باليوم الآخر، فجمعوا بين الإيمان باليوم الآخر وبين العبادة، وهذا هو السبب في تأثرهم بالقرآن وإيمانهم به، كما أنه لم يخالطهم نوع من الكبر الذي يصد الإنسان عن الحق عناداً وليس جهلاً، ولذلك فإنهم إذا سمعوا ما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو القرآن، تفيض أعينهم من الدمع، لشدة تأثرهم، فيؤمنوا، وذلك لما عرفوه من الحق، ولأنهم لا يستكبرون، وكذلك لإيمانهم بأن هناك آخرة، وهم كذلك عُبَّادٌ مواظبون على صلواتهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فكل من يؤمن باليوم الآخر، ويحافظ على العبادات من أهل الأديان السماوية سيؤمن بالقرآن الكريم، وبالرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه يسمع ويجد في القرآن الحق الذي لا ريب فيه عن الآخرة، وتصويرها كأنه يراها.

وهذا يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، إذ تضمن السياق الأوجه الصحيحة من غير تضاد ولا تنافر، بل يعطي تكاملاً، مع كمال المعنى لهذه الأوجه الصحيحة التي يحتملها النص. فسبحان الله العظيم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

في هذه الآيات مخاطبة استدلالية في إثبات بهتان من زعم أن الله تعالى ما أنزل من شيء ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فكيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء كذباً وبهتاناً، مع قوة الحجج

والآيات والبراهين على ما جاء به الرُّسل ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ فليس هناك أعظم ظلماً من افتراء الكذب على الله تعالى، وكلمة ﴿ ٱفْتَرَىٰ ﴾ تدل على الاختراع والاختلاق والابتكار تعمداً للكذب، بالقول على الله تعالى ما لم يقله. فهذه قاعدة عامة، ويدخل في ذلك من زعم كذباً وبهتاناً أنه نبي ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ فيَدَّعي زوراً وبهتاناً أن الله تعالى أوحى إليه ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ وكذلك من ادَعَى أنه مماثل لله عَزَّ وجل ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ وهو وجه آخر من الافتراء، وهو أن يقول بأنه يجاري الله تعالى ويساويه في أحكامه وهديه سبحانه وتعالى، فهذا قد عَظُم افتراؤه، وكبر ذنبه وجرمه، فاستحق من العقاب ما يوافق الافتراء على الله تعالى. مما يبين أهمية حفظ اللسان عن القول على الله تعالى بغير علم. ونسأل الله تعالى العافية. وقد حمى الله تعالى الأنبياء عن مثل ذلك، فلا يقولون إلا بما أمرهم الله تعالى به، وأن ما نزل عليهم من الكتب هو حق لا ريب ولا مراء فيه.

ثم بين الله تعالى حال هؤلاء الظالمين عند الموت، ليتبين ويستدل به على حالهم بعد الموت. فكيف سيكون حالهم بعد الموت وبعد البعث، وعند الجزاء ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فلو رأيت حال الظالمين وهم في سكرات الموت وأهواله وشدائده، والغمرة هي الشدة، من غمر الشيء وتغطيته ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ والملائكة حينئذ باسطة الأيدي بالعذاب ويقولون لهم على سبيل التعجيز والتقريع والتهديد ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ انقذوا وخلصوا أنفسكم من العذاب إن أَمْكَنَكم ذلك، تعجيزاً وتقريعاً وإهانة لهم على تكبرهم وتعاظمهم ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فاليوم يقع بكم العذاب المهين، الذي يهينكم ويذلكم جزاء افترائكم على الله غير الحق، وتكذيبكم الرسول صلى الله عليه وسلم، والكتاب الذي أنزله الله تعالى عليه. فتقولون على الله تعالى بخلاف الحق، مستكبرين عن آياته البينات.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أراد باليوم ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ أي: اليوم الذي تقبض فيه أرواحهم، أو أرادوا باليوم الوقت الذي يعذبون فيه، الذي مبدؤه عذاب القبر. والهون والهوان بمعنى. أي:

اليوم تجزون عذاب الهوان الذي تصيرون به في إهانة وذلة، بعد ما كنتم فيه من الكبر والتعاظم. والباء في ﴿ بِمَا ﴾ للسببية، أي بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال الله كتبه على رسله، والإشراك به[١]

ويقول الله تعالى عن حالهم يوم ميعادهم الحشر ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ كنتم تنكرون هذا اليوم وتستبعدون وقوعه، فها أنتم تأتوننا فرادى، واحداً واحداً، كما خلقناكم على الصفة التي كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم، فلا شيء معكم، وعراة لا شيء عليكم. فكل واحد يأتي منفرداً عن ماله وولده وما حرص عليه وآثره على آخرته، فيأتي مشغولاً بنفسه، فلا ناصر معه ينصره، فها أنتم فرادى من الأهل والمال والولد، فلم ينفعكم ما كنتم منشغلون به، ولا ما كنتم تعبدون من دون الله تعالى ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ فتركتم ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، إذ تركتم ما ملكناكم في الدنيا وراءكم، فلم تحملوه معكم، فأصبح ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ لا تستطيعون استجلابه معكم، ولا حتى تنظرون إليه، فجملة ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ تحمل العجز، وعدم القدرة، وأنها قد سُلِبَت عن ما كنتم قادرون عليه، وأنتم حينذاك مستكبرون به، وفي هذا ما يبعث التحسر والتنَدُّم، وفيه تخذيل وتحقير وتعيير من الله تعالى للكافرين والمشركين بما كانوا يتباهون ويتفاخرون به في الدنيا، فقد تركتموه وراءكم في الدنيا، وجئتم فرادى.

وقد نسب الله تعالى فعل التمليك مما تملكوه في الدنيا له عَزَّ وجل ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ فهو الذي يعطي ويُمَلّك ما يملكه الإنسان من متاع الدنيا، فلا تحسبن ما تملكه أيها الإنسان هو بانفراد إرادتك وقدرتك، بل إن الله تعالى هو الذي صَيَّر ما عندك لك. ويقول الله تعالى لهم ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ فيقول الله تعالى لهؤلاء المشركين، أين الذين كنتم تزعمون كذباً وبهتاناً من الأصنام أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة، فأشركتم بهم مع الله تعالى، وجعلتموهم شركاء لله، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فلقد تقطع الوصل بينكم، فتقطع ما كنتم فيه من الشراكة بينكم، وحيل بينكم وبينهم، فاختفى عنكم ما كنتم تزعمون، أي تدعون كذباً وزوراً.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/١٤٠)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ
(٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦)
وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(٩٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ
حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان قدرته عزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ يلفت اللهُ تعالى انتباه عباده إلى ما يرونه ويحسونه من عظمة تكوينه وانباته للنبات وما يخرج منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ إن ربكم هو لا غيره الذي فلق الحبة والنواة اليابسة الميتة، فأخرج الزرع الحي من هذه الحبة والنواة الميتة التي لا حراك لها. أفلا يتأملون وينظرون إلى دقة تدبيره، وعظمة خلقه سبحانه وتعالى، فيشد الله تعالى الانتباه إلى قوته وقدرته بأن فَلَق الحبة اليابسة فَشَقَّها، وكذلك النواة التي لا حياة فيها؛ وهي في بطن الأرض قد دُفِنَت، ليُخْرِج منها الزرع حياً؛ على اختلاف أنواعه وأشكاله وأحجامه، وتنوع طعمه وفوائده واستخدامه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ فهو الذي فلق الحبة والنواة اليابسة الميتة، فأخرج الزرع الحي من هذه الحبة والنواة الميتة التي لا حراك لها ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ وكذلك فهو مخرج الميت من الحي ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ فإن ربكم هو الذي أخرج هذه الحبة وهذه النواة الميتة من الشجرة الحية بنموها وإثمارها، ويماثل ذلك خروج الجنين، وهو الإنسان الحي من النطفة الميتة، وخروج النطفة الميتة التي لا نفس فيها من الإنسان الحي، فإن الذي صنع هذا هو الله تعالى ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فذلكم الله المحي المميت الذي يستحق العبادة، وذلكم الله الذي يجب أن تُوَحدُوه، وتؤمنوا بالبعث والنشور والآخرة والجنة والنار، فتطيعوه وتتبعوا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

فإن هذا من عجائب صنعه تعالى، فكيف تنصرفون عن هذا الحق ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ كيف تعدلون عن الحق إلى الباطل، فتعبدون من لا يخلق ولا يستطيع أن يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، وتتركون القوي العظيم، وتذهبون للعاجز الضعيف، كيف تتركون الخالق، وتذهبون للمخلوق، فكيف تصرفون العبادة التي لله تعالى لغيره من المخلوقات، فكيف لا توحدون العظيم سبحانه وتعالى وتشركون به غيره، فلماذا لا تتوجهون في حاجاتكم إلى الذي أخرجكم من بطون أمهاتكم، كما أخرج الحي من الميت، وأخرج الميت من الحي.

ومن دقة البيان والأسلوب التدرج، بأن الله تعالى لفت الانتباه أولاً إلى بيان قدرته في شق الحب والنوى وهي يابسة لا حياة فيها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ ثم ذكر الإنشاء والخلق والإيجاد ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ليتأمل الإنسان الحالتين معاً، فيدرك ببصره وبصيرته وبعقله عملية الإنشاء والإيجاد. وأيضاً ليدرك عملية التعاقب في الإخراج، فَيُخْرِج ما به الحياة من الحبة والنواة المنعدمة منها الحياة تماماً، فهي عملية لا يستطيعها أحدٌ أبداً إلا الله الخالق سبحانه وتعالى، وأن هذا الميت من الحب والنوى قد خرج من الشجرة الحية، وبعد قطفه تنعدم منه الحياة، فلا نمو فيه، ليصبح بعد لينه ورطوبته ناشفاً، ثم يابساً، ثم هذا اليابس الذي انعدمت منه الحياة؛ ومنها حياة النمو يُخرج اللهُ تعالى منه بقدرته حياً من صنفه.

وفي هذا من حكمة الأسلوب وقوة البيان: التدرج الذي يأخذ بلباب الإنسان حتى يصل به إلى الحقيقة المقنعة بأن هناك إله خالق، هو رب كل شيء ومالكه، خلق ودَبَّر، وأحيا وأمات في سلسلة لا تنقطع من التتابع الذي يقضي بعظمة تدبيره: أن لا يُعبد غيره عَزَّ في علاه، وأنه هو الواحد المتفرد بكمال المنع والعطاء، فلا يعجزه شيء، فإن الحقيقة تقول: أن من لا يعجزه هذا التتابع من إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي في الإنبات المتتالي فإنه لا يعجزه غيره، ومن ذلك أنه يحي ويميت ويبعث من يموت، وأن هناك حساب وجزاء وجنة ونار.

ثم إن في أسلوب السياق والبيان القرآني الكريم استثارة للفكر نحو التأمل والتفكر، بأسلوب يستجذب العقل ويستثيره، ثم يقنعه بما قال، فسبحان الله تعالى الذي أعجز خلقه حتى في بيانه وأسلوبه، وأظهر وحدانيته وقدرته بأدق التفاصيل حسناً وبياناً. فلا ينحرف عن هديه إلا أفاك أثيم. كما يبين هذا أن دين الله تعالى قائم على الحجج والبراهين. وأنه قائم على تعليم وإرشاد العباد بالحقائق التي يعيشونها، ويستدل بالمشَاهَد من كمال القدرة على الغائب من البعث والحساب والجنة والنار.

ثم يلفت ربنا تبارك وتعالى الفكر والبصر والبصيرة إلى العديد من عجائب قدرته ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ فالذي فلق الحب والنوى، وأخرج الحي من الميت، والميت من الحي، هو الذي شق الضياء عن الظلام، فكشف الظلام بالنور. وأظلم النهار بحجب النور عنه. وقد أشار تبارك وتعالى إلى الصبح لأنه أول النهار. فهو

الذي خلق النهار والليل، وهو الذي يُحدِثُ الليل والنهار، ومن جميل البيان لفت الانتباه إلى التدرج، بذكر أول الوقت، وهو الصبح، وذكره باسم المصدر ﴿ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ وقيل الإصباح بمعنى الصبح. وسَمَّى اللهُ تعالى بزوق الصباح وحدوثه انفلاق، لأن الانفلاق هو شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض، وهذا من جميل البيان ودقته.

ثم قال تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ أي جعل الليل حالة للسكون والهدوء، فيسكن الناس فيه عن الحركة فيستريحون، فجعل بفضله سبحانه وتعالى الليل بظلمته ساكناً. فجمع البيان بين القدرة على ذلك وبين الرحمة بالعباد، إذ جعل الليل سكنا لهم بسكونه وهدوئه وظلمته التي تتطلب وتحقق لهم السكون والراحة والهدوء، وتحقق لهم المبتغى من السكون، وتستوجب منهم الشكر لربهم عَزَّ في علاه، والإخلاص له في عبادتهم واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر تبارك وتعالى في تدرج عظيم الأكثر وضوحاً من الإصباح، والذي هو مصدر الإصباح والنور والضياء ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا﴾ أي: فإن الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر ومقنن، فلكل منهما منازل يسلكها في طلوعه وغيابه، صيفاً وشتاء، وخريفاً وربيعاً، مما يترتب عليه اختلاف مكوث كل منهما بما قَدَّرَه اللهُ تعالى له، فلا يختلفان، ولا يسبق أحدهما الآخر. فالذي قدر ذلك بتلك المقادير الزمنية الدقيقة هو العزيز العليم ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فإن الذي قدر ذلك متصف بكمال العزة وتمامها، فهو العزيز في سلطانه، والقاهر في ملكه، وكل شيء تحت سلطانه وقوته وقهره، فممتنع على غيره القدرة إلا به عَزَّ وجل، وأنه عليم بخلقه، وبمصالح تدبيرهم، فتلك الآيات العظيمة دلت على كمال عزته، وسعة علمه، وحكمته في تدبيره، بما يوجب الإيمان به، وبالقرآن الكريم الذي أوضح ذلك، وبنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، الذي أُنزِلَ عليه القرآن.

قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا، من أول الشهر إلى ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر[1] فالمنازل هي الزمن والموقع والمكان الذي يكون فيه القمر أثناء مساره. ويدل معنى المنازل على المنزل والمنزلة التي ينزلها القمر. ونقل الشوكاني وغيره تلك المنازل، بأنها الثمانية والعشرون التي ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها. وإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٤)

ليلتين، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع تلك المنازل من الفلك[١] ففي كل ليلة من الثمان والعشرين ليلة ينزل في منزلة من السماء، لا يتقدم ولا يتأخر.

ففي تعاقب الليل والنهار وانتظام الشمس والقمر في منازلهم، وفي اختلاف صورة وشكل الليل عن النهار آيات عظيمة لمن أراد أن يتفكر ويتأمل، ليزداد إيماناً، وليهتدي بعظمة الآيات الباهرات في الكون العظيم الفسيح، ولينقاد في متابعة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وفي هذا السياق لفت الانتباه إلى جميع أوجه الاختلاف بين الليل والنهار والشمس والقمر، من حيث الظلمة والنور، والطول والقصر، وولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل، وما يمكن أن يكون في النهار، وما يمكن أن يكون في الليل من سعي العباد، ومن النوم، والكسب، وما يظهر في الليل من النجوم، واختفاؤها في النهار، وظهور الظلال في النهار، بأطوالها ومساحاتها، وتقلصها في الظهيرة حتى يصبح ظل كل شيء تحته، ثم تَمَدُّدُهَا حتى يغطيها الليل بسواده وهجعته، فإنها آيات دالة على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

ثم يذكر الله تعالى المزيد من صنعه وخلقه وإيجاده وتدبيره وهدايته وإحسانه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي خلق النجوم، وإن من امتنانه على عباده أن جعل النجوم وسيلة للاهتداء بها في الليل عند المسير في البر وفي البحر، فيعرف بها المسافر الاتجاهات: الشرق والغرب، ويعرف بها أيضاً ما مضى من زمن الليل، وما بقي منه. فهذه إحدى منافعها، فقد فَصَّل تبارك وتعالى الآيات تفصيلا واضحاً لقوم يعلمون ما في هذه الآيات من الدلائل والبراهين والحجج على عظمته عَزَّ وجل وقدرته وحكمته وبديع خلقه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى خلقه للإنسان ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ فهو الذي خلقكم أيها الناس من نفس واحدة، أي: من آدم عليه السلام، فهو أبو البشرية جميعاً، حتى زوجته حواء خُلقت منه. ثم بين سبحانه وتعالى حال هذا الإنسان ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ فحملت هاتين الكلمتين تسع دلالات، ذكرها ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فمستقر في الأرحام، ومستودع في الأصلاب، والثاني: مستقر في الأرحام، والمستودع في القبر، والثالث: المستقر في الأرض، والمستودع في الأصلاب، والرابع: المستقر والمستودع في الرحم، والخامس: المستقر حيث يأوي، والمستودع حيث يموت، والسادس: المستقر في الدنيا، والمستودع في القبر، والسابع: المستقر في القبر، والمستودع في الدنيا، والثامن: المستقر في الدنيا، والمستودع عند الله تعالى، والتاسع: المستقر في الأصلاب،

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٦٩/٤)

والمستودع في الأرحام[١] والمتأمل لتلك الدلالات يجد أنها جميعاً محتملة في قوله تعالى ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ فاستوفت جميع أحوال الإنسان حين المستقر، وحين الاستيداع. مما يبين رحابة الدلالة فيها، حتى أظهرت وأعطت جميع أحوال الإنسان في الاستقرار والاستيداع بسياق واحد، فاستوفت بذلك ما يكون عليه الإنسان في نظم أحواله، وهذا دليل على قوة البيان الذي جعل نظم سياقه يستوفي تلك الأحوال التي تعبر عن حقيقة هذا الإنسان في أطوار استقراره، وأطوار استيداعه. فيظهر الإعجاز البياني كما ظهر الإعجاز في التدبير. ليتبين بلا شك ولا ريب أن هذا القرآن العظيم كتاب إعجاز.

ثم أكد سبحانه وتعالى تفصيله للآيات ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ فقد فصل لكم ربكم تبارك وتعالى الآيات تفصيلا واضحاً لقوم يفقهون ويفهمون ما في هذه الآيات من الدلائل والبراهين والحجج على عظمته وقدرته وحكمته وبديع خلقه سبحانه وتعالى. وذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى فائدة جليلة في التغاير والاختلاف بين نهاية الآية السابقة وهذه الآية، ففي الآية السابقة قال تعالى ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وفي هذه الآية قال تعالى ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ فذكر سبحانه وتعالى هاهنا ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ وفيما قبله ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ لأن في إنشاء الأنفس من نفس واحدة، وجعل بعضها مستقراً، وبعضها مستودعاً، من الغموض والدقة ما ليس في خلق النجوم للاهتداء، فناسبه ذكر الفقه، لإشعاره بمزيد تدقيق وإمعان فكر[٢] بينما الأنسب لحال النجوم هو التوجيه إلى العلم بمقاصد خلقها، وحركتها، وفوائد العلم بمنازلها، والاهتداء بها عند السير براً وبحراً، ليتبين للإنسان ما فيها من آيات الله المعجزات، مما يدل على دقة وغزارة البيان وإعجازه لكل من تبصر وتأمل فيه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى شيئاً من عجائب خلقه وقدرته ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بدأت الآية الكريمة بإثبات وتقرير نزول المطر بأنه من الله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ فهو عَزَّ وجل لا غيره الذي ينزل المطر من السماء، بما

[١] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٤/٣)

[٢] الشوكاني، فتح القدير (١٤٤/٢)

يثبت ويبين أنه الله تعالى هو الخالق الرازق، وأنه هو الذي يجب أن يُعبد لا غيره. كما أن في الآية لفت الانتباه إلى العلو، بتعيين مكان النزول بأنه من السماء ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفي هذا البيان شد الانتباه إلى الارتفاع، وإلى السحاب الذي يتحرك في ذلك العلو العظيم، ليتدبر الْمُخَاطَب مقدار ارتفاع السحاب وعلوه في السماء، وسيره، ورحيله وتنقله من مكان إلى مكان، فلا يستطيع أحد من خلقه أن يتحكم في قدره ومقداره، ولا أن يمنعه أحد عن أحد، بل يمتد بالتفكر إلى مقدار قلته وكثرته؛ فينزله بالقدر الذي يحتاجه العباد، وتستوعبه الأرض، فلا إجحاف فيه لتموت الأرض، ولا غزارة لينهلك به الخلق، فمن الذي قدر هذه المقاييس؟ فأنزله بمقدار ما تستوعبه الأرض، ثم يسوقه من بلد إلى بلد، ومن أرض إلى أرض، بل وينزل المطر على قطرات، لتجري به أودية وشعاب كالأنهر أو أشد جريان منها، حتى جاء تسميته في هذه الآية الكريمة على حقيقته بالماء ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ومن بديع البيان أن نسب الله تعالى إنزال المطر إليه ﴿أَنزَلَ﴾ حتى يتنبه الْمُخَاطَب أن الذي أنزل هذا المطر هو الله تعالى، بقدرته ومشيئته، ولتنتفي بذلك المعتقدات الفاسدة في نزول المطر.

ثم لفت الانتباه إلى الحقيقة الأخرى، وهي العلاقة بين المطر وبين إنبات الزرع ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فقد جعل الله تعالى الماء سبباً لإنبات كل شيء، ومن حكمته وقدرته ورحمته سبحانه وتعالى أن أخرج أنواعاً وأشكالاً مختلفة من الزروع بهذا الماء، وجملة ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ استوفت وجمعت جميع أنواع ما يخرج من النبات، فإن الذي أخرجها وأنبتها وأوجدها هو الله تعالى. مما يدل على بديع صنعه، وكريم عطائه، وسعة علمه، وعظيم رحمته بالعباد. ثم قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي زروعاً وأشجاراً خضراء ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ ثم نخلق من هذا الشجر حباً وثمراً. مع لفت الانتباه إلى الحب المتراكب، بعضه فوق بعض، كالسنابل والرمان والعنب وغير ذلك. وخص المتراكب بالذكر لما فيه من عجائب التركيب، وتنوع أشكال تراكيب تلك الحبوب في حجمها وأشكالها وألوانها وأنواعها.

ومن عظيم السياق التدرج في البيان، فبدأ تبارك وتعالى بالماء الذي هو أصل وسبب في الإنبات ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ثم ذكر تعالى إخراج الزرع عموماً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ثم نوه سبحانه وتعالى عن ما هو أخص ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ ثم التدرج إلى ما هو فرع من الأصل ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ فهذا البيان المتدرج يدل على قوة البيان ودقته وعمق سياقه

الجاذب، مع قوة لفت الانتباه، بل ويعلم المتدبر لبيانه عَزَّ وجل كيف يقتبس ويبني منه الطرائق البديعة للتعلم والتعليم، وكيف يمكن أن تكون منهجية البناء التعليمي.

ثم تدرج البيان إلى نوع من الأشجار، وهو النخل ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ ﴾ فلفت الانتباه إلى أشجار النخيل، من خلال التنويه بطلعه، لقصد التأمل في طريقة ومراحل طلعه وتكوينه، وعجائب صنع الله تعالى فيه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ ﴾ فمن طلع النخل ﴿ قِنۡوَانٞ ﴾ وهو عذق الرطب، وهو القنو، وهو عنقود النخل الذي يحمل الرطب، أو التمر، وهذه العناقيد أو القنوان ليست صعبة المنال؛ لارتفاع قامة النخيل، بل إنها ﴿ دَانِيَةٞ ﴾ فمع علوها إلا أنها قريبة، حتى ينالها الإنسان بسهولة، وهي وإن كانت في النخيل المرتفع إلا أنها متدلية، سهلة القطف والقطع. وكذلك اشتمل الوصف دلالتين: الأولى: قربها من القاطف في النخيل غير الطويل، بحيث يقطفها ويأخذها قاعداً أو قائماً، والثانية: أن صفتها متدلية قريبة من الجذع، مما يسهل على الراقي للنخل الطويل قطعها أو قطفها. وهذه غزارة بيانية عظيمة. وتدبير عجيب في الخلق والتقريب والعناية بالإنسان، وتسهيل قطفها له. فسبحان الله والحمد لله تعالى على جميل تدبيره.

وبعد بيانه سبحانه لبعض المفردات من الخلق والتكوين لعالم النبات وما يتغذى به من السماء، وبيانه عَزَّ وجل للماء وعلاقته بالإنبات لكل شيء، تدرج البيان إلى مفردات وآحاد الإنبات، من النباتات والأشجار المخضرة، ثم ما يخرج منها من حبوب، ثم ذكر عَزَّ وجل النخيل وأقنيته وطلعه، ثم بعد هذا التدرج البياني جاء ذكر الصورة الإجمالية لنعمة الجنان والبساتين ﴿ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ﴾ وفي هذا لفت الانتباه إلى تسخيره وإنعامه سبحانه وتعالى على عباده بالجنات من الأعناب والزيتون والرمان، بل لفت الانتباه إلى التأمل في خصائصها، وخصائص ثمارها ﴿ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ﴾ ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أنه قيل: مشتبهاً ورقه، ومختلفاً ثمره، وقيل مشتبهاً في الخلق، مختلفاً في الطعم[1] بل إن النوع الواحد من ثمارها، يتشابه في شكله، ويتباين في طعمه وذوقه، ويتشابه في صورته، ويتباين في حجمه ومقاساته، ويتشابه في عموم لونه ويتفاوت في درجة ألوانه، بل إن حبات القنو الواحد من التمر تتفاوت تفاوتاً عجيباً في درجة استواء حباته، وتدرج ألوانه، واختلاف حجمه، ليعتبر الإنسان بدقة الخالق المتناهية في خلقه، والتي منها تلك الثمار المذكورات، وفي غيرها مما لم يذكر، ليُغْني ما تم ذكره عن غيره مما لم يتم ذكره. وفي هذا البيان قوة لشد الانتباه نحو ما قد يذهل عنه فكر الإنسان؛ وذلك لاعتياده عليه، مما يدل على أن وسائل

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٤٤٩)

الرصد البصري والسمعي وغيرها من الحواس إذا اعتادت على شيء، فقد لا تفكر في تفاصيله، فاحتاجت إلى من يلفت الانتباه نحو ما تاه الفكر عنه. وفي هذا استثارة ومنهجية تعليمية، وأساس للتأسيس التعليمي.

ثم أكد ونوه سبحانه وتعالى إلى أهمية النظر والتأمل ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ انظروا وتأملوا بالبصر والبصيرة إلى ثمره إذا نضج، قال الزمخشري رحمه الله تعالى انظروا: إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً، ضعيفاً، لا يكاد ينتفع به، وانظر إلى حال ينعه ونضجه، كيف يعود شيئاً جامعاً للمنافع، انظر نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مُقَدِّره ومدبره وناقله من حال إلى حال، سبحانه وتعالى[1] وكلمة الثمر ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ هو الحمل الذي تخرجه الشجرة مما يؤكل، كالتمر، ومما لا يؤكل كالأراك. وكلمة ﴿أَثۡمَرَ﴾ أي أطلع ثمره، وهو أول ما يخرج[2] واليانع ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ الناضج، الذي حان قطفه.

وفي ذكر الينع بعد الإثمار دقة في البيان، إذ لم يلفت النظر إلى الثمرة فقط، بل إلى تدرجها منذ خروجها وبزوغها إلى تمام وكمال نضجها ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ لأن ما بين الإثمار وحصول الينع مراحل نمو متعددة للثمرة حتى تصبح كاملة وتامة النضج. ثم يؤكد سبحانه وتعالى المقصد من لفت الانتباه ودقة البيان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ إن في جميع ما تقدم ذكره من إجمال وتفصيل ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لدلالات وعلامات وحجج وبراهين ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لقوم يصدقون بهذه الآيات، فيوحدان الله تعالى، الذي خلق ودَبَّر هذه المخلوقات بدقة عجيبة، لا يمكن لمخلوق أن يقوم بشيء من ذلك أبدا.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ
﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ
﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥١/٢)

(٢) انظر الفيومي، المصباح المنير (١١٦/١)

ينتقل السياق القرآني الكريم في تدرج وتناسق إلى بيان قدرته وعظمته جَلَّ جلاله، فبعد أن عَرَض سبحانه وتعالى دقائق وعجائب من خلقه وإبداع تكوينه وتصريفه، ينتقل البيان الكريم إلى الرد على المشركين الذين عبدوا معه غيره، فجعلوا لله شركاء، يعبدونهم من دون الله سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ فجعلوا من الجن شركاء في العبادة لله عَزَّ وجل، فتعالى الله علواً عظيماً عن فريتهم. فكيف لهؤلاء وقد علموا عظيم ودقة خلق الله تعالى ثم يجعلون لله شركاء من مخلوقاته، فالجن خلق من خلقه عَزَّ وجل، والذين جعلوا الجن أيضاً هم خلق من خلقه تبارك وتعالى، فكيف يعبد الخلق خلقاً أمثالهم؟ وكيف يشرك المخلوق مخلوقاً آخر مع الخالق في العبادة؟ فإن الجن خلق كغيرهم من المخلوقات التي خلقها الله سبحانه وتعالى، ثم من دقة البيان دلالة أن لفظة ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ شملت خلق الجن، وخلق الإنس الجاعلين له شركاء.

وذكر القرطبي رحمه الله تعالى، أنها تأتي بمعنى آخر من قراءة يحي بن يَعْمَر ﴿وخلْقهم﴾ بسكون اللام، أي: وجعلوا خلْقهم لله شركاء، لأنهم كانوا ينشئون ويصنعون الشيء ويوجدونه ثم يعبدونه[1] ومن الدلالات التي استنبطها بعض العلماء: أنهم أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان[2] ومن تمادي المشركين أن اخترعوا وافتعلوا من الافتراء شيئاً عظيما ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فالذين ضلوا: كذبوا وافتعلوا افتراءات عظيمة، فمنهم من زعم أن لله ولد، وقد قال بذلك اليهود، فقالوا إن عزيراً ابن الله، وقالت النصارى في عيسى إنه ابن الله، ومن قال من مشركي العرب أن الملائكة بنات الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فقالوا بهذا من غير دليل، لأن العلم هو ما كان بدليل على الصحة، فيكون ذلك بهتان واختراع من عند أنفسهم، فسبحان الله تعالى، وتنزه عن ذلك ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فتنزه سبحان الله وتعالى عن افترائهم، و وتباعد وارتفع عمَّا يقولون علواً كبير. فهو الذي خلق السموات والأرض ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فالذي خلق السموات والأرض مستغني عن كل مخلوق، فلا يحتاج لولد يعينه، ولا لغيره، وكلمة ﴿ بَدِيعُ ﴾ تبين تعاظم خلق السماوات والأرض، بأنه عَزَّ وجل خلقها على غير مثال سابق لها، فهو أوجدها من غير حاجة إلى أي شيء لتكوينها وإنشائها، مما يبين بطلان زعمهم، وأن قياسهم الخالق على المخلوق قياس فاسد، ومتهالك وساقط أمام عظيم قدرة الله تعالى الجليلة العظيمة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٥-٣٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٦٦)

ثم يستمر تفصيل بهتانهم بالأسئلة في رحاب الحقائق التي تكشف بطلان زعمهم وما يفترون، وبما يُثبت أنهم أهل الباطل والمزاعم الكاذبة. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ كيف يجوز أن يكون له ولد وليس له صاحبة. وجملة ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ استفهام استنكاري لادعائهم، واستبعاداً لذلك، فالذي أبدع السموات والأرض لا يحتاج للولد، ثم أكد ذلك، وبالغ في نفي الولد سبحانه وتعالى، بنفي السبب، وهو وجود الزوجة ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ فالولد إنما يكون ناشئاً بين شيئين متجانسين، وسبحانه وتعالى منفرد ليس كمثله شيء، فليس له زوجة ﴿ صَٰحِبَةٌ ﴾ فكيف يكون له ولد؟ وهو غني عن الزوجة والولد.

ثم يقرر سبحانه ما يؤكد نفي ذلك بأنه عَزَّ وجل خالق كل شيء ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ فالذي خلق كل شيء غني عن كل شيء، فلا يحتاج ما يحتاجه المخلوق الفقير لغيره، فالمخلوق يحتاج إلى الولد لمقتضيات الحاجة الفطرية، ولأنه مفتقر لمن يعينه، وأما الخالق الْمُوجِد لهذا الكون ابدعاً وتصريفاً فلا يحتاج إلى ما يحتاجه المخلوق. بل ولا يحتاج إلى من يخبره بأمر من الأمور ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ فالذي من صفاته العلم بكل شيء، فلا يحتاج لمن يأتيه بالأخبار، ويعينه على ذلك، لأنه لا يغيب عن الله تعالى مثقال حبة من خردل في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك.

ودلالة جملة ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ استوفت الإحاطة التامة بكل شيء، فاستقصت كل حدث، وكل أمر، وكل قول، وكل فعل، وكل حركة، وكل علة، وكل سبب، وكل ما يخفى على المخلوق فإنه لا يخفى عليه عَزَّ وجل. فهي جملة استقصت وأحاطت كل شيء بالعلم، واستوفته بالمعرفة التامة، والقدرة الكاملة. فسبحان الله العلي العظيم العليم.

فإن ربكم الذي خلق ودبر وأحاط بكل شيء علما هو الله سبحانه وتعالى ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ فالذي خلق كل شيء، ودبر هذا الكون، وأحاط به علماً وقدرة وتصريفاً واستغناء عن كل ما خلق: هو ربكم، الواحد الأحد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ منفرد بوحدانيته، فلا صاحبة له، ولا ولد، ولا مثيل له ولا شبيه ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ

﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ فيلزمكم عبادته وحده لا شريك له، فلا تشركوا به شيئا، فإنه هو الذي خلق كل شيء. وهو حفيظ لما خلق ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ فهو حفيظ ورقيب ومدبر ومصرف لكل ما خلق.

ومن عظمته سبحانه وتعالى أنه ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ فلا تراه العيون، فهو أعظم من أن تدركه الأبصار، فإن الأبصار لا تدركه في الدنيا لعظمته وهيبته وجلاله سبحانه وتعالى، وأما في الآخرة فقال تعالى في سورة القيامة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (٢٣)﴾ بل رؤيته سبحانه وتعالى مكافأة وجائزة عظيمة القدر للمؤمنين في الآخرة. وأما إدراكه سبحانه وتعالى لخلقه، فإنه يدرك أبصارهم وما يبصرون ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ فإن لله تعالى ما ليس للمخلوقين من الصفات، فهو يحيط بهم علماً وسمعاً ورؤية وتدبيراً وحفظاً، فلا تخفى عليه البواطن كما لا تخفى عليه الظواهر، فيسمع الأصوات الظاهرة والخفية، ويرى ما يبصره المبصرون وما لا يبصرون، ويعلم ما يعلمونه وما لا يعلمون، وما يخفون وما يعلنون، ويعرف ما يدبرون وما سيدبرون ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ ودلالة كلمة ﴿يُدۡرِكُ﴾ تفيد كمال الإحاطة، فالمخلوق لا يمكنه رؤية لله تعالى، بينما لله تبارك وتعالى كمال الإحاطة ودقتها ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ فمن دقة إحاطته عَزَّ وجل أنه يحيط ببصر الباصر، بل يحيط باتجاه البصر، وإلى المكان الذي وصل إليه، فيحيط بما يبصره الباصر من الأشياء، وما يقع عليه بصره سواء من دقيق أو صغير، حتى أنه ليعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. كما قال تعالى في سورة غافر ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ (١٩)﴾ أي: ما تختلسه العيون من نظرات، وما يضمره العبد في نفسه من خير أو شر. فإبصار الله تعالى متحقق ومتعدي، لأنه لم يقل جَلَّ جلاله يدرك أبصارهم، ولم يخص شخوصهم في بيانه، بل خص الأبصار ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ وأما إبصار المخلوقين ففيه حصر وامتناع وتعذر، كما قال تعالى ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ فتحقق بموقع البصر من سياق الكلام بلاغة بيانية عظيمة. بل إن حقيقة البصر وماهيته لا يعرفها المخلوق، فما هو الذي يجعل العين تبصر؟ هل هو فقط وجود جارحة العين؟ أو أن فعلها الذي أمدها الله تعالى به جعلها تبصر. وأما الله تعالى فيعلم ذلك ويعرفه، لأنه هو الذي خلق وصور فأبدع.

ثم قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: الذي لطف علمه وخبرته حتى أدرك السرائر، والخفايا والخبايا والبواطن، ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي من حيث لا يحتسب(١) وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أقوالاً في المعاني، قال أبو سليمان الخطابي: هو البر بعباده، الذي يلطف لهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، قال ابن الأعرابي: اللطيف الذي يوصل إليك أَرَبَك في رفق، ومنه قولهم: لطف الله بك(٢) وأفادت دلالة ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بأن الله تعالى خبير بأعمال عباده، فلا تخفى عليه من أعمالهم خافية. والخبير من أسماء الله الحسنى، وهو من صيغ المبالغة التي تعطي معنى العالم بما كان وما يكون وما سيكون، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي هذا تحذير لمن كفر، وبشارة لمن آمن، بأن الله تعالى عليم بأعمال عباده، وسيوفي كل أحد بما يستحق.

ومن دلائل ومعاني الخبير: العليم بدقائق مصالح عباده، وبمواضع ومصالح الأشياء جميعاً، وكذلك منافعها ومضارها، فلا تخفى عليه عَزَّ وجل بوادر الأمور، ولا عواقبها، فإن الله عَزَّ وجل خبير بما يناسب ويصلح لكل عبد من عباده، فيما هو قليل أو كثير، نوعاً ومقداراً، وحالاً وزماناً ومكاناً، فمعرفته عَزَّ وجل أكثر وأخبر من معرفة العبد بنفسه.

ويقول الله تعالى مخاطباً عباده ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ قد جاءتكم الحجج البينة، وهي البصائر والبراهين الواضحة، التي اشتمل عليها القرآن العظيم، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وما في الكون من شواهد وأدلة، وبهذا قامت الحجة الكاملة، خاصة وأن دلالة ﴿ بَصَآئِرُ ﴾ جمع بصيرة، وهي الدلالة التي توجب العلم بالشيء لوضوحها، ففي تسمية حجج الله تعالى وبراهينه بالبصائر، تدليل وإثبات وتأكيد وضوحها، فلا شك ولا ريب فيها، فهي بصائر تبصرون بها الحق والهدى، وتميزون بها بين الحق والباطل. وفي دخول ﴿ قَدْ ﴾ على ﴿ جَآءَكُم ﴾ ما يفيد التحقق والتأكيد. ومن جمال البيان وعظيمه ما ذكره العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: أن في وصف الله تعالى للبصائر بالمجيء تفخيماً لشأنها، وجعلها بمنزلة الغائب المترقب والمتوقع مجيئه وحضوره للنفس(٣) ومن دقائق الدلالات أن البيان كان عاماً لجميع العباد، وباعتبار أنه ورد في سياق الذين أشركوا وانحرفوا عن توحيد الله تعالى أفاد التخصيص، فاجتمع في دلالة الآية الكريمة العموم والخصوص،

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥٣/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٨/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٨/٧)

وهذه من عمق البيان في القرآن الكريم. وقد نسب البصائر التي جاءت أنها من عنده، توكيداً وتعريفاً ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ فهو الذي أرسل، وهو الذي اعتنى بأمركم، وأمركم بما يجب عليكم من العبودية والتوحيد.

ثم بين سبحانه وتعالى حال الإنسان واختياره ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ فمن تَبَيَّن وتَعَقَّل تلك الحجج والتزم بها فلنفسه، لأنه هو المستفيد، والجاني لثمرة طاعته، وليس غيره، فالنفع عائد له وحده، ومتحقق له بالنجاة من العذاب، والفوز بالجنان. وأما من لم يتعقل ويتبين الحجج، ويأخذ بها، وتعامل معها كأنه في عمى عنها، فإنما أساء على نفسه. ثم يبين حدود مسؤوليته صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ فإنما أنا رسول الله تعالى، فلست عليكم برقيب، لأُحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم. مما يعني أنَّ الذي يحفظ ويحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم ويجازيكم عليها هو الله سبحانه وتعالى. وكلمة ﴿ أَبْصَرَ ﴾ من قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ تفيد النظر بجارحة العين، وبقوة البصيرة التي هي قوة القلوب المدركة، فتشمل التفكر والتأمل والتعقل، مما يبين ويؤكد أن التبصر والتأمل والتحقق هي من مسؤولية الإنسان نفسه ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ وأن الإنسان له قدرة، وله مشيئة، فيختار ما يشاء، ويترك ما يشاء، ويحاسبه الله تعالى بعد ذلك على اختياره، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ فكما فصلنا الآيات بالبيان فيما سبق، فكذلك هو تدبيرنا وتوضيحنا وتفصيلنا وتفسيرنا لها. فأوضحنها بالبيان اللفظي، وأوضحناها بالتصريف والتدبير العملي للآيات الكونية، من إبداع الخلق وتسخيره وتدبيره، بما يزيل كل مانع وجهالة بربوبية الله تعالى وألوهيته، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له. ومع هذا فهناك من يكذب بآيات الله تعالى ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن أهل الجحود من الكفرة يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ هذا الذي جئت به ما هو إلا مما تعلمته من غيرك ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ أي: دارست يا محمد أهل الكتاب من قبل، وتعلمت منهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وليقول المشركون والكافرون المكذبون دارست يا محمد من قبلك أهل الكتاب، وقارأتهم، وتعلمت منهم. هكذا قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم[1] ويخبر الله تعالى

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٨/٢)

بالهدف والغاية ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: نجليه ونوضحه للذين إذا علموا الحق أخذوا به، وإذا علموا بالباطل اجتنبوه وحادوا عنه. مما يفيد أن من علم بالحق فكذبه فيتحمل مسؤولية نفسه فيما سيجده من العذاب.

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ
وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٠٨ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا
يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ
وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾

يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالالتزام والتقيد بما نَزَل من عنده عَزَّ وجل، والمؤمنون تبعاً لنبيهم صلى الله عليه وسلم ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ بما يفيد لا تُشغِل قلبك وخاطرك وذهنك تحسراً على عدم إيمانهم، بل تابع العمل بما نزل عليك من الوحي، فلا تلتفت إلى تمرد المتمردين عن الحق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، بما يفيد أنه هو المتصرف، وأنه لا معبود بحق إلا الله عَزَّ في علاه، كما أن هذا إبطال للشرك والشركاء بتقرير جازم من العزيز الحكيم، فإنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ واترك المشركين وجدالهم، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في ضلالهم، فلو شاء لهدى الناس جميعاً، ولوشاء لجمعهم على الهدى ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ فلو شاء ربك لألزمهم بعدم الشرك. أي: أن شركهم لا يعني خروجهم عن مشيئته عَزَّ وجل، فلو شاء لألزمهم بما يريد من عدم الشرك. مما يفيد أن الله تعالى لو شاء لجعلهم حسب ما يريد منهم، من التصديق والإيمان، فليس أحد بمعجر على الله تعالى، فعدم إيمانهم ليس عجزاً من الله تعالى عن إلزامهم وقهرهم، ولكن لكل امرئ ما اكتسب، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لكل إنسان ما يختار، كما قال عَزَّ وجل ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَا﴾ فمن تَبَيَّن وتَعَقَّل تلك الحجج والتزم بها فلنفسه، ومن عصى واتبع هواه فلنفسه. حتى يكون الجزاء بحسب ما اكتسب الإنسان.

وقد جعل الله تعالى لعباده اختيار الطاعة أو المعصية كما في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴾ حتى يُحاسب كل أحد بما اختار من الحق أو الباطل. بعد أن رجح لهم وحثهم على تخصيص اختيار السبيل والطريق الذي يتحقق لهم به النجاة، وهو طاعته جَلَّ جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴾ فمن شاء اتخذ سبيل وطريق الاستقامة الذي يتحقق لهم به النجاة. بما يفيد التحضيض والحث لهم على اختيار سبيل ربهم، لأنه الطريق الأفلح لهم. فهو طريق وسبيل الله سبحانه وتعالى المستقيم. فعليهم أن يُذعِنُوا لله ربهم عَزَّ وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من الحق. وهذا من عدل الله تعالى، بل زاد عن العدل برحمته لهم، بأن وعظهم بكل وجه يُوصلهم إلى الحق والخير والنجاة، ويجنبهم العذاب. فالحمد لله رب العالمين على كريم فضله ووعظه.

كما ربط سبحانه وتعالى مشيئة عباده بمشيئته عَزَّ وجل التي هي فوق كل مشيئة، ومنها مشيئة الإنسان. كما قال ذلك أيضاً في سورة التكوير ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فليس لأحد الانفراد بالمشيئة المستقلة، والمنفردة عن مشيئة الله تعالى فكل مشيئة تحت سلطان مشيئة الله تعالى. بما يفيد: أن الله تعالى لو شاء أن لا يشركون، لجعلهم مؤمنين بقدرته وسلطانه، فلا تعتقدوا بكفركم أنكم خرجتم عن سلطان ربكم ومشيئته. فإنكم تحت قبضته. بما يصحح مفاهيم العباد عن المشيئة، بأنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى.

فقد جعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويعلمهم الحق وسبيله، حتى يعلموا ما يجب عليهم، وما هم عليه. وأن ذلك لا يعني أنهم خارجون عن مشيئته سبحانه وتعالى. كما يصحح بهذا البيان أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. وفي سورة الشمس، قال تعالى ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ ﴾ فعرفها وأفهمها بما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها.

ثم يخبر الله تعالى بحدود مهام الرسول صلى الله عليه وسلم، فقا عَزَّ وجل ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ فيا أيها النبي لست بمكلف بما هو ليس من مقدورك ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ فما كلفناك بحفظ أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم، فَتُحَمِّل نفسك ما لا تحتمل من المشقة، وفي هذا

تحديد للمسؤولية والتكليف، لترتفع مشقة الحرص، وكذلك ليس من مسؤوليتك الوكالة عليهم، وما يرتبط بواجباتها ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ فلست بوكيل على إيمانهم ومنافعهم وأرزاقهم، فيلزمك تحقيقها، وإنما أنت رسول مبلغ لِمَا أُرسلت به إليهم. مما يؤكد أن الإنسان لا يملك لغيره ما لم يشاء الله تعالى تقديره وتحقيقه، وإنما مسؤولية الإنسان هي هداية الدلالة، والقيام بما يستطيع تجاه غيره من الإعانة ونحوها، فلا تستطيع أن تغني من أفقره الله، ولا أن تعز من أذله الله تعالى، وإنما يلزم الإنسان بذل الوسع فيما هو من مقدوره ومسؤوليته، كما أن في ذلك أهمية تحديد المسؤولية، لما يترتب عليها من الفهم والمقاصد والمنافع.

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بالامتناع عَمَّا يستثير المشركين للتعدي بما لا يليق مع الله تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ فلا تسبوا ما يدعوا المشركون من دون الله تعالى من الآلهة والأنداد، حتى لا يرد المشركون عليكم بسب الله تعالى، جهلا بربهم عَزَّ وجل، واعتداء منهم بغير علم. وفي ذلك ما يفيد أهمية درأ المفاسد، وترك لشيء لما يترتب عليه مما هو أعظم منه من الفساد، واستخدام الحكمة في التعامل، وأن ترك وصف الشيء بما هو حقيقة له من النعت والسب؛ لا يعني الموافقة عليه، بل هو درء لمفسدة أعظم. فإنما الامتناع هو لتعظيم جلال الله تعالى، بعدم مجاهرتهم بما يستحقون من نعت آلهتهم بما تستحق ويستحقون. وفي ذلك درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وأثبت الله تعالى أنه حال حصول السب منهم، فذلك للجهل وغياب حقيقة العلم بذات الله تعالى، وأن من يعرف حقيقة الله تعالى لا يكون منه ذلك، بل لا يشرك به شيئا، مما يفيد أهمية العلم ومنزلته، فإنه بالعلم يعرف العبد ربه تبارك وتعالى حق المعرفة. وكذلك من الفوائد: عدم المجاراة في الباطل، وتنزيه الله تعالى وتعظيمه، حتى لو تطلب الأمر السكوت عن وصف الباطل بما يستحق. ففي هذه الآية الكريمة قاعدة خاصة لمن يحمل لواء الدعوة إلى الله تعالى، بأن يكون حكيماً، فيتوقف عندما يترتب على الكلام منكراً عظيماً، ويتوقف عندما يتمادى الآخرون في جهلهم بما هو أعظم من فائدة نصحهم، ويعلم أن الأمر والنهي يحتاج إلى حكمة، فليس معرفة الحق وإعطاء الحق هو محك الوجوب وركنه الأعظم فقط، بل لا بد من الحكمة التي تحقق الحق، وتمنع ما هو أعظم من الفساد. فليس القائم بالمعروف والناهي عن المنكر حفيظ على الناس، وليس هو وكيل على أعمالهم وأرزاقهم وسبل حياتهم، فكل مسؤول بحسب حدود مسؤوليته. فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ والعالم والداعية والمؤمنون تبعاً لنبيهم صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين الله تعالى حكمته فيما يشاء ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ﴾ فكما زينا لهؤلاء المشركين شركهم، كذلك زينا لكل جماعة، ولكل فرقة أصرت على باطلها ما هم فيه من باطل، فكان الجزاء من جنس

العمل، مما يفيد الحذر من التمادي في الباطل، فيعاقب اللهُ تعالى الْمُصِر، الْمُتَمَادي في باطله بأن يزين له سوء عمله من الذي هو عليه، وذلك جزاء له ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ثم إنهم بعد حياتهم الدنيا يعودون إلى مرجعهم في الآخرة، فيخبرهم الله تعالى بما كان منهم من أعمال خبيثة. وهذا تهديد ووعيد بأن رجوعهم في النهاية إلى الله تعالى، فيخبرهم بكل أعمالهم التي قاموا بها. فيوفيهم الجزاء المناسب لأعمالهم من الباطل.

ثم يكشف الله تعالى تصورات الذين عدلوا عن طاعة الله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ فلقد أقسم هؤلاء غاية أيمانهم التي بلغها علمهم، وبلغتها قدرتهم، أنه إذا جاءهم ما يطلبون من الآيات فليؤمنن بها. وهذا يدل على أنهم حلفوا أيمانا مؤكدة، وكانت الإيمان بالله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ مما يدل على أنهم يعتقدون بأن الله ربهم، ولكن يشركون به، فدل ذلك على عظيم الشرك وأنه كفر، وأن الله تعالى لا يقبل الشرك منهم، فأقسم هؤلاء بأنه إذا جاءتهم معجزة ليصدقنها، فحددوا وسألوا المعجزات تعنتاً وتكبراً وعناداً وانتصاراً لكفرهم، فلم يكن سؤالهم على سبيل الاستهداء، فرد الله تعالى عليهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قل لهم وأجبهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فالذي يملك إنزال المعجزات هو الله تعالى، فهو الذي ينزلها، فكيف أُجيبكم على ما ليس من ملكي وأمري، فإنها ليست من عندي، ولا أدعيها، ولو جاءت قد لا يؤمنون ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أن المخاطب بها المؤمنون، وقيل أن المخاطب بها المشركون كما ذكره أهل التفسير(١) ولا تضاد في ذلك، بل استوعب السياق الوجهين، وهو من كمال بلاغة البيان ودقته، فاستوعب المؤمنين، وكذلك المشركين، فهو سؤال يفيد الاستفهام التقريري، بأنه لا أحد يستطيع أن يجزم من المؤمنين بإيمان هؤلاء المشركين لو نزل ما يطلبون من البراهين، ولا أحد يستطيع من المشركين أن يجزم بذلك بالرغم من أنهم أقسموا جهد أيمانهم. وفي حال عدم إيمانهم عند نزول المعجزات فقد يعاجلهم الله تعالى بالعذاب والانتقام. ولعل في عدم حصوله خير لهم ولهذا الدين، فقد يُسْلِم بعضهم، وقد يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله. فإن الله تعالى حكيم في تدبيره.

ثم بين الله تعالى قدرته عليهم ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وجملة ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ تبين عظمة قدرة الله

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٤٨٦-٤٨٩)

تعالى، وضعف قدرتهم وقدرة كل مخلوق أمام قدرة الخالق عَزَّ وجل، بل وعدم قدرتهم على التحرز من أمر الله تعالى وقدرته فيما هو جزء من أجسادهم، بل ما هو داخل أجسادهم، بل عجزهم فيما لا يدركون كنهه وهو بين جوانحهم، وأن افئدتهم وأبصارهم، سهلة التغيير بأمر الله تعالى، وأنه يقلبها كيف يشاء إذا شاء. ونقل ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن ابن عاس رضي الله عنه، ومجاهد وابن زيد في معناها أنه: لو أتيناهم بآية كما سألوا، لقلبنا افئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها، وحُلنا بينهم وبين الهدى، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها، وذلك عقوبة لهم على ذلك[1] مما يفيد أن التمادي والتطاول على الله تعالى قد يؤدي إلى تعجيل العقوبة التي لا يستطيع الإنسان الفكاك والخروج منها، كعقوبة الحيلولة بين العبد والإيمان، أو ثواباً يرزقه الله تعالى العبد كطمأنينة النفس. فنسأل الله تعالى العافية والهداية والتوفيق، فما أعظم حاجتنا وافتقارنا إلى الله تعالى في كل لحظة وحين، وفي كل أمر وشأن.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

ويستمر البيان الكريم في كشف نوايا هؤلاء المشركين الجاحدين لتوحيد الله تعالى واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وما تحمله قلوبهم من القسوة، فيقول الله عَزَّ وجل ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٧٢)

﴿يَجْهَلُونَ﴾ يذكر الله تبارك وتعالى بأنه لو أجاب هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إن جاءتهم آية ليؤمنن بها، فلو أنزل الله تعالى عليهم الملائكة كما سألوا، وكلمهم الموتى، فشهدت لك الملائكة والموتى بالنبوة، وأخبروهم بصدق ما جاءت به الرُّسل، وجمعنا لهم كل شيء في الدنيا ﴿مَّا كَانُوٓاْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فلن يتحقق منهم الإيمان، وذلك لمعرفة الله تعالى بما هو كائن منهم قبل أن يكون ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فلن يكون الإيمان منهم إلا أن يشاء الله تعالى فيقضي بإيمانهم إجباراً لهم، فإن الأمر ليس كما يدَّعون.

ثم بين سبحانه وتعالى جهلهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ فإنهم يجهلون أنهم لن يؤمنوا حتى ولو جاءتهم كل آية، ويجهلون أن الأشياء لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى، فيعتقدون أن الأمور كما يريدونها ويتصورونها ويحكمون عليها، وذلك لعمق جهلهم، فهو جهل يحول بينهم وبين إدراك الحق، والوصول إلى الصواب. مما يفيد أهمية أن يدرك العبد أن جهله واسع كبير، وأن عليه ألا يغتر بنفسه ولا بالأسباب، بل عليه الالتجاء والركون إلى الله تعالى، والاحتماء به، والتوكل عليه تبارك وتعالى، وسؤاله العون والتوفيق.

فبين الله تعالى أن هناك ثلاث حجج من الآيات العظيمة التي لو حدثت لما وقع منهم الإيمان كما يدَّعون إلا إذا شاء الله تعالى، وهذا البيان لما يعرفه الله تعالى من حال العبد حاضراً ومستقبلا، فالآية الأولى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فشاهدوها لأنكروا أنها ملائكة، والآية الثانية: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لو تكلم من هو في قبره من الموتى وأخبرهم بما وجد من حقيقة ما أخبرت به الرسل عن حال الميت في قبره، لكذبوا ذلك، وأولوا الواقع، كأن يقولوا سحر، أو نحو ذلك، كما قال تعالى في سورة الحجر ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ ثم الآية الثالثة: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ لو جمع الله تعالى لهم كل شيء في الدنيا أمامهم فلن يحصل منهم الإيمان لسابق معرفة الله تعالى بما سيكون منهم، إلا إن يشاء الله تعالى لهم الإيمان. وهذا يبين سعة علم الله تعالى السابق لكل ما سيكون من العباد فرداً فرداً، وكذلك من غيرهم من خلقه في كونه الفسيح العظيم. وكذلك أن الإنسان مسؤول عن نفسه، وأن العناد والكبر يحول بين العبد وبين الاتعاظ بالمواعظ والبيان، إلا أن يشاء الله تعالى، مما يوجب أهمية الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى في كل أمر، حتى في خصاصة الإنسان نفسه، فمهما حاول في أمر فلن يكون إلا أن يشاء الله تعالى. فإنها دروس وموعظ في التربية الإيمانية.

ثم يؤكد الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن ما يواجه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يقابله مَن سَبق من المرسلين ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فكما جعلنا لك ولأمتك أعداء من شياطين الإنس والجن، فيعادونك ويخالفونك، جعلنا لكل نبي ولأمته من قبلك أعداء، مما يفيد ويعني أن لا تبتئس ولا تحزن من ذلك أيها الرسول ومن معك من المؤمنين، بل اطمئن، فكما ابتلينا الذين من قبلك من الأنبياء بالأعداء، كذلك الحال معك، مما يفيد أن الداعية للحق قد يواجه من يعاديه، ويستهزئ به، ويواشي به، ويؤذيه، وأن الأنبياء لم يسلموا من ذلك وهم رُسُل الله تعالى، فكيف بمن هم دونهم، ويمتد هذا لكل مصلح، فلا بد من مواجهة أهل الباطل له من شياطين الإنس والجن بالصبر، والحذر والحكمة في التعامل. وهذا الابتلاء ليعظم به الثواب والأجر عند الصبر على الأذى. وفي هذا تسلية وتصبير للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لقاء ما يجدونه من أعداء الدين من الكفرة والمشركين.

ومن دقائق البيان قوله تعالى عن شياطين الإنس والجن ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ فالإيحاء أسلوب تخفي، وهو إعلام وإخبار بستر وإخفاء، فتسميته وحياً ليفيد التخفي بينهم به، فقد يكون بالوسوسة، ويكون بالإشارة، ويكون بالأمر الخفي. فيوحي بعضهم إلى بعض بالتزيين والتمويه، وهو ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ فاجتمع في ذلك تزيين الباطل وزخرفته مع التغرير والتمويه به، ليفعل شيئاً، أو ليقول قولاً، فيمنيه بفعل الباطل حتى يَقْدم عليه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فليس فعلهم خارج عن إرادته سبحانه وتعالى ومشيئته وسلطانه، فلو أراد الله تعالى منعهم من فعلهم هذا، وشل قدرتهم وحركتهم، وأوهن تفكيرهم، ولجعلهم به جاهلين، ولكن لله تعالى حكمة في الابتلاء، ومن ذلك زيادة ثواب المطيع، وعقاب العاصي ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فاتركهم وما يفترون من الأباطيل والمنكرات والصدود والكفر والعناد، وما يحدث منهم، فجمعت ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ جميع الأنواع التي يفترونها بلا تخصيص، فتولى عنها أيها الرسول، وتجاهلها. وكذلك يفيد هذا البيان التهديد والوعيد لهؤلاء المكذبين ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فاترك عقابهم لي، فإن مرجعهم إليَّ، لأقتص منهم.

ثم يقول تبارك وتعالى موجهاً رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ اتركهم ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ ﴾ أي:

لتميل إليه ﴿أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فتميل إليه قلوب وعقول وأسماع أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿وَلِيَرۡضَوۡهُ﴾ وليحبوه ويقبلوا عليه ويريدوه ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾ وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام. ومعنى الاقتراف أي الاكتساب، والاقتراف هو مواقعة الشيء واكتسابه، فجمعت دلالة ﴿مُّقۡتَرِفُونَ﴾ كل ما يكتسبونه قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً. فسبحان الله العظيم.

ويأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين الذين أشركوا به، فيقول لهم ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾ أفغير الله تعالى أطلب من يحكم في قضية عدم تصديقكم، وهو سؤال استفهام استنكاري، يستنكر به ما سألوا، فيقرر به أن من يحكم بينه وبينهم هو الله تعالى، أتريدون أن أطلب حكماً غير الله تعالى يثبت لكم صدق الرسالة؟ أفغير الله تعالى أطلب قاضياً في هذا؟ كيف يمكن ذلك؟ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾ فهو الذي نَزَّل القرآن فصيحاً واضحاً في بيان الحق من الباطل، فاستوفى الكتاب كل شيء بكمال الوضوح والتفصيل المبين، فلا عوج فيه ولا غموض، فكيف أطلب الهدى في غيره؟ فكيف يُطلب الهدى من الضلال، وكيف يُلتمس الحكم والحق من المخلوق على الخالق. فكيف أضل بعد هذا الهدى؟ وكيف أبتغي غير الله تعالى حكماً؟

فإذا كان هؤلاء المشركون يكذبون بالكتاب، ويكذبون رسالتك، فإن أهل الكتاب يعرفون القرآن ويعرفونك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فأهل الكتاب من علمائهم يعرفون من التوراة والإنجيل أن هذا القرآن هو حق من الله تعالى، فيعرفون أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لما تضمنته التوراة والإنجيل من البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتفيد كلمة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ البيان التوكيدي ﴿أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فإن الحق مضاد للشك، فيكون علمهم بذلك هو علم تأكيد، لا شك ولا شبهة فيه، وكذلك لا شك ولا ريب في معرفة أهل الكتاب لهذه الحقيقة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: ثم نهاه الله تعالى عن أن يكون من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند الله بالحق، أو نهاه عن مطلق الامتراء، ويكون ذلك تعريضاً لأمته عن أن يمتري أحدٌ منهم، أو الخطاب لكل من يصلح له، أي: فلا يكونن أحدٌ من الناس من الممترين، ولا يقدح

في ذلك كون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن خطابه خطاب لأمته[١] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: هو من باب التهييج والإلهاب، كقوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٤﴾[٢] فإذا كان ذلك مستبعداً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيكون تنويهاً وإرشاداً للأمة، وتحذيراً من أن يحصل فيهم شيء من الامتراء، وتأكيداً للحقيقة التي لا امتراء فيها من أن القرآن العظيم منزل من الله تبارك وتعالى. فإذا كان الله خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك، فهو تعظيم في التأكيد وقوة في التحذير.

ثم بين الله تعالى أنه قد أظهر الحق وأطمس الباطل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فقد كملت كلمة ربك، أي: القرآن بالصدق والعدل، فلا مُغَيِّر لِمَا أخبر به، ولا مغير لما تضمنه القرآن العظيم، بما يثبت أنه حافظه سبحانه وتعالى من كل تبديل وتحريف. وأنه صِدقٌ فيما أخبر، وعدلٌ فيما أمر ونهى. فلا يمكن للمفترين على الزيادة ولا الإنقاص منه. وفي هذا تحدي إعجاز، فلم يستطع أحد منهم ولا أحد مما جاء بعدهم أن يبدل في كلام الله تعالى، بل بقي القرآن محفوظاً حفظاً معجزاً، فقد حفظه الله تعالى في صدور عباده الحافظين له، يتناقلونه بالتواتر، وكذلك حفظه بقدرته في المصاحف. فالحمد لله رب العالمين.

ثم بين الله تعالى أنه متصف بكمال السمع والعلم، فيسمع قولهم وقول كل قائل، فلا يغيب عن سمعه ولا عن علمه أمر ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو يسمع كلامكم، ويعلم ما هو منكم، بما يؤكد إحصاء ذلك وتثبيته لهم، فإن لهم اعتماد ذلك، وتحقيق اليقين به. وقد وردت صفتين لله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ كما جاءت بصفة العموم الدالة على الشمول، فهو سميع لكل شيء، وعليم بكل شيء، ومنه ما يكون منهم ومنكم من جميع الأقوال والأعمال. كما وردت بصيغة المبالغة، والتي أفادت كمال الإحاطة التي لا ينقص منه شيء أبداً.

والمتأمل في حفظ الله تعالى للقرآن منذ نزوله إلى اليوم، وإلى أن يرفعه سبحانه وتعالى، أن هذا الحفظ آية عظيمة من آيات الله تعالى، وأنه كتاب الله تعالى، وأن مضمونه آية ودلالة وحجة عظيمة من الله تعالى على خلقه.

ثم جاء النهي عن متابعة المخالفين بأسلوب يكشف حقيقة حال أكثر أهل الأرض، ممن عدلوا بكفرهم عن الله تعالى، فعدلوا عن توحيده وإفراده بالعبادة، فأشركوا به سبحانه وتعالى، وهذه من جمال التنويع في

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٥٥/٢)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٥٨/٢)

التوجيه والبيان، وهي قاعدة للأمة عبر العصور والأزمان، من أن أكثر وأغلب أهل الأرض على ضلال، فإن تطعهم يضلوك عن سبيل الحق المبين، الذي هو طريق الله تعالى وهداه ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فهذا البيان قاعدة للأمة في منهجها وسلوكها مع غيرها، بأن لا تجاري الناس في أهوائهم وطرائقهم، فهو وإن كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، فالمقصود به إفهام وتعليم الأمة، وإلا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك بعصمة الله تعالى وهدايته وتوفيقه له. ولكن لتعلم الأمة عمق تأثير طاعة المضلين، فإنه لو حصلت الطاعة من النبي صلى الله عليه وسلم لحصل الضلال، فكيف بالأمة التي ليس لها ما للنبي صلى الله عليه وسلم من الحصانة والمنعة الخاصة من الله تعالى. وإذا كان هذا النهي في حق النبي صلى الله عليه وسلم فيما لو حصل منه وحاشاه أن يحصل منه ذلك، فإنه في حقهم أعظم، مما يُوجب أشد الانتباه والتحرز.

وأما علة وسبب ضلال الضالين، وإضلالهم لغيرهم هو ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أي: أن منهجهم قائم على الشك. باتباعهم ما هو ضد اليقين من العلم والحقائق الثابتة، فاتبعوا الظنون التي لا حقيقة لها، والتَّوَهُّم بالحقائق والشك فيه، وأما العلة الأخرى لضلالهم هو التخرص ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ فهم بعيدون عن التيقن والتأكد، بل إن أفكارهم وتصرفاتهم قائمة على التخرص، وهو: الحدس والتخمين والتقدير، مما يبين أنهم عدلوا عن الحجة واتباع الدليل إلى اتباع الهوى والظنون والتخمين الذي لا سند له من العلم. مما يفيد ويعطي بياناً للمنهجية الصحيحة، وتبياناً للمنهجية الهوجاء، فالمنهجية الصحيحة تقوم على العلم القائم على الحجة والبرهان والدليل والإثبات، وإن كان هناك قياس فالقياس يكون على البرهان والدليل، ليكون المسلك على بينة ونور، وأما المسلك الأهوج الباطل فهو يقوم على ركيزتين، هما الظن والتخرص، اللذان يعتمدان على الميول والهوى، والتخمين والتوقع الذي لا برهان له ولا دليل، فليس هناك منهج علمي يُعتمد عليه.

ويستفاد من ذلك استخلاص ركيزتين مهمتين للبناء العلمي، وللبناء الاجتماعي في العلاقات، الأولى: الدليل والبرهان الذي هو أساس العلم، وضد الظن والشك، والثانية: التحليل والتفسير القائم على الدليل والبرهان، وليس على التخمين والحدس والتخرص والتقدير المبني على الظن والهوى. فإن كل نتاج فكري أساسه الظن والتخمين لا يُعَد علماً، وأن كل علم صحيح فهو قائم على الدليل والبرهان، والتحليل والتفسير بدليل وحجة وبرهان. وهذا هو العلم الصحيح الذي يرتقي بالإنسان. وكذلك فإن مبنى فساد العلاقات الاجتماعية هو قيامها على التخرصات والظنون التي لا أساس لها من الصحة. وكذلك في أمر الدين فإن أساس ثبات قوامه وقيامه أن يكون مبناه العلم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، والبعد في التأويل والتفسير عن التخمين والظنون، بل لا بد أن تكون وفق الدليل والبرهان.

ثم بين الله تبارك وتعالى عظيم علمه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ إن الله تعالى أعلم بمن هو في ضلال عن سبيله وهداه، وهو أيضاً أعلم بالمهتدين، مما يفيد أن الله تعالى بعلمه الواسع القديم لما يحدث ولما سيكون ويحدث، وما هو كائن من أمر العبد قبل أن يكون، فهو عالم وعارف بمن سيبقى في ضلاله وبمن سيهتدي من عباده، فَهَوِّن عليك الأمر أيها النبي، واطمئن، فما عليك إلا البلاغ، وبذل الجهد في تحقيق السبب، وهذا يبين سعة علم الله تعالى، وأن المؤمن مأمور بما يجب تجاه غيره من النصح والإرشاد، وأما تحقيق التغيير وإصابة المنافع التي منها الهدى فليس عليه منها شيء إلا الأخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك، وهذا يوجب الاستعانة بالله تعالى، وسؤاله التوفيق والثبات. فإن علم الله تعالى سابق بما سيكون من أمر العبد.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

ينتقل سياق السورة لكريمة إلى بيان العلاقة والفرق بين الذبائح التي يُذكر عليها اسم الله تعالى والتي لم يذكر عليه اسم الله عليها عند الذبح، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أمراً عاماً، بأن يأكلوا من كل شيء مباح تم ذكر اسم الله عليه، وأن عليكم الالتزام بذلك إن كنتم تؤمنون بحججه وأوامره ونهيه وتحليله وتحريمه جَلَّ جلاله، مما يفيد أن من علامة الإيمان الالتزام بأمره ونهيه، فإن فعلكم بحصر الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقط، هو قرينة على صدق الإيمان، يدل على إيمانكم وتقريركم بوجوب التزام ما نصت عليه آيات الله سبحانه وتعالى. وهو توجيه فيه استثارة وتشجيع نحو الالتزام ببيانه وتشريعه عَزَّ وجل. مما يدلل على أن الالتزام بذلك هو علامة الإيمان.

قال عطاء رحمه الله تعالى: يأمر الله تعالى بذكر اسمه على الشراب والطعام والذبح[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه. ومفهومه أنه لا يباح ما لم يُذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتة، وما ذبح على النصب وغيرها[٢]

ثم وجه سبحانه وتعالى عباده بأسلوب الاستفهام لما يجب عليهم من الأكل ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فما الذي يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكرتم اسم الله عليه، مما أباحه تعالى لكم. وفي هذا السؤال تقرير الأكل منه، وإزالة جميع الموانع والهواجس، طالما أنه فَصَّل لكم ما هو محرم عليكم، فيكون الأصل هو الحل عدا ما فصل تحريمه ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ليدل على أن الأصل هو الأكل طالما أنكم ذكرتم اسم الله عليه، وأنه يستثنى من ذلك ما فصل تحريمه بالبيان الذي قد أوضح لكم تفاصيله، بما يزيل الشك والريبة. خاصة وأنه في الجاهلية كانوا يأكلون الميتة وما ذُبح على النصب، ثم استثنى سبحانه وتعالى ما يكون وقت الاضطرار ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما يبين دقة الاستدراك في منهج الله تعالى بمراعاته الحالات التي يكون فيها الامتناع مصدر ضرر بالمضطر، بما يؤكد أنه الدين الحقيقي الذي أحاطت أحكامه بما لم يخطر على بال مُشَرّع من الخلق إلا وقت وقوعه، وهذا إعجاز تشريعي في استدراك الاحتمالات بما يناسبها قبل حدوثها، ليدل تشريعه سبحانه وتعالى على أنه واسع عليم حكيم جَلَّ جلاله. فاستثنى عَزَّ وجل حالة الضرورة، فيأكل بما يسد الضرر من الْمُحَرَّم، ومن دقة البيان أنه لم يحدد نوع الضرورة، ولا مقدار ما يأكل، وذلك لتستوعب جميع أصناف الضرورة الحادثة للمضطر، ولم يحدد المقدار لتستوعب القدر الذي يزيل به الضرر، وذلك لاختلافه بين الناس، فسبحان الله الذي أعجز بأحكامه عباده، فاستوعبت أحكامه دقائق الأمور، وتنوع الحلات، وبأسلوب عظيم، ودقة متناهية.

ثم بين سبحانه وتعالى كثرة المضلين ومنهجهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وفي هذا إشارة لأصناف الكافرين الذين يضلون أنفسهم وغيرهم بتشريعهم المبني على الأهواء، التي لم يكن للعلم منها نصيب، فيبيحون لأنفسهم ما لم يبحه الله تعالى، ويحرمون عليها ما لم يحرمه الله تعالى من المطاعم والمشارب.

ومن دقائق البيان أن قال الله تعالى عنهم ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ فيكون فعلهم متعدي لغيرهم، فلم يقتصر الضلال على الضال، بل تعدى به لغيره، فيكون قد ضل وأضل، وهذا أبلغ في البيان. كما بين النص الكريم أمراً مهماً وعظيماً، وهو إثبات الهوى لهم، ونفي العلم عنهم، فأثبت لهم وعليهم الإضلال من خلال الهوى ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١٢/٩)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧٤/٢)

ونفى عنهم العلم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ لأن العلم يقوم على الدليل والحجة، وهو مضاد للهوى، ولأن الهوى يقوم على الميول النفسية، والمصالح المتوقعة من غير ركيزة علمية البتة. مما يؤكد خطورة الهوى، وفضل العلم. وفيه كذلك التحذير من أهل الأهواء.

ثم قال تعالى مهدداً المعتدين على حرماته ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ فإن ربك هو الأعلم من غيرهم بهم. بما يفيد التهديد والوعيد، لأنه لن يساوي بينهم وبين من التزم شريعته، وكذلك فيه تشجيع واستدفاع للمؤمنين للأخذ بشريعته. وفيه كذلك بيان لسعة علمه سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ وقد أفادت دلالة ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ المبالغة في العلم إلى أقصى كماله واستيفائه، كما أفادت قصر كماله ومبالغته له تبارك وتعالى. وبما يفيد أنه محصي عليهم أعمالهم، وأن هذا الوعيد دليل على المحاسبة والجزاء.

ثم ينهى الله تعالى ويحذر من اقتراف الإثم ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ اتركوا المعاصي في السر والعلانية، وقليل الإثم وكثيره، وقد شملت دلالة ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ جميع ما هو محرم، من المعاصي، والإثم إنما يكون بالعمد والقصد، وشملت جملة ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ كل ما كان ظاهراً فعله وظاهراً حكم تحريمه، وكل ما هو معلوم، وكل ما هو مُعلن وظاهر للناس فعله وارتكابه، وشملت كلمة ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ جميع حالات الإسرار به، والتكتم والتستر بفعله، فإن خفي على الناس فإنه لا يخفى على الله تعالى، فيشمل ذلك جميع ما كان متعلقاً بحقوق الله تعالى، وحقوق العباد، فحرم على عباده اقتراف الإثم الظاهر والباطن. ويدخل في ذلك ما تقترفه الجوارح من السمع والبصر واليد والرجل وغيرها مما يكون بالقلب، أو اللسان أو البدن كله أو بشيء منه، فجمع النص الكريم بقلة ألفاظه جميع ما هو متعلق بدلالة النص من غير إعجاز ولا إطناب، وهذا من دقائق النص البلاغي، ومن عمق بيانه، فعلى قلة ألفاظه استوعب كمال المراد، فسبحان الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم بين سبحانه وتعالى مآل من يقترف ظاهر الإثم أو باطنه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ فبدأ الله تعالى بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتأكيد بيان الحكم، فإن الذين يكسبون الإثم، سوف يجازيهم الله تعالى على ما اكتسبوه من المعاصي، وكل بقدر ونوع ما اكتسب وحصَّل، وفي هذا وعيد يفيد التهديد والإنذار والتحذير من مقارفة الإثم، مما يوضح أن على المؤمن أن يتحرز من الإثم: سره وظاهره، فإن الله تعالى لا تخفى عليه خافية.

وبعد أن أمر تبارك وتعالى عباده بالأكل مما ذكر عليه اسم الله تعالى مما أباح من المطاعم فإنه ينهى في هذه الآية الكريمة عن الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ مما يدل على أن في ذكر اسم الله تعالى مقاصد عظيمة، من البركة، ومن التطهير، ومن الحفظ، ومما لا يستطيع الإنسان تعداده وتحديده، ولولا ذلك لما نهى عن ذلك سبحانه وتعالى، بل قال عنه عَزَّ وجل تأكيداً وبياناً ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ مما يدل على حرمته، فهو خروج عن الحق وعن حدود دين الله تعالى وتشريعه، وللعلماء تفصيل فيما هو مستثنى كالنسيان، وطعام أهل الكتاب، ويمكن العودة لها في كتب الفقه، وقال السعدي رحمه الله تعالى: ويدخل تحت هذا المنهي عنه، ما ذُكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام، وآلهة المشركين. فإن هذا مما أُهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً، ويدخل في ذلك: متروك التسمية، مما ذُبح لله، كالضحايا، والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية، عند كثير من العلماء. ويخرج من هذا العموم النَّاسي بالنصوص الأُخر، الدالة على دفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية، ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه[1]

ثم بين الله تعالى حال من يجادل المؤمنين في أحكام الله تعالى المتعلقة بأكل المذبوحات ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ فإن الشياطين يوسوسون لأتباعهم بمجادلتكم بالباطل المخالف للحق. وكان نزولها لمعالجة واقع وحادث قد حدث، ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أن أوحت فارس إلى أوليائها من قريش: أن خاصموا محمداً واصحابه، فإنهم لا يأكلون ما ذبحه الله، ـ أي الميتة ـ ويأكلون ما ذبحوا لأنفسهم؛ فكتب المشركون إلى أصحاب النبي صلى الله ليه وسلم بذلك، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء، فنزلت هذه الآية[2] وقيل أنها إيحاء الشياطين لكفار قريش. مما يفيد أن أعداء الملة يوحي بعضهم إلى بعض، لإحداث الفرقة وتحقيقها في صفوف المؤمنين، وذلك بما يبثونه من الفتنة والتخليط، فأخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما جاءهم من الفتنة. وقد حسم الأمر في ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ فإن أطعتموهم فيما يأمرونكم به، إنكم لمشركون مثلهم. وهذا تنبيه لمغبة التأثر بأقوالهم، وما يبثونه من ذلك ومثله، فإن التأثر قد يؤدي إلى الطاعة والمتابعة لهم، فعليهم التزام شريعة الله تعالى، فإنهم إن وافقوا أولئك الكفرة من المشركين أصبحوا مثلهم. مما يفيد التحذير من الاستماع لما يقوله أهل الباطل، وما يحاربون به أهل الإيمان، وأن على المؤمن ألا يلتفت إلى ترهات أعداء الدين. فليس كل واحد من المسلمين

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٤/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٠/٩-٥٢١)

لديه من العلم في دين الله تعالى بما يرد على الشبهات التي يثيرها أعداء الدين في كل وقت وحين إلى يومنا هذا، فيلزمه الابتعاد عنها، تحصناً لنفسه من تأثيرها على من ليس لديه علم في دين الله تعالى.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

يضرب الله تعالى مثلاً، يوضح به نعمة الهداية ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أفمن كان ميتاً متهالكاً في متاهات الضلالة وفي حيرة الجهل حتى لا يعرف كيف الخلاص منها، ثم أحياه الله تعالى بالهداية والتوفيق لها، بل زاده خيراً بإنارة طريق الهداية له ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ فامتن الله تعالى عليه بنور الإسلام والقرآن فأصبح يسير في هداية نور الإسلام والإيمان الذي أضاء قلبه وطريقه، فأصبح يعرف مسالك الخير فيتبعها، ويعرف مسالك الشر فيجتنبها. فهل يستوي هذا مع من هو تائه في ظلمات الكفر والجهل ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ فالكافر يعيش في ظلمة الكفر، وحيرة الطريق، فيكون تائهاً في متاهات الحياة، فلا يهتدي إلى مسلك يخرج به مما هو فيه. ثم قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فكان عقاب الكافرين الذين أصروا على كفرهم ولم يدخلوا في الإسلام أن زُين لهم كفرهم وجهالتهم وضلالتهم وفسقهم، فيرون أنهم خير من المهتدين، فكان الجزاء من جنس العمل.

فابتدأ المثال بسؤال تقريري بأسلوب المقارنة، مما يفيد أهمية المقارنة في تقرير الصورة التي يستوعبها الْمُخَاطَب، حتى يتصور بها المراد من الإفهام والتعليم، ثم بين مثال المؤمن بمن كان حاله قبل إيمانه وإسلامه كحال الكافر ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ وهذا يستوعب من كان كافراً قبل إسلامه فأسلم، ومن كان حاله لو لم يكن مسلماً فأدركه الإسلام منذ طفولته.

وضرب الله تعالى مثلاً للكفر بالموت، مما يدل على أن الإسلام حياة، تعقبها حياة الآخرة الأبدية، وأن الكفر موت للقلب في الدنيا، فيعقبه عذاب أبدي في الآخرة، فكأنه ليس في قلبه حياة في الدنيا تمنعه من

الشعور بالقبائح ليدفعها ويمتنع منها، وسيفضي به موت قلبه إلى عذاب الله تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ والحياة نماء وحركة وشعور، فالقلب الحي بالإيمان يتألم من القبائح والآثام وجراحاتها، فيدافعها ويقاومها، فيزداد المؤمن بأعماله وعلمه نماء وزيادة في الخير. فأطلق الله تبارك وتعالى عليه لفظ ودلالة الحياة ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ وكذلك أطلق عليه دلالة النور ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فالحياة تشتمل على الحركة والتفاعل والنمو والانتعاش لمن اهتدى، لأنه منتعش بالعمل وزيادة الخير فيما يحصده في دنياه وفي آخرته، وأطلق الحق سبحانه وتعالى دلالة النور على شريعته، ودينه الإسلام وكتابه القرآن الكريم، والعلم الذي حَصَّلَه فكان نوراً له، ينير الطريق للمهتدي، ليدله على كل خير، ويوضح له كل معوج وكل ظلال ليتوخاه ويتجنب مسالكها ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فهو يسير بين الناس بنور تكشف له الحقائق، فيعرف الباطل ويجتنبه، ويعرف الحق ويسلكه.

فقد وصف مسيره بين الناس بذلك النور مهتدياً به بينهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فينشر به الدين بين الناس، ويمشي به إلى الجنة بين الناس. في حين أن المقارن به على نقيض ذلك تماماً ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ فليس لمسلكه شبيه إلا الظلمة، فقلبه في ظلام، ومسلكه في ظلام، لأنه على غير هدى ونور، ولا يريد أن يخرج منها، لأن جهله أعماه عن الحق، فتمادى به في الكفر الذي أودى به إلى عقاب الله تعالى له بجنس العمل ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتفضيله للكفر وما هو عليه من الضلال، وعدم رغبته في دين الله تعالى، فإن الله عَزَّ وجل عاقبه بجنس فعله ومعصيته، فزَيَّنَ له سوء عمله، فأصبح مسروراً بانحرافه. فنحمد الله تعالى ونسأله العافية والهداية والثبات والتوفيق. فما توفيقنا إلا بالله تعالى.

ومن دقائق البيان وعمق المقصد أن الله تعالى لم يذكر فاعل التزيين لهم ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ ليفيد إظهار وإشغال ذهن المخاطبين بمن يقع عليهم التزيين وهم الكافرين، وليستوعب جميع وسائل التزيين التي يعاقبه الله تعالى بها.

ويفسر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الطبيعة البشرية، وحال الرُسل، وطبيعة أحوال الناس في كل قرية ومدينة، ليبين أن الأمر ليس خاصاً فقط بقريتك أيها النبي صلى الله عليه وسلم. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا

يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا في كل قرية مجرمين من عظمائها ورؤسائها ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا ﴾ فكما جعلنا في قريتك من المجرمين الذين يدعون إلى الكفر والتمرد على الحق ومعاداته ومعاداتك ومخالفتك، فإن الرسل كذلك كانت من قبلك، فواجهت مثل ما تواجه من المجرمين، ثم تكون العاقبة والدائرة عليهم، فإن مكرهم عائد عليهم ﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فكل ما يعملونه ويبذلونه من جهد في المكر والخديعة فإنه سينقلب عليهم وبالاً، وهذه من حكمة الله تعالى في تدبيره، بل من قوة تدبيره عَزَّ وجل أنهم لا يشعرون بأن تدبيرهم للمكر سيعود عليهم، فبوادر مكرهم في مقاييسهم وتفكيرهم وتحليلهم قوة قاهرة يسلطونها على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، وهي تتحول بقدرة الله تعالى هلاكاً عليهم. مما يفيد الحذر من عاقبة المكر، فقد يستدرج الله تعالى الإنسان في مكره حتى يتعالى ويتفاخر به، ويظن أنه قارب من تحقيق مراده، ثم ينعكس عليه بالهلاك والدمار، فيشاهده بأم عينه، والحياة مليئة بمثل هذه السنن، فمن تأملها وجدها.

وهذا يفيد أن الحياة البشرية لا تخلوا من المجرمين، ومن المتعاظمين في الإجرام والمكر، وأن الإنسان قد يواجه شيئاً من ذلك، فإذا كان الأنبياء والمرسلون واجهوا ذلك، فكيف بمن هم دونهم، فالداعية، والمصلح والمجتهد والمتفوق والناجح سيجد من يحاربه ويصارعه من المجرمين، الذين قد دَلَّ وأكد وصفهم بالإجرام على قوة مكرهم وبطشهم وجبروتهم، ولكن يتطلب ذلك الحكمة في التعامل والاستعانة بالله تعالى، فهو المعين والقادر على أن يجعل مكرهم عليهم وبالاً. وفي دلالة ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ دليل على أن الانتباه واستشعار مغبة الشيء نعمة من الله تعالى، وأن الله تعالى إذا أراد أن يمكر بعاصٍ جعله يتمادى، ولا يشعر بما ستؤول به النتائج، فيشعر أنه في مأمن من أمره، حتى إذا عاقبه استشعر وقتها وبال أمره، وأنه كان في غفلة حقيقة، في حين أنه كان جازماً بأنه سيفوت بمكره على كل عين وعقل. فالشعور بالخطأ والذنب والمعصية نعمة من الله تعالى. كما أن من الهدى في ذلك ألا يعتمد الإنسان المسلم على مقاييسه وتوقعاته، بل يسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

ومن تمادي هؤلاء المجرمين أنهم يتعالون على الحق كما قال تعالى في وصفهم ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ فإذا جاءتهم حجة بينة واضحة، قابلوها بقولهم ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ يريدون أن ينزل عليهم وحيٌ من الله، ويريدون بهذا أن تنزل عليهم الكتب كالأنبياء، بل كان قولهم هذا على سبيل الاشتراط على الله تعالى حتى يؤمنوا ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ

﴿نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ مما يدل على قوة العناد والتمادي والتباهي والتعاظم الذي بلغ في أنفسهم أن يشترطوا على الله تعالى تلك الشروط. فيقول الله عَزَّ وجل ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فالله تعالى يعلم من عباده من هو أهل للرسالة، فليست رسالته جَلَّ شأنه بناء على ما يعتقده الشخص في نفسه، أو يعتقده غيره فيه، بل هي اصطفاء، فإن عِلْم الله تعالى أوسع وأعمق غوراً من علم الإنسان بنفسه، فيعلم الله تعالى من الفرد ما لا يعلمه الفرد عن نفسه، ويعلم الله تعالى كيف يكون الفرد قبل أن يكون، ويعلم كيف سيكون في كل حال قبل أن يكون عليه، مما يفيد أن الله تعالى يعطي الملك، ويعطي الجاه، ويعطي العلم، ويعطي المنزلة والمكانة من يشاء وبالقدر الذي يشاء بفضله، وهو أعلم بالمهتدين، فإذا أعطى عبداً وجب عدم منازعته، فإن الذي أعطاه هو الله تعالى، وأن الذي منع غيره هو الله تعالى، فيعز من يشاء بقدرته وكرمه، ويذل من يشاء بحكمته. فإن العلم بهذا الجانب يحقق السلام الداخلي للفرد، وينزع عنه الحسد لغيره، ويكسبه التذلل لله تعالى، والانكسار له والتوكل عليه، ويكون عوناً لمن يستحق الإعانة. في حين أن الشر يأتي عندما يُقَدِّمُ الإنسان مقاييسه على مقاييس الله تعالى واختياره، بل إن اختيار الله تعالى للعبد أحسن من اختيار العبد لنفسه. فنسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، وأن يختار لنا ما ينصلح به شأننا في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى عن عقاب هؤلاء المجرمين ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ سيصيب هؤلاء المترفعون والمتعالون على أنبياء الله تعالى أشد الهوان والذل، وهو الصغار ﴿صَغَارٌ﴾ فأثبت الله تعالى لهم الذلة والمهانة، فإن كانوا متعاظمين في أنفسهم في الدنيا فإنهم عند الله تعالى أذلاء، مهانون ﴿وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ أي: وأيضاً سيصيبهم مع الصغار العذاب الشديد، جزاء بما كانوا يكيدون ويمكرون بالإسلام وأهله. مما يفيد أن عاقبة المكر والتكبر هلاك عظيم، فنسأل الله تعالى العافية.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا
كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥
وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ
وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ
أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ

خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

يبين الله تعالى إرادته وسلطته على من يريد أن يهديه، ومن يريد أن يضله ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ فمن يريد الله تعالى أن يهديه فإنه يشرح صدره للإسلام، فيفتح قلبه ويوسعه للتوحيد والإيمان، وحب ومحبة طاعة الله تعالى، وبغض معصيته، ومعنى شرح الصدر: بسطه بما يقذفه الله تعالى فيه من الهداية، ومحبتها والأنس بها ولها. ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ومن يرد الله تعالى أن يضله عن الهدى يجعل صدره لا يتسع للإيمان، فالذي كذب بالحسنى وتولى مدبراً فإن الله تعالى يعاقبه بالإضلال، حتى ليشعر ويُحِس بضيق في قلبه للإيمان، فلا يستوعبه، ولا يسعه، بل يبلغ به الضيق إلى درجة الحرج ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ الذي هو أشد درجات الضيق، فلا يتسع قلبه لشيء من نور الله تعالى وهديه، فيقابل ذلك الإيمان بالتمنع والتعذر، حتى لكأنه من ثقله على نفسه وشدته يصعد بما لا يستطيع إلى السماء ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فكأنما هو متكلف بمزاولة مالا يستطيعه ويمكنه، فهو بعيد المنال، واستطاعته عاجزة وممتنعة عليه، فكأنما هو مكلف بمشقة الصعود إلى السماء التي لا يستطيع بلوغها. فيقابل قبول الإيمان بضيق شديد، كأنما كُلِّف بما هو ممتنع عليه لا يستطيعه، فبلوغه وتعذره كتعذر صعود السماء من شدة كرهه للإيمان.

وهذا يدل على أن القلب وعاء عظيم إذا بارك الله تعالى فيه، فإنه يجعله يتسع لنور الله تعالى، كما يدل على عظيم نور الله تعالى، فلا تستوعبه إلا القلوب المتسعة، التي وسعها الله تبارك وتعالى بفضله ومَنّه ولطفه وإحسانه، فإن من عظمة الإسلام أن القلوب المتوغلة في الكفر، والمتجانفة عنه لا تتسع له، لسعة الإيمان ونوره البهيج الواسع، وأن قلب الكافر المصر على كفره ضيق شديد الضيق، فقد يبلغ به الضيق أنه لا يستطيع أن يقبل الإيمان ويُدْخلُهُ في قلبه، وكأنما هو من شدة ما يصارعه يصَّعد في السماء، وكذلك كأنما هو من شدة فراره عن الإيمان كمن طُلِب منه الصعود إلى السماء وما هو بقادر. وفي هذا بيان وتحرير للحالة النفسية التي يعاني منها الصاد عن سبيل الله تعالى، وكلمة ﴿ يَصَّعَّدُ ﴾ تفيد المضي في الشيء بمشقة، وتكرار فعل الشيء مرة بعد مرة، وهذا يفيد بلاغة تصوير شدة المعانة، بينما الحالة النفسية لمن أراد الله تعالى له الهداية منشرحة ومتسعة ومسرورة بهذا الإيمان، تشعر بالسعادة في الطاعة، وبالأسى والحزن عند المعصية، فتكون تواقة للعبادة والطاعة، وتشعر بالسعادة في أدائها، فاسأل الله تعالى لي وللمسلمين أجمعين الهداية وانشراح الصدر بالإيمان والطاعة والثبات على ذلك، إنه هو القادر وهو الرحمن الرحيم.

فكما يجعل الله تعالى قلب من أراد إضلاله ضيقاً حرجا ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فكما يجعل اللهُ قلب من أراد إضلاله ضيقاً حرجا، فكذلك يجعل الله تعالى الشيطان الذي هو ﴿ ٱلرِّجْسَ ﴾ مُسَلّط على الكافرين الذي لا يؤمنون. فيصبح الشيطان وليهم من دون الله تعالى، فيجعلهم في ظلمات الكفر وضلاله، فيتسلط عليهم الخذلان وعدم التوفيق. قال السعدي رحمه الله تعالى: وعدم إيمانهم هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن مَنْ أعطى واتقى وصدق بالحسنى ييسره الله تعالى لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسييسره للعسرى[1] كما قال الله تعالى في سورة الليل ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ فمن لم يصدق بلا إله إلا الله، ولا بالجنة، ولم يؤمن بأن هذا الإنعام هو من عند الله تعالى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ فسوف ييسر له الله تعالى ما يَهْلَك به، فيدخل النار، جزاء وفاقاً لما كان منه. قال ابن عباس رضي الله عنهما عن دلالة قوله تعالى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أي: الشر. وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ييسر شهيته للشر، فيؤديه إلى الأمر العسير، وهو عذاب النار[2] مما يبين أن من تمادى في الكفر والمعصية فإن الله تعالى يعاقبه بأن ييسر له ما يدخل به النار، جزاء وفاقا. بما يفيد التحذير من المعصية بجميع أنواعها، وأن على الإنسان يحذر من الكفر والمعاصي، وأن يتوب ويستغفر، ولا يتمادى في طغيانه. وكذلك على المؤمن أن يحذر من التمادي في أي معصية أياً كانت.

ثم بين تبارك وتعالى صفة ما أرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ فهذا دين ربك من التوحيد والقرآن وعموم شريعته، مستقيماً لا عوج فيه، وكلمة ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ تأكيد لصفة صراط الله تعالى، لأن صراط الله تعالى لا يكون إلا مستقيماً، مما يفيد أنه زيادة في التوكيد والتأكيد للعباد. ثم قال عَزَّ وجل عن هذا الصراط المستقيم ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فقد أوضحنا وبينا الآيات والحجج والبراهين في هذا الدين العظيم. ثم أوضح جَلَّ جلاله المنتفعون به، فقال عَزَّ وجل ﴿ لِقَوْمٍ

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٧/٢)

(٢)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٤/٨)

﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ لمن لهم الفهم والوعي، فيتفهمون معانيها، ويعملون بها. فإنهم هم المقصودون، وفي هذا مدح لمن آمن، وذم لمن كفر. وبما يفيد أن من جحد فقد قامت عليه الحجة، فيحاسبون ويعاقبون بما يستحقون.

فهؤلاء الذين فهموا وعلموا وانتفعوا بالآيات التي فصلناها فإن جزاؤهم الجنة ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي لهم الجنة عند ربهم، وقد وصفها الله تعالى بالدار، وبالسلام ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ فالدار تفيد المقر والإقامة، والسلام تفيد السلامة من كل مكروه، وأنها دار السلامة التي لا تنقطع سلامتها ونعيمها، وأن تحية أهلها فيها السلام، كما أن جملة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ تفيد مزيد التكريم من حيث المكان والاصطفاء، وأيضاً أنها مضمونة لهم عنده سبحانه وتعالى، ثم يعضد هذا التكريم بتكريم آخر ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: متولي إيصال المنافع لهم، وحافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة.

ثم يذكر الله تعالى يوم الحشر ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي: يجمع الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ يا معشر الجن قد استكثرتم من إغواء وإضلال الإنس، وقد ناداهم ربهم بكلمة ﴿ يَٰمَعْشَرَ ﴾ وهي مفرد معاشر، بما يفيد أن أمرهم واحد ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ فقال أولياء الجن من الإنس، مجيبين لله تعالى ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ وذلك بأن الجن أمرت والإنس عملت، وكان الرجل في الجاهلية إذا نزل في وادي، قال: أعوذ بكبير هذا الوادي. واستمتاع الجن بالإنس هو تعظيم الإنس للجن[١] ومن معاني ودلالات استمتاع الطرفين ببعضهم البعض: أن استمتاع الإنس بالجن، هو: أن الجن زينت لهم الأمور التي يهوونها، وشهَّوها إليهم، حتى سهل عليهم فعلها. واستمتاع الجن بالإنس: إغواؤهم إياهم، واستمتاع الإنس بالجن: ما يتلقون منهم من السحر والكهانة، ونحو ذلك، والمراد بالجن في هذه الآية الشياطين[٢] ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ وهو الموت، فيأتيهم الرد من الله تعالى ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم النار، ماكثين فيها مكثاً مخلداً

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٢/٢) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٤/٣-٨٥)

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال بعضهم يرجع إلى البرزخ، وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا[١] وقال بعضهم: من مقدار حشرهم من قبورهم، ومدتهم في محاسبتهم، ويجوز أن تكون ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يزيدهم من العذاب[٢] وكذلك يفيد الاستثناء أنه لمن آمن وعدل عن كفره بمشيئته عَزَّ في علاه.

ثم يُظهر ويبين سبحانه وتعالى صفتين عظيمتين له جَلَّ جلاله. فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حكيم في حكمه العادل بما يناسب الجرم، فإنه قد علم منكم ما الذي اعترفتم به ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ فهو عليم بكل شيء، واقتضت حكمته في حكمه أن يجازي العصاة بما تقتضيه معصيتهم.

وقد تضمن قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتين عظيمتين لله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ أي: إنه عَزَّ وجل هو الحكيم الذي له كمال الحكمة. أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. وكذلك هي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة حكمته وسعتها ورحابتها، وكذلك ربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العلم والحكمة، عرف ما كان وما سيكون منكم، ومن كل شيء.

والصفة الثانية: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وكذلك هي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة علمه وسعته، فهو الذي لا يغيب عنه شيء أبداً. فإن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما سيكون قبل أن يكون. وما قيل، وما يُقال، وما سيقال قبل أن يُقال. ويعلم ما توسوس به النفس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مُطَّلِع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى يصرف الشر ويجلب الخير. وأنه على كل شيء قدير، وأنه يسخر ما يمتنع عن المؤمن من الخير، ويكتب له ثواب جهده وجهاده لنفسه. وكذلك تشمل دلالة ﴿عَلِيمٌ﴾ الترهيب لغير المؤمنين، بأن ربكم يعلم ما أنتم عليه من كل وجه وحال، ومن النوايا، والأعمال، والأقوال، فلا يخفى عليه منكم خافية.

---

(١) المرجع السابق (١٨٢/٢) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٥/٣)

وقد ورد البيان لهاتين الصفتين العظيمتين بأسلوب التخصيص، حيث جاء مطلعها بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ ثم تلاه التخصيص بقوله عزَّ وجل ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي أفاد لا غيره ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الذي له كمال الحكمة والعلم، كما تضمن البيان الكريم التمجيد للرسول صلى الله عليه وسلم، بالتعيين له عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وبإضافته إلى ربوبيته سبحانه وتعالى، والمسبوق بنون التوكيد، المؤكدة لِمَا بعدها من البيان.

ثم قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فكما تساوى الظالمون في ظلمهم، فإنه تبعاً لذلك فقد سلَّطنا بعضهم بموالات بعض، فجعلنا بعضهم أولياء بعض، ثم يتبع بعضهم بعضا في النار، لما كانوا يكسبون من المعاصي، فعلة حكم الله تعالى عليهم بأن يتولى بعضهم بعضاً هو وحدتهم واشتراكهم في الظلم والضلال. وفي هذا ما يفيد التهديد للظالمين، بأن من لم يمتنع عن ظلمه فإن الله تعالى يسلط عليه ظالم مثله، وكذلك تحذير للظلمة مما هم فيه، ليعودوا إلى رشدهم، وإلى ربهم سبحانه وتعالى. ومن البلاغة البيانية أنه سبحانه وتعالى لم يذكر نوع ما يكسبون، اكتفاء بصفتهم من الظلم ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن الظالمين لا يأتي منهم إلا الظلم والشرَّ، فتكون مكاسبهم هي المعاصي والآثام التي يستحقون بموجبها العذاب الأليم، فاستغنى البيان عن ذكر النوع، اكتفاء بدلالة ما يخرج وما يكون منهم. وهي بلاغة بيانية في اقتصار النص على ما يقتضي من غير إسهاب.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

ويتكرر الإنذار من الله تعالى للكافرين من الإنس والجن، بأسلوب التقريع والتوبيخ من الله تعالى، من خلال تذكيرهم بيوم القيامة. فيقول عزَّ وجل ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ يوجه الله تعالى للجن والإنس السؤال الذي يفيد التوبيخ والتقريع لهم، وتقريرهم بما جاءهم من الرُّسُل. ألم تأتكم رُسُل يبينون ويوضحون لكم آيات ربكم، وينذرونكم من يوم القيامة.

والرُّسُل هم من الإنس، وأما الجن فهم تبع للإنس في هذا الباب، قال تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾[١] وذكر بعض أهل العلم: أن للجن رسل منهم، وأن الرسل التي كانت تبعث هي للإنس خاصة، وأن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم للثقلين: الإنس والجن[٢] وعلى أي أمر كان، فإن الله تعالى أقام الحجة على الإنس والجن، وبعث إليهم الرُّسُل.

فعاتب الله تعالى أولئك العصاة من الجن والإنس ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ فيقررهم الله تعالى بقيام الحجة عليهم، لكمال عدله وإنصافه، فقد جاءتكم الرسل يقرؤون عليكم كُتُبِي ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ ويحذرونكم ويخوفونكم من هذا اليوم، الذي هو يوم القيامة، فيعترفون في ذلك اليوم ولا ينكرون ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ فيقرون بإنذار الرسل لهم ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ فاغتروا وانشغلوا بزينة الحياة الدنيا، وبما أمهلهم الله تعالى فيها. مما يفيد الحذر من الدنيا وما تضمنته من غرور عن الآخرة ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ فاعترفوا وأقروا بكفرهم في الدنيا. فما أعظمها من خسارة، وما أعظمها من محاكمة وموعظة بأحداثها كيف تكون قبل أن تكون، فإنها موعظة ممتلئة بالبيان والإنذار. وفي هذا ما يفيد التحذير من يوم الجزاء، ودعوة للعودة إلى الرشد بطاعة الله تعالى، والكف عن المعاصي. مما يبين رحمة الله تعالى بالعباد، إذ ينذرهم ويحذرهم، ويخبرهم بحال ما سيكون قبل أن يكون، حتى يكونون على بينة من أمرهم.

ثم يبين الله تعالى كمال عدله وإنعامه ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ فإن ذلك المتقدم لكم من البيان والإنذار والتحذير، حتى لا يأخذكم ربكم بالعذاب بظلم وأنتم غافلون.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٤/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٥/٣-٨٦)

فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأقام الحجج، ليكون الجزاء عدلاً من ربكم، لا ظلم فيه. لأن ربكم ليس بظلام للعبيد. فبدأت الآية الكريمة باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الذي تم بيانه من أمر الرسل والتحذير والآيات والحجج، وأمر يوم القيامة والعقاب والعذاب، هو للإنذار والبلاغ ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ لأن الله تبارك وتعالى لم يكن ليهلك أهل القرى والبلدان ظلماً، وهم في غفلة من غير أن يبعث إليهم رُسُلاً مبينين ومبشرين ومنذرين ، فسبحان الله الحكم العدل، الذي أوضح وبين، وأقام الحجة والمحجة، فالحمد والشكر له سبحانه وتعالى.

ومن كمال عدله سبحانه وتعالى أن جعل الجزاء درجات متفاوتة، كل بحسب عمله. فقال الله عَزَّ وجل ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فالجزاء للمطيع والعاصي درجات ومنازل متفاوتة، بقدر طاعة المطيع ومعصية العاصي، ووصفها الله تعالى بأنها درجات، لتفاضلها وتفاوتها، وتباينها علواً ونزولا، ثم بين سبحانه وتعالى كمال علمه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فنفى تبارك وتعالى عن ذاته العظيمة الغفلة، لإثبات كمال الإحاطة والعلم بأعمالهم، فلا يغيب عنه شيء، كما يغيب عن من تصيبه الغفلة من خلقه، فيغفل عن بعض ما يحدث. فإن لله تعالى كمال العلم والإحاطة، وفي هذا البيان ما يفيد الإنذار والتحذير من قادم الأيام.

ثم يبين الله تعالى كمال عزته وغناه ورحمته ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ فإن الله تعالى غني عن كل شيء، وكل شيء مفتقر إليه، ومع هذا الغنى التام فهو رحيم، فمع غناه عن عباده إلا أنه رحيم بهم، ولولا رحمته لعجل العقوبة للكافرين والمذنبين، ولكن لرحمته ولطفه بعباده يمهل العبد، ولا يستعجل له بالعقوبة، فلعله يهتدي ويتوب ويستغفر. وهكذا يجب أن يتعلم المخلوق من صفة الخالق الكريم، بأن يكون رحيماً لطيفاً بغيره، وألا يطغيه غناه، بل يجب عليه أنه كلما ازداد غنى ازداد تواضعاً ورحمة بغيره، مع العلم أنه ليس هو الذي أغنى نفسه، وإنما الذي أغناه هو الله تبارك وتعالى.

ثم يحذر خلقه وتبارك وتعالى من التمادي في مخالفة أمره ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ فإذا شاء وأراد عَزَّ وجل استبدلكم بغيركم إن لم تنتهوا عن مخالفتكم لطاعته عَزَّ في علاه، فإنه يهلككم ويزيلكم، ويأتي بقوم من بعدكم أسرع وأطوع امتثالاً لأحكامه منكم، ويكونون بحسب ما يأمر ويريد سبحانه وتعالى.

ثم يوضح تبارك وتعالى لهم كمال قدرته في التغيير، فقال عَزَّ وجل ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ فكما خلقكم وأنشأكم من ذرية قوم آخرين، فإنه يأتي بغيركم، فليس الأمر والإيجاد والإزالة والاستبدال عسير على الله تعالى، فكما جاء بكم يأتي بغيركم، وفي هذا بيان لكمال قدرته جَلَّ جلاله، وتحذير، واستنهاض وتشجيع واستثارة لهم نحو الطاعة، وهذا والله من رحمته مع غناه عن عباده أجمعين.

ثم يقرن ذلك بالمزيد من التحذير، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ فما أنتم موعودون به من الفناء والبعث والحساب ﴿لَأٓتٖ﴾ فإنه قادم لا محالة، مما يفيد أن عليكم الالتزام بالطاعة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ فإن ذلك لا يعجز الله تعالى، لأن الذي خلق من العدم لا تعجزه الإعادة. فليس لكم فوت عما توعدون، فيعجز الله تعالى عنكم بفوتكم منه، فلا سبيل للفوت من ربكم بأي وسيلة تعتقدونها، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء، فيبعثكم ويعيدكم مرة أخرى بعد الموت، فإن ذلك لا يعجز الله تعالى، لأن الذي خلق من العدم لا تعجزه الإعادة. وفي هذا التصوير والبيان للحقائق ما يستدفع الإنسان للطاعة، قبل فوات الأمر، فلا حياة للعمل للآخرة غير هذه الحياة، وهذا العمر المحدد من الله تعالى.

﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧ ﴾

يأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بما يفيد التهديد والوعيد ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الصادين المعاندين بكفرهم: اعملوا بمنهجكم وطريقتكم على ما تمكنتم من أمركم الذي أنتم عليه، واثبتوا عليه إن شئتم، فإني عامل بما أنا عليه من منهج الله تعالى الذي أمرني به عَزَّ وجل، فلست مبالي بكم، ولا مكترث بما أنتم عليه. وهذا نوع من التحذير مما هم عليه، مع التهديد والتحدي، وإظهار القوة. وقد جمع لفظ ﴿ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ جميع أجزاء طرائقهم المختلفة في معاداتهم ومكائدهم

لدين الله تعالى، ولكتابه العزيز، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، من تكذيبهم له، ورميهم له بالسحر والكهانة والكذب، وتحذير الناس منه صلى الله عليه وسلم، كما جمعت جملة ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أمرين عظيمين: الأول: الثبات. والثاني: القيام بتنفيذ منهج الله تعالى، ومنها الدعوة إليه. وهذا غاية الحسن والبيان البلاغي الذي استجمع المراد المتنوع والمتعدد بأقل الألفاظ، وأجزل الكلام.

ثم يلي هذا التحدي وهذا البيان توعدهم وتهديدهم بأسلوب المتحقق من النتيجة والمآل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ فسوف ترون ما يتحقق به علمكم من هو الذي سيتحقق له النصر والفوز والتمكين، فتصبح له عاقبة دار الدنيا ودار الآخرة، فلفظة ﴿ٱلدَّارِ﴾ وردت مطلقة، ولم تكن مقيدة، لتجتمع فيها عاقبة دار الدنيا ودار الآخرة. فلا شك أن كلا الوجهين متحقق للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين في دار الدنيا وفي دار الآخرة. ففي دار الدنيا قد أنجز الله تعالى وعده، وتحقق النصر وانهزم الأعداء، وسيكون مآل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الفوز بالجنان، ومآل الكافرين النار. وقد قررت الآية الكريمة النتيجة قبل حدوث العاقبة وتحققها، وهذا إعجاز غيبي مبين، وعظيم.

ثم قرر سبحانه وتعالى قاعدة تحمل النتيجة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالقاعدة أن الظالمين لا يفلحون، وقد استجمع النص: الزمان والمكان، فلن يفلحوا، ولن ينتصروا في أي زمن كان على المؤمنين، واستجمع كذلك المكان، فلن يفلحوا وينتصروا في أي مكان على المؤمنين. فأعطت الآية الكريمة إعجازاً كونياً غيبياً لأحداث قادمة، كما نصت عليه الآية الكريمة، وهذا إعجاز غيبي، وآية ودليل على أنه كلام الله تعالى، ومن الإعجاز البياني أيضاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أن ورد الكلام على سبيل إثبات النصر لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وليس هو على سبيل التوقع والتخمين بالعاقبة والنتيجة، ليفيد التهديد والوعيد، وكذلك أن جملة ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ استوفت نتيجة العلو والفوز للمؤمنين في دار الدنيا وفي الدار الآخرة قطعاً، وهذه غاية في فصاحة الكلام وبلاغة البيان، فإنه على قوة سياقها كان قوة بيانها.

ثم يبين الله تعالى نوعاً من أنواع تشريعات المشركين الكفرية ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ

سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فقد جعل هؤلاء المشركين لله تعالى نصيباً ﴿ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أي: مما خلق ﴿ مِنَ ٱلْحَرْثِ ﴾ أي: من الزروع والثمار، وكذلك من ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ التي هي: الإبل والبقر والغنم ﴿ فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ أي: بكذبهم، وجعلوا نصيباً آخر مما خلق الله تعالى من الحرث والأنعام لآلهتهم من الأصنام والأوثان ﴿ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ اختراعاً من عندهم، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي جعلوا لله سبحانه وتعالى مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم نصيباً، ولآلهتهم نصيبا من ذلك، فيصرفونه في سدنتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه في ذلك، عوضوا عنه ما جعلوه لله تعالى، وقالوا الله غني عن ذلك ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فساء الحكم حكمهم في إيثار آلهتهم على الله تعالى[١] وفي هذا السياق والبيان من الله تعالى لتلك الحال التي كانوا عليها ما يفيد الذم والتوبيخ لذلك الصنيع الذي ابتدعوه وابتكروه من عند أنفسهم، ثم استحسنوه، مما يدل على عظيم جهلهم، وعظيم شركهم، وافترائهم الكذب.

ثم بين سبحانه وتعالى نوعاً آخر من تعديهم على نعمة الذرية ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ فكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الفقر، ووأد البنات خشية العار[٢]

فالذين زينوا لهم هذا القتل هم شركاؤهم من الشياطين ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ أي: ليهلكوهم ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ ليخلطوا ويدخلوا عليهم الشك في دينهم، وكانوا على دين إسماعيل، فرجعوا عنه بتزيين الشياطين[٣]

ثم يبين الله تعالى أن هذا ليس معناه خارج عن قدرته وسلطانه عَزَّ في علاه ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فلو شاء الله سبحانه وتعالى لمنعهم من فعل ذلك، ولحال بينهم وبين فعلهم الفاسد، فإن تَرْكُهم لا يعني رضاه بما هم عليه، ولا أنهم في منأى عن سلطانه وقهره وإرادته عَزَّ وجل، فإن له الحكمة البالغة تبارك وتعالى ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فدعهم وما هم عليه مما أرادوا، طالما أنهم لا

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٦٥/٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٦/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٨/٣)

يريدون طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والاهتداء بما جاءهم من الهدى، فإن موعد الجميع عنده عَزَّ وجل، يوم تجد كل نفس ما قدمت.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ لتنقطع به شبهة من يتساءل، لماذا لم يجبرهم الله تعالى على طاعته، ولماذا يتركهم يعصونه، وهو قادر على الحيلولة دون وقوع ذلك، فيكون فيه رد على أن الله تعالى قادر على منعهم من ذلك، ولكن الله تعالى ترك للإنسان حرية أمره، لمن شاء أن يستقيم، ولمن شاء غير ذلك، فليفعل كل بما أراد، ولكن موعد الجميع عنده يوم القيامة، فَيُوفِّي كل إنسان بما يستحق. فلو شاء الله تعالى لألزمهم بما يريد منهم، من التصديق والإيمان، فليس أحد بمعجز على الله تعالى، فعدم إيمانهم ليس عجزاً من الله تعالى عن إلزامهم وقهرهم، ولكن لكل امرئ ما اكتسب، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لكل إنسان ما يختار، كما قال عَزَّ وجل فيما سبق من هذه السورة الكريمة ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ فمن تَبَيَّن وتَعَقَّل تلك الحجج والتزم بها فلنفسه، ومن عصى واتبع هواه فلنفسه. وكما قال تعالى في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فمن شاء منكم أن يؤمن ويطيع، ومن شاء منكم أن يُنكر ويكفر. فأثبت الله تعالى بهذا البيان مسؤولية الإنسان عن نفسه في اختياره طريق الخير والحق، أو اختيار طريق الشر والباطل.

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

ومن مزيد افتراء المشركين في الأحكام قوله سبحانه وتعالى عنهم ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فحرموا أنعاماً وزروعاً ﴿أَنْعَٰمٌ

وَحَرْثٌ ﴾ والحرث هي الزروع، لأنه يُحرث لها في الأرض. وقالوا عنها ﴿ حِجْرٌ ﴾ أي: حجروها لأصنامهم، فحجروا الناس أن يصيبوها، فَحَرَّمُوها، وجعلوها لأصنامهم، وذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى أن معنى الحجر في كلام العرب: الحرام، يُقال: حجرت على فلان كذا، أي: حَرَّمْتُ عليه [١] وقالوا ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ فبكذبهم المزعوم قالوا: حرام إلا على من نشاء. فجعلوا من أنفسهم حكاماً في التحليل والتحريم، افتراء مزعوماً من عند أنفسهم. وجعلوا قسماً آخر لا يركبونها ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ أي: يحرم ركوبها، فلا يركبون ظهرها، وهم ينتفعون بنتاجها، وسائر الأشياء منها، غير ظهورها للركوب،[٢] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وهي البحيرة والسائبة والحام، والقسم الثالث: ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ وهي ما ذبحوه لآلهتهم، فإنهم يذبحونها باسم آلهتهم، لا باسم الله[٣] ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها، ولا إن حلبوها[٤] وهذه الأحكام هي افتراء من عندهم على الله تعالى ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ مما يفيد أنهم يَدَّعون أنها أحكام من الله تعالى زعماً باطلاً، فتوعدهم الله تعالى على افترائهم وكذبهم عليه عَزَّ وجل بما يستحقون ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ سيحاسبهم ويعاقبهم بما يستحقون من العذاب على هذا الافتراء. مما يبين أن من يفتري على الله تعالى الكذب فإن الله تعالى سيعاقبه على ما اقترف من البهتان.

والبحيرة هي: ناقة يشقون أذنها، ثم يحرمون ركوبها، ويرونها محترمة. والسائبة هي: ناقة أو بقرة أو شاة، تُترك للآلهة، فلا يركبوا لها ظهراً، ولا يحلبون لها لبناً، ولا يأخذون منها وبراً، ولا يحملون عليها شيئاً، وأما الحام، فهو: الفحل إذا أنتج من صلبه خمسة أبطن، قالوا حمى ظهره ، فيتركونه لأصنامهم[٥]

ومن افترائهم في التحليل والتحريم أنهم حرموا على نسائهم ما أحلوه لذكورهم ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ فقالوا ما في بطون هذه الأنعام

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧٨/٩)

(٢) المرجع السابق (٥٨٢/٩)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (١٦٧/٢)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٢/٩)

(٥) الزمخشري، الكشاف (٦٩٨/١)

المحرمة من البحيرة والسائبة والوصيلة، قيل هو الولد واللبن، والأجنة، خالصة لذكورهم، فليس للنساء منها نصيب ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام ميتة، يكونون فيه شركاء: الذكور والنساء، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سيجازيهم الله سبحانه وتعالى على قولهم الكذب، من تحريمهم ما أحل الله تعالى، وتحليلهم ما حرم الله تعالى، مفترين على الله تعالى بأن ما قاموا به هو من عنده سبحانه وتعالى، كما جاء في الآية السابقة من قوله تعالى ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ثم قال تعالى عن نفسه عزَّ وجل ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حكيم في أفعاله وأقواله وشرعه، وإمهاله، وتدبيره سبحانه وتعالى، كما هو عليم بأعمال عباده، فيجازيهم عليها بما يستحقون، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم بين سبحانه وتعالى قدر خسارتهم ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فهؤلاء الذين أشركوا، وتمادوا في كفرهم، بالتحليل والتحريم من عند أنفسهم، قد خسروا أولادهم، بدفن بناتهم أحياء، وقتل ذكورهم خشية الفقر، فكان عملهم ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والسفه هو: خفة النفس لنقصان العقل، إذ يغذي كلبه ويقتل ابنته، فاعتمدوا السفه في تفكيرهم، وتخلوا عن العلم الذي يرتفع بالعقل والفكر. فتمادوا في التحريم والتحليل ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ فهذا التحريم والتحليل الذي قضوا به على أنفسهم كذب وافتراء، والافتراء: هو الكذب المتعمد، الذي ليس له شيء من الصحة ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فكان مصيرهم الضلال، والتيه في التصرفات والأحكام الضالة والجائرة، فابتعدوا عن الهداية والصواب والحق والخير. مما يفيد: أهمية العلم، وخطورة الافتراء في مسلك الإنسان وعقله وتصرفاته. فنسأل الله تعالى الهداية والتوفيق والثبات على الحق.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ

مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان بديع صنع الله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ ﴾ فهو الله الذي خلق، فأوجد حدائق وبساتين: فمنها ما هو معروش، أي منبسط ومنتشر على وجه الأرض، كالكرم أو العنب والقرع والبطيخ. ومنها ما هو قائم على ساق، كالنخل وما هو مثله[1] والعرش في الأصل هو: الشيء المسقف، وجمعه عروش، ومنه قيل عرَّشت الكرم، وعَرَّشتُه أي جعلت له كهيئة سقف[2] ويستفاد من ذلك أن المعروشات ما كان على هيئة الامتداد من النبات؛ سواء كان على الأرض مباشرة، أو كان مرفوعاً على عريش ونحوه، فصفة الامتداد هي الجامع لمعنى المعروش، وفي هذا لفتت الانتباه للتأمل والتفكر في التباين والتغاير في الخلق والإنشاء والتكوين، التي تثبت دقة الذي أوجدها سبحانه وتعالى، فأعطت المعروشات في شكلها صورة ومنظراً بديعاً، وأعطت غير المعروشات جمالاً متغايراً مع المعروشات، وتحققت بها مقاصد عظيمة، فإنه الله تعالى رب العالمين. والله تبارك وتعالى قادر على أن يجعلها على هيئة واحدة، ولكن المبدع عَزَّ وجل، لا يخلق إلا إبداعاً، يُظهر ويبين عظمته وقدرته ودقته، ليستشعر المخلوق عظمة خالقه ولطفه وكرمه.

ثم تدرج البيان من الكل إلى الجزء ﴿ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖ ﴾ فخص تعالى بالذكر النخل، لما فيها من عظيم الخلق، وكثرة النفع، حتى لا يكاد يُرمى شيء من أجزائه، ثم لفت الانتباه إلى عموم الزرع: مما يأكله الناس، أو تأكله البهائم فقط، أو ما تأكله الحشرات والدواب، أو ما يستخدم في الأدوية والاستشفاء كالحرمل والسنا ونحوهما. ثم ذكر سبحانه وتعالى اختلاف وتباين مذاق ونوع وطريقة أكله ﴿ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ فشمل دلالة ﴿ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٩٢) والشوكاني، فتح القدير (٢/١٦٨)

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٢٩)

اختلاف الطريقة، واختلاف المذاق، فبعضه يؤكل طحناً ومضغاً، وبعضه مصاً وذوباناً في الفم، وبعضها لا بد من تهشيمه بالأضراس، وبعضها يؤكل على شكل حبات؛ كالتمر والعنب، وبعضها يؤكل أجزاء، كالتفاح، وبعضها يسبقه فَذْحٌ وتقطيع وتشريح، وبعضها يسبقه طحن كالحبوب، ومنها الحامض والحلو، ومنها وسط بين ذلك، بل وعلى درجات لا تحصى حجماً وتذوقاً، وجميعها تُسقى بماء واحد، وتنبت وتتغذى في أرض واحدة، فمن جعلها تختلف في نتاجها مع وحدة شرابها وطعامها، إنه الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان، فجعلهم مختلفين في ألونهم وأشكالهم مع وحدة طريقة خلقهم. ولو شاء الله تعالى لجعلها زروعاً بلا غذاء، لكنه برحمته وفضله عَزَّ وجل جعل فيها قدرة غذائية عالية، وطعاماً وإشباعاً، وتفاوتاً في طعمها ولذائذها، وجعل جنيها وتحصيلها بأيسر ما يكون، ولم يجعل عائقاً ولا حائلاً عند ارتفاعها يعيق جنيها. فمن قدر هذا غير اللطيف العليم الحكيم، بلطفه ورحمته وقدرته. فإن في هذا دليل على وحدانيته وعظمته عَزَّ وجل.

ثم ذكر سبحانه وتعالى التشابه والمفارقات في شجرتين عظيمتين مباركتين ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ متشابه في المنظر، وغير متشابه في الطعم، ومشتبه في الورق، ومختلف في الثمر، ومتشابه في الخلق، ومختلف في الطعم، بل إن كل نوع منهما يتشابه ويتفاوت في شكله، وطعمه وذوقه، وقد يتشابه في شكله، ويتباين في حجمه وارتفاعه، وقد يتشابه في عموم لونه ويتفاوت في درجة ألوانه، بل يحصل التفاوت العجيب في درجة استواء حباته، وتدرج ألوانه، واختلاف حجمه، ليعتبر الإنسان بدقة الخالق في خلقه سبحانه وتعالى، والتي منها تلك الثمار المذكورات، وفي غيرها مما لم يذكره البان، ليغني ما تم ذكره عن غيره مما لم يتم ذكره. وفي هذا قوة في شد الانتباه إلى ما قد يذهل عنه الفكر نتيجة اعتياده، مما يؤكد على أهمية لفت الانتباه، لأن وسائل الرصد البصري والسمعي وغيرها من الحواس قد تذهل عن تفاصيل الشيء إذا اعتادت عليه، فقد لا تفكر في تفاصيله ودقائق تكوينه، فاحتاجت إلى من يلفت انتباهها نحو ما تاه الفكر عنه. وفي هذا استثارة تعليمية نحو تفتيت التفاصيل وتبيانها للمتعلمين وللموعظين.

ثم يأمر الله تعالى عباده بالمنهجية الصحيحة في كيفية التعامل مع نعمة ما أخرج من الزروع المختلفة، فالأول: اعتماد الإباحة بصيغة الأمر ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ فإن أكله مباح لكم، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: لما أبيح لهم الأكل من ثمره، قيل: إذا اثمر، ليعلم أن أول وقت الإباحة هو وقت إطلاع الشجر الثمر، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع(١) ففي هذا تأكيد لوقت تحصيل الفائدة من الثمر، بأنه إذا أثمر ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ والثاني: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فأمر سبحانه وتعالى بأن يُؤتى ما يجب فيه يوم يحين حصاده والانتفاع به، سواء كان استخداماً للأكل، أو للبيع والتجارة، أو لغير

(١) الزمخشري، الكشاف (٧١/٢)

ذلك، ولكن ما هو حقه ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ قيل الزكاة المفروضة، وقيل: هو سوى الحق المفروض، بإطعام من حضر[١] وكذلك يشمل ترك الناس يأكلون مما تساقط من الثمر.

بل إن هذا السياق الكريم من الله تعالى ممتلئ بالإعجاز الفقهي، إذ يستدعي ويستحث الْمُخَاطب نحو تحري طاعة الله تعالى في جميع الأوجه، فيخرج الزكاة المفروضة، وإطعام من حضر، وليكون للمساكين حق أخذ المتساقط منه، وكذلك من دقائق النص: أن الضمير في كلمة ﴿حَقَّهُۥ﴾ يعود للزرع، أي: للمحصود، فيصبح الحاصد مأمور بالأداء، بأن يؤدي حق هذا المزروع من المحصود، وكأن الشخص المأمور بمثابة الوكيل، فيقوم بإخراج الذي لله في هذا الزرع، فليس من المأمور إلا فعل العطاء في ملك الله تعالى. فسبحان من أعجز بيانه عباده، وأفاض في سياق كلامه فقها وعلماً يفتق الألباب، وينير به البصائر. اللهم أنر بصائرنا بكلامك. وأحسن إلينا بفيض عطائك.

ومن دقائق السياق أنه سبحانه وتعالى وجه بالأكل، وقدم ذكره على وجوب أداء الحق، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق، ليبين أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف[٢] وليشعر المؤمن أن الله تعالى إنما خلق هذا للأكل أولاً، ثم وجبت فيه النفقة منه شكراً للمنعم، لأن الزكاة وما يُعطى للآخرين هو من فضل الله، لله تعالى. فيكون العطاء للخير هو شكر لله تعالى.

ثم ذكر زمن إعطاء الحق ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي: يوم حصولها في اليد، فلو كان القصد بتعيين الزكاة فقط دون غيرها من أوجه الإنفاق في الخير، لما تم تحديد الإيتاء يوم الحصاد، لأن الأمر محمول في زكاة الزروع على وجوب الإخراج، أي: بوجوب إيتاء زكاته من غير تحديد بأن يكون يوم الحصاد، فيؤخر إلى زمن التنقية، مثل القمح. ولكن يوم الحصاد ينطبق على النخيل، لأن الصدقة فيها يوم الحصاد، فيكون دلالة الإيتاء يوم الحصاد، تستوعب وتشمل: إطعام من حضر، وكذلك ترك ما سقط من الزرع والثمر يوم الحصاد للغير، والإسراع والمبادرة في إخراج الزكاة، فيكون التوجيه بالاستعجال وليس بالضرورة في نفس اليوم؛ لما يحتاج بعضه إلى تصفيته وتنقيته، وأفادت الآية أن الوجوب فيما يُحصد، فيقع تحصيله في اليد، دون ما يتلف. لأن التالف أثناء الحصاد لم يدخل في الحصاد. وهناك تفصيل فقهي واسع وملخص، فقد توسع في ذكره الإمام القرطبي، ولخصه الإمام ابن الجوزي رحمهم الله تعالى[٣] ومن لطائف الفوائد في قوله تعالى ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٦١٠-٥٩٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٦٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٦٦-٧٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٩٢)

﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي: واعزموا على إيتاء الحق، واقصدوه؛ واهتموا به يوم الحصاد، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء[١]

وبعد أن وجه الله تعالى عباده إلى الأَكل، ثم وجههم إلى إيتاء حقه يوم حصاده، وجههم إلى عدم التبذير ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ والإسراف مجاوزة الحد، وقد فهم العلماء دلالات عديدة من رحابة هذا التوجيه: فالأول: أن المقصود هو تجاوز القدر المفروض من الزكاة إلى حد الإجحاف بحق النفس، والثاني: منع الصدقة الواجبة، والثالث: حتى لا يأخذ السلطان فوق ما يجب، والرابع: أنه الإسراف في الأَكل قبل أداء الزكاة[٢] وهذا التنوع في الاستنباط، لشمول الأوجه، واستيعاب النص الكريم لذلك، بما يدل على أن رحابة عطاء النص في بناء سياقه إعجاز فقهي، إذ اجتمعت في النص أوجه المقاصد، مع تضافر دلالاتها، حتى أعطت أوجه الإسراف ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ في هذا المقام جميع تلك الدلالات، لأن مفهوم السرف يعني تجاوز الحد، في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر، ويقال تارة بالقدر، وتارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف[٣] ثم يؤكد الله تعالى نهيه ببيان عدم رضاه للإسراف ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ فإن محبة الله تعالى منتفية عن المسرف، وبالتالي منتفية عن الرضا بفعل المسرف، فيلزمه التزام حد الاعتدال الذي أُمر به شرعاً.

ومن تذكير الله تعالى لعباده بنعمه الجليلة العظيمة هو أيضاً ما سخره من الأنعام، فمن الأنعام ما جعلها عَزَّ وجل تحمل ما يُحْمَل عليها من الأثقال، وبعضها للأَكل، وللإفادة من أوبارها وأشعارها ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾ فالحمولة هي التي يُحمل عليها، كالإبل والبقر والخيل والبقال، والفرش هي: ما أُكل منها، مثل الضأن والمعز[٤] فالحمولة ما انتفع الإنسان بظهورها، والفرش ما انتفع الإنسان بلحمها، ويدخل في الفرش من الحمولة صغارها، لأن الحَمُولة في صغرها أقرب للأَكل من استعمال ظهرها للحمل عليها، وعند كِبرِها يصبح الحمل عليها أظهر من أَكلها. مما يدل على أن التسمية قَصَدت الانتفاع، ليبين الله تعالى مقدار تسخيره وتنويعه فيما سخر، فكما سخر لكم الثمار المعروشات وغير المعروشات، والنخل والزيتون والرمان، كذلك سخر لكم من الحيوانات ما تحملون عليه، وما تأكلونه، وما تنتفعون بأوبارها وأشعارها. ومن أوجه دقائق السياق أن التسمية

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٧١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٩٢)

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢٣٠)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٢/١٧٠)

جاءت لتوافق الاستعمال والاستخدام والانتفاع، بصرف النظر عن متغيرات الانتفاع بتغير مراحل عمرها. وأيضاً كلمة ﴿وَفَرۡشٗا﴾ استوعبت ما يفرش على الأرض، فيكون في دلالتها ما تصنعون منه فرشكم، مما يُنسج من وبرها.

ثم كرر سبحانه وتعالى الأكل هنا مع تغير نوع المأكول ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يفيد هذا البيان الانتهاء عن ما حرم أهل الجاهلية مما لم يحرمه الله تعالى، وفيه بيان أن المُشَرِّع للحلال والحرام هو الله تعالى، وأن الأصل هو الحل ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وفيه إثبات أن الرزق من عند الله تعالى، وأن ما خلق الله تعالى من الأنعام والثمار هي رزق من الله تعالى، لتأكلوا منه. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ ولا تتبعوا طرق الشيطان، وسماها الله تعالى ﴿خُطُوَٰتِ﴾ لأن من أساليب الشيطان التدرج مع ابن آدم خطوة خطوة، فإذا أطاعه في خطوة، حبب إليه التي بعدها، حتى يوقعه في الكبائر، ولا يبالي أن يخرجه من الملة، وهذا تنويه من الله تعالى على قوة سياسة مسلك الشيطان الرجيم، وقد يكون مسلكه في تحريم الحلال، أو في تحليل الحرام، أو في غير ذلك من مسالكه وطرائقه. ثم حذر الله تعالى ببيان عداوته ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ فبين الله سبحانه وتعالى موقف الشيطان من المؤمنين: أنه عدو لكل مؤمن، لا يفرق بينهم، بل إن عداوته ظاهرة بائنة، ولذلك وصف الله تعالى عداوته بأنها بينة ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ وهذا تحذير ليتجنبه المؤمن ويحذره، وأن ليس له عذر بعد هذا البيان والتحذير.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾

بعد أن بين الله تعالى أنواعاً من الزروع التي خلقها للإنسان وينتفع بها الحيوان والدواب، والتي منها: المعروشات وغير المعروشات، وأنه خلق لعباده من الأنعام حمولة وفرشا، انتقل البيان بعد ذلك إلى أصناف من الأنعام ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ فبين الله تعالى أنه خلق ثمانية أزواج: يعني ثمانية أفراد، وسُمّي الفرد زوجاً في

هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة للآخر، ويقع لفظ الزوج على الواحد، فيقال: هما زوج، وهو زوج. ويقول: اشتريت زوجي حمام: أي ذكراً وأنثى، والحاصل أن الواحد إذا كان منفرداً، سواء كان ذكراً أو أنثى، قيل له فرد. وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه، قيل: لهما زوج. ولكل واحد على انفراده منهما زوج، ويقال: لهما أيضاً زوجان، ومنه قوله تعالى في سورة القيامة ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾[١]

وقوله تعالى ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ بيانها هو قوله عزَّ وجل ﴿ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ﴾ وكما فنَّد سبحانه وتعالى الأنعام إلى حمولة وفرشا ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ فنَّد الثمانية الأزواج في هذه الآية إلى التقسيم نفسه، فذكر الحمولة في آية لوحدها، والتي هي الضأن والمعز، والفرش في آية لوحدها والتي هي الإبل والبقر، وهذا من جليل وعظيم البيان في دقة تتابع التقسيم، فقال سبحانه وتعالى ﴿ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي من الضأن اثنين: الذكر والأنثى، وهي ذوات الصوف من الغنم ﴿ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾ والمعز من الغنم خلاف الضأن، وهي ذوات الشعر، والأذناب القصار، وهو اسم جنس. وواحد الْمَعْز ماعز، والأنثى: ماعزة، وهي العنز، والجمع مواعز. وأمعز القوم: كثرت معزاهم، والمعَّاز: صاحب المعزى[٢]. ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين في شأن ما حرموا على أزواجهم بغير وجه حق، وما حرموه على أنفسهم ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: الهمزة في ﴿ ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾ للإنكار، والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن والذكر من المعز، وبالأنثيين: الأنثى من الضأن والأنثى من المعز، على طريقة الجنسية[٣]

وهذا سؤال استنكاري، يستنكر فيه سبحانه وتعالى صنيعهم، بأسلوب المحاجة والمناظرة التقريرية، التي تقرر بطلان فعلهم، وكذبهم وافترائهم ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ ﴾ فهل حرم الله تعالى الذكرين من الضأن والمعز ﴿ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ أو حرم الأنثيين؟ فالمعنى: إن كان الله تعالى حرم عليكم الذكرين، فكل الذكور حرام، وإن كان حرم الأنثيين، فكل الإناث حرام، وكذلك فيه: إن كان حرم الأنثيين فلما لم يحرم الذكرين، مع

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٧٠/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٥/٧)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٧٢/٢)

أنهما من جنس واحد، وإن كان حرم الذكرين فلما لم يحرم الأنثيين، مع أنهما من جنس واحد ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فهي تشتمل على الذكور، وتشتمل على الإناث، وتشتمل على الذكور والإناث، فيكون كل جنين حرام. وقال ابن الأنباري: معنى الآية: أَلَحِقَكم التحريم من جهة الذكرين، أو من جهة الأنثيين؟ فإن قالوا: من جهة الذكرين، حَرُم عليهم كل ذكر، وإن قالوا: من جهة الأنثيين، حرمت عليهم كل أنثى، وإن قالوا من جهة الرحم، حَرُم عليهم الذكر والأنثى. وقال ابن جرير الطبري: إن قالوا: حَرَّم الذكرين، أوجبوا تحريم كل ذكر من الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم بعض الذكران منها وظهوره، وفي ذلك فساد دعواهم، وإن قالوا: حَرَّم الأنثيين، أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره، وإن قالوا: ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها، قال المفسرون: فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الآية، والتي بعدها، لأنهم كانوا يحرمون أجناساً من النعم، بعضها على الرجال والنساء، وبعضها على النساء دون الرجال[١]

وبعد تفنيد تلاعبهم في التحريم، وإبطال منهجهم، بأنه قائم على غير علم، بل قائم على الافتراء الذي منصته الجهل، يتوجه السؤال إليهم ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أخبروني وأجيبوني بعلم على ما تم تفنيده من حجة عليكم إن كنتم صادقين في تحريمكم وتحليلكم؟ بما يدل على أن في امتناعهم ما يثبت كذبهم، وبطلان ما حَرَّمُوه، وانكشاف جهلهم لأنفسهم ولغيرهم. وفي هذا ما يُعَلِّم المؤمن أن منهج العلم وركائزه هي التي يُعْتَمَدُ ويُعَوَّلُ عليها، وأن منهج الإسلام قائم على العلم، وعلى الحجة، وتقريرها وإثباتها، وهذا يربي في نفوس المؤمنين قوة التفكير، والتحفيز للعلم، وإقامة الحجة، وتقرير المناظرة بعلم رصين.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: قال العلماء: الآية احتجاج على المشركين في أمر البحيرة وما ذُكر معها، وقولهم كما قال تعالى ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ فدلت على إثبات المناظرة في العلم، لأن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يناظرهم، ويبين لهم فساد قولهم، وفيها إثبات القول بالنظر والقياس. وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به، لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة، وأمرهم بطرد علتهم[٢] مما يبين أن منهج الإسلام هو منهج حقائق، لأنه من لدن العليم الخبير سبحانه وتعالى.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٩٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٧٥-٧٦)

ثم قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي من الإبل اثنين: الذكر والأنثى ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي من البقر اثنين: الذكر والأنثى ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ فالمعنى: إن كان الله تعالى حرم عليكم الذكرين، فكل الذكور حرام، وإن كان حرم الأنثيين، فكل الإناث حرام، وكذلك فيه: إن كان حرم الأنثيين فلما لم يحرم الذكرين، مع أنهما من جنس واحد، وإن كان حرم الذكرين فلما لم يحرم الأنثيين، مع أنهما من جنس واحد ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فهي تشتمل على الذكور، وتشتمل على الإناث، وتشتمل على الذكور والإناث، فيكون كل جنين حرام. وهذا الرد هو إبطال قولهم بأن ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، ومحرم على أزواجنا ﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ وقال تعالى ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قال الزجاج: فسروا ما حرمتم بعلم، أي: أنتم لا علم لكم، لأنكم لا تؤمنون بالكتاب، ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾ أي هل شاهدتم الله قد حرَّم هذا، إذا كنتم لا تؤمنون برسول؟[١]

ولمن استقصى أسلوب المحاجة في كتاب الله تعالى، ودقائق الفصل فيها، يخرج بقواعد وأصول للمناظرة، وكذلك يتحصل على دقائق علمية في الأسلوب وفي المنهجية، ويستخلص منها أخلاقيات المناظرة، وأخلاقيات البيان، وآداب التعامل ومخاطبة المخاطب، وكيفية تحقيق الأهداف، إذ لم يكن المقصود من محاجتهم تحقيق الانتصار، بل إقامة الحجة عليهم، ليعودوا إلى رشدهم.

ثم يبين الله تعالى مقدار وحجم جرم من افترى على الله الكذب ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فلا أحد أعظم ظلماً وجرماً ممن افترى على الله كذباً، فيحرم ما أحل الله تعالى، ويحل ما حرم الله تعالى، ويقول: هذا حكم الله تعالى، فينسب تحريمه وتحليله الكاذب إلى الله عَزَّ وجل، ليضل الناس بجهله وكذبه وافترائه الذي لم يرتكز على علم، بل على جهل وضلال. وفي قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ سؤال استنكاري، يتقرر به: أنه ليس هناك جرم أعظم من أن يفتري الإنسان على الله تعالى فرية تحريم أو تحليل أو بغيرها. ثم يقول هذا من عند الله تعالى. فينقل أذى افترائه لغيره، فيصبح أذاه أذاً متعدياً إلى الغير ﴿ لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيتسبب في إضلال

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٩٥)

غيره من الناس، فإن عقابه الذي يستحقه هو عدم الهداية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن عقاب الله تعالى للظالمين الذين يفترون عليه الكذب هو أنه لا يهديهم، فلا يتوفقون للهداية، مما يدل على أن بعض الذنوب أعظم من بعض، وأن بعضها يحجب به الظالم عن نفسه الهداية والتوفيق، وفي هذا تحذير وتوبيخ وتهديد لهم، وتحذير لغيرهم من أن يسلكوا مثل مسلكهم.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

يأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يحاجج المشركين المفترين على الله الكذب، فيما جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، ولشركائهم من الأصنام نصيبا، وقولهم: هذا محرم على النساء، وحلال على الرجال، وغير ذلك مما حرموا افتراء وزوراً على الله تعالى. فقال عزَّ وجل ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ قل لهم لا أجد شيئاً فيما أوحاه الله تعالى إليَّ مما حرمتم، فلا يوجد أي طعام مما حرمتم محرم على طاعم يطعمه من المطاعم، مما يعني أنكم تكذبون على الله تعالى، فلو أنه حَرَّم شيئاً مما افتريتم، لوافق ما حرمتم تحريم الله تعالى، فإذاً أنتم تفترون على الله الكذب، مما يفيد أن التحريم والتحليل هو لله تعالى. واستثنى من عموم ما أحله الله تعالى: الميتة والدم المسفوح، ولحم الخنزير وما ذُبح لغير الله تعالى، والتي يحلونها لأنفسهم افتراء على الله تعالى ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ فالمستثنى من عموم ما أحل الله تعالى الميتة: التي ماتت بغير تذكية شرعية، والدم المسفوح، وهو: المهرق، أي: الدم الجاري المنصب من البهيمة، فيحرم أكله، مما يفيد أن ما خالط اللحم فلا يتصف بذلك، فيكون حلالاً، ومن المحرمات لحم الخنزير ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ وهو الحيوان المعروف ﴿ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: أي فإن هذه الأشياء الثلاثة، رجس،

أي: خبث، نجس، مضر، حرمه الله لطفاً بكم، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث[١] والرجس هو: النَّتن، والقذر، وكل شيء يستقذر فهو رجس، وهو بمعنى النجاسة[٢] أي فهذه المذكورات: هي نجسة ومستقذرة لخبثها، وكل نتن قذر نجس فهو مضر، فيكون التحريم هو لطف ورحمة من الله تعالى، لما فيها من الضرر على الإنسان، وسواء كانت المذكورات كلها أو الخنزير، فجميعها متصفة بالرجس ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وفي معاجم اللغة: أن أصل الفسق خروج الشيء من الشيء[٣] فيكون الفسق خروج عن ما يجب من الطاعة إلى المعصية، وما ذبح لغير الله تعالى فهو فسق، لأنه خرج عَمَّا يجب أن يكون لله تعالى إلى غير الله عَزَّ وجل. وهذا الفعل هو توغل في الحرام، لأنها تذبح تقرباً لغير الله تعالى من الأصنام، ويذكر عليها غير اسم الله تعالى.

ثم قال تعالى ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن من رحمة الله تعالى بكم أن رفع عنكم حرج التحريم حال الاضطرار، فمن خاف على نفسه الهلاك من الجوع، فلم يكن أمامه إلا الموت أو الأَكل منها، فإنه مرفوع عنه حرج التحريم، فأباح الله تعالى له الأَكل بقدر الحاجة، ولذلك قيده عَزَّ وجل بثلاثة قيود: الأول: حالة الاضطرار ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ والقيد الثاني: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي غير راغب فيها، فلولا أنه مضطر لها لما أَكل منها، والقيد الثالث: ﴿وَلَا عَادٖ﴾ أي: غير متجاوز للحد، فلا يأكل أَكثر مما يرفع عنه الاضطرار. ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فقد غفر الله تعالى لمن هذه حاله، فلا يؤاخذه بما فعل، ويُفهم من ذلك أنه بغير هذه الشروط يحرم عليه الأَكل منها بتاتاً. وهذه المحرمات هي جزء من محرمات أخرى استوفاها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا الاستثناء من الله تعالى يدل على رحمة الله عَزَّ وجل، ويدل على عناية الإسلام بحفظ النفس، وعلى دقة أحكام الله تعالى لتحريها الاحتمالات التي قد يتعرض لها الإنسان، فاستوفتها على أَكمل وجه، مما يفيد ويعلم المؤمنين منهجية الاستدراك عند التنظيم والتوجيه والتخطيط، وتحرير اللوائح والأنظمة العامة، فقد يحدث في أمور الإنسان ما يخرج عن إرادته، وكذلك منهجية الدقة في القيود والاشتراطات التي أباح الله تعالى بها الأَكل مما حرمه. فاستوفت شريعة الله تعالى الدقائق التفصيلية، التي يتأكد بها أن هذا لا يمكن أن يكون إلا من الله تعالى، بل إنها من الإعجاز الفقهي. مع دقة الإعجاز في البيان والأحكام.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٩/٢)

(٢) الفيومي، المصباح المنير (٢٩٨/١)

(٣) المرجع السابق (٦٤٧/٢)

ثم يبين الله تعالى ما خص اليهود به من التحريم، وذلك معاقبة لهم، ليتبين أن التحريم لله وحده ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ فحرم على اليهود كل ذي ظفر، وهي البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ وحرم عليهم من البقر والغنم شحومها إلا ما حملته ظهور البقر والغنم من الشحم، فَعَلِقَ بها، وكذلك الحوايا. وهو: ما تحَوّى من البطن ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ أي: علق به، فهو حلال ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ فهذا التضييق إنما فعلناه بهم، وألزمناهم به مجازاة على بغيهم، ومخالفتهم أوامرنا ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ أي: وإنا لعادلون فيما جزيناهم به، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به، من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه[1]

ثم يبين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم منهجية التعامل مع من كَذَّبَهُ من أهل الكتاب والمشركين ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ فإن كذبوك فأخبرهم بقولك لهم ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ فجمع الله تعالى لهم بين الترغيب في رحمته، وبين الترهيب ببأسه الذي لا يُرد عن القوم المجرمين، الذين تعالوا عن الحق وعادوه. وقد جمع النص الكريم بين فيض الله تعالى الواسع من رحماته ومغفرته لمن أطاع وتاب وأناب إليه سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ وبين شدة العقاب من بأسه الذي لا يحول دونه حائل لمن تكبر وتعالى وتمادى في المعصية، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ فإن عقاب الله تعالى للمجرمين لا يدفعه شيء أبداً، لانهم قد استحقوا ذلك.

ومع هذا التهديد الذي يفيد الزجر والوعيد فقد سبقه قوله عَزَّ وجل ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ فرحمته عَزَّ وجل تستوعب المجرم وجرمه بحلمه عليه، ولا يعجزه شيء عَزَّ وجل عن العقاب بالبأس العظيم، وفي هذا استدفاع لهم للتصديق، وإزالة لما يمكن أن يكون في صدورهم من الخوف أن لا يغفر الله تعالى لهم تلك العظائم من المعاصي والافتراء على الله تعالى، فرغبهم بأجمل وأوسع معاني ودلالات الترغيب.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٢/٢)

وفي نفس الوقت أرهبهم بقوة عقابه المتصف بالشدة العظيمة. وهذا من رحمته عَزَّ وجل بالعباد حتى العصاة، فالحمد لله على عظيم حلمه ورحمته.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما سيقوله المشركون ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ فسيقول المشركون أن أعمالهم الشركية بموافقة الله تعالى، فلو أنه لم يرض بذلك لما حصل لهم ما هم عليه، وهو قادر على تغييرنا وتغيير آبائنا، بإلهامنا وإلهام آبائنا الحق، فيحول بيننا وبين ذلك ﴿ وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ ﴾ فيمنعنا الله تعالى عن تحريم ما حرمنا، فيما لو كان تحريمنا لم يوافق مراد الله تعالى، فَرَدَّ اللهُ تعالى عليهم، بأن منهجهم هذا هو نفس منهج من كان قبلهم ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فبهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأرسل عليهم رُسُلَه الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام(١) ولو كان كلامهم صحيح فإنه بمثله يحتج كل عاص بمعصيته، وكل ظالم بظلمه، وكل فاسد بفساده، وقال كل واحد من هؤلاء لو لم يكن الله تعالى راض عن فعلي لمنعني، فتصبح أمور الناس وحياتهم فوضى لا ضابط لها، ولكن رد الله تعالى عليهم بمحاجة قوية ﴿ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ ﴾ قُل لهم يا أيها النبي: هل عندكم على ما تقولون دليل وبرهان من الله تعالى، فتخرجوه وتبينونه لنا، حتى نتبينه؟ وهنا يظهر عجزهم، لأن نهجهم هو محض كذب وافتراء، فلا يستطيعون على شيء من ذلك، مما يبين ويؤكد أنهم يتبعون أهواءهم المبنية على الوهم ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ فمنهج أعمالهم الشركية قائم على الظن، الذي يمثل ويعبر عن الوهم، وكذلك قائم على التخرص ﴿ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ أي: أنتم تبنون جهلكم على الظن والتخرص؛ الذي هو

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٤/٢)

التخمين والوهم، القائم على الكذب الذي هو ثمرة التخرص. وهذا يبين أن العلم الصحيح يقوم على الحقائق والأدلة، وأن الوهم والتخرص والظنون ليس لها منزلة في العلم.

فقل لهؤلاء المشركين المكذبين بهذا القول ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ فإن لله تعالى الأدلة البالغة، التي بلغت بوضوحها مبلغ البيان الذي لا شك ولا جدال فيه، بأنه الله الواحد الأحد، رب كل شيء ومليكه، فلا شريك له في ملكه، وأن الخلق خلقه، تحت قهره وسلطانه ورحمته، وأنه أرسل الرسل بالحجج المعجزة، وأنزل الكتب التي تبين الحق وتهدي إليه، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: يعني: فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله، فإن لله الحجة البالغة عليكم[1] فقد جاءكم الرسول، ومعه الكتاب، وظهرت حجته، فلماذا لا تتبعونه، وفق ما أراد الله تعالى ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهذا أيضاً رد عليهم في بيان قدرته وإرادته سبحانه وتعالى، بأنه لو أراد إلزامكم بالهداية لألزمكم بها حتماً وقهراً، ولم تستطيعوا الخروج عنها، بل لألزم الجميع بالاهتداء، ولما استطاع أحد أن يخرج عن هدايته، ولكن جعل للإنسان إرادة؛ حتى تتبين الحكمة، وتتبين مشيئته عَزَّ وجل، فإن الله تعالى جعل لكل إنسان عقلاً يعقل به، فيعرف الضار من النافع، والخير من الشر، وجعل لكل إنسان إرادة واختيار، فيختار ما يشاء، وأنه سبحانه وتعالى بث آياته في كل شيء، لتدركوا بها عظمة الله تعالى ووحدانيته، ففي منامكم بالليل والنهار آية، وابتغاؤكم من فضله آية، وظهور الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار آية، وما أنبت من النخيل والأعناب آية، ثم أرسل الرسل، وأنزل الكتب، حتى يُؤخذ كل أحد بجريرته، وبطاعته، فيكون لكل امرئ ما اكتسب من خير أو شر. فلا حجة لكم ولا عذر لكم ولا لغيركم، بل إن الحجة قائمة عليكم وعلى كل من سلك مسلكهم. فيكون في ذلك إبطال لاحتجاجهم على معصيتهم بأنها بإرادة الله تعالى.

ومن الاستنتاجات البديعة ما ذكره الزمخشري رحمه الله تعالى: فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله تعالى يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئة الله تعالى، فتُوالُوهُم ولا تعادوهم، وتوافقوهم ولا تخالفوهم[2]

وتستمر محاجة الله تعالى لهم، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ قل لهم: هاتوا شهودكم الذين يشهدون أن الله تعالى حَرَّم عليكم ما زعمتم من التحريم، والشهداء لا بد أن يكونوا معروفين بالصدق والأمانة، فأنى لهم ذلك، بل هو مستحيل

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٧٥/٢)

(٢) المرجع السابق (٧٥/٢)

عليهم، فإن وجدوا أحداً فهم مثلهم كاذبون ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ فإن شهد بعضهم لبعض، فأتوك بشهود كذباً وبهتانا فلا تصدقهم، فإنهم كاذبون ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي: لا تصدقهم، قال مجاهد رحمه الله تعالى: هذه الآية جواب قولهم: إن الله حرم البحيرة، والسائبة، قال مقاتل: الذين يشهدون أن الله حرم هذا الحرث والأنعام ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ أن الله حرَّمه ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي لا تصدق قولهم[1] لأنه لن يشهد معهم على الكذب إلا جاهل، أو مثلهم كاذب، كما أن في تكذيبهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن المؤمنين إثبات لكذبهم، وإثبات أن شهودهم كاذبون مثلهم، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ضد من شهد معهم ولهم. وفي قوله تعالى ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أكبر دليل على أن من شهد لهم أنه كاذب مثلهم، فليس أعظم من الله تعالى شهادة. فيكون النهي ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ هو تقرير كذبهم قبل إتيانهم بالشهود، ويؤكده كذلك النهي عن اتباع أهوائهم ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ فلا تتبع هؤلاء المتصفون بهذه الصفات من الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى، وعدم الإيمان باليوم الآخر، وبعدولهم عن عبادة الله تعالى إلى الشرك، فلا تتبع أهواءهم الباطلة، وقد أثبت الله تعالى لهم ما اتصفوا به من صفة الأهواء والانحراف. وهذا تقرير وتحذير من الله تعالى للمؤمنين من الانخداع بهم وبأهوائهم المنحرفة، وبمن شاكلهم. وكذلك تحذير لهم مما هم عليه من الكفر.

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٠٠)

يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء الذين عدلوا عن توحيد ربهم إلى الأوثان والأصنام، وحرموا ما لم يحرمه الله تعالى، بأن يأتوا ليقرأ عليهم كلام الله عَزَّ وجل ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ قل لهم: تعالوا أقرأ عليكم ما حرم ربكم عليكم، وقد بدأت الآية الكريمة بصيغة النداء ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ الذي يفيد انهضوا وتقدموا وأقبلوا عليَّ؛ لأتلو عليكم وأُسْمِعُكُم الذي حرمه ربكم عليكم فعلاً ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بما يفيد: أخبركم بما حرمه ربكم، وليس الذي حرمتموه من عند أنفسكم. فأفاد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أسمعهم هذه الآيات التي اشتملت على هذا التحريم. و

بدأ تبارك وتعالى بأعظم المحرمات، وهو الشرك ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وهو أن يجعل المشرك نداً لله تعالى وهو الذي خلقه، فتجعلون الأصنام والأوثان معبودات لكم؛ وتذرون توحيد وإفراد الذي خلقكم، فانتهوا عن الشرك، واصرفوا العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، ومن فوائد البيان في كلمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أن تعيينها في السياق أعطى دلالة دقيقة، فقد أورد ابن الجوزي رحمه الله تعالى في دلالتها: أنها إغراء، أي: فوجب عليكم أن لا تشركوا.[1] وأسلوب الإغراء، يفيد حث وتنبيه المخاطب على أمر يلزمه تركه والابتعاد عنه. وهو الشرك وافتراء الكذب في التحريم والتحليل، وعموم التشريع، ولزوم الحق بالمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم ثَنَّى عَزَّ وجل ببر الوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانا، والإحسان هو: الإنعام، بل هو أعم من الإنعام، وهو فوق العدل، لأن العدل: أن يأخذ ما له، ويعطي ما عليه، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له. مما يدل على أن حق الوالدين عظيم جداً، وأنه ليس هناك منهج غير منهج الله تعالى يأمر بهذا الإحسان للوالدين. ثم يقول تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر على أنفسكم من الإنفاق عليهم، لأنه كان في الجاهلية من يقتل ابنته خشية العار، ومن يقتل ولده خشية الفقر. فقرن تبارك وتعالى بين النهي وبين بيان علة القتل، وهو الإملاق، أي: الفقر، لأن في ذِكْرِ العلة بيان وتشخيص للدوافع التي تدفعهم لقتل أولادهم صغاراً، ثم يستدفعهم الحق تبارك وتعالى إلى ما يعالج خوفهم من الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فنحن المتكفلون برزقكم ورزقهم، فلستم أنتم الذين ترزقون أنفسكم، بل الله هو الذي يرزقكم، وبالتالي هو الذي سيرزقهم كما رزقكم. فلو أن الإنسان هو الذي يرزق نفسه لما قتل هؤلاء أولادهم، لأنهم يزيدون في الرزق، ولكن هذا الخوف دليل على أن مصدر

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٠٠)

الرزق لهم من غيرهم، وهو الله الغني الْمُغْنِي. فلا يستطيعون زيادة أرزاقهم من أنفسهم ما لم يأذن به الله تعالى.

والمتأمل فيما لو كان الإنسان هو الذي يرزق نفسه لفسدت الدنيا، لأن كل أحد سوف يستغني عن غيره فيما لو استغنى، وبالتالي فلن يعمل أحد لأحد، ولا يمكن بهذا الاستغناء أن تستقيم أحوال الناس. وبالتالي فإن من حكمة الله جَلَّ جلاله أن جعل لكل أحد عند غيره حاجة في الأمور والأشياء التي لا يعرفها ولا يحسنها، في حين أن غيره يجيدها ويحسنها. وقد جعل الله تعالى قدرات الناس وميولهم متباينة فيما يحسنون، حتى يحصل التكامل بينهم في قضاء حاجات بعضهم لبعض.

وأيضاً هناك وجه آخر، وهو لماذا لا يرزق الإنسان نفسه إن كان الرزق بيده وليس من عند الله تعالى؟ فعليه أن يعطي نفسه كلما تشتهي وتريد، ولما قتل المشركون أولادهم خشية الفقر. مما يؤكد ويبين أن هناك مدبر لأمر الرزق حتى تستقيم أمور الحياة بين الناس، فإن الله تعالى هو الرزاق الكريم الحكيم سبحانه وتعالى، فيدبر أرزاق الناس بما يحقق التكامل والتعاون بينهم، وذلك بتوفيقهم لأسباب الرزق، وتيسيره لهم، بالقدر الذي تقتضيه حكمته في عباده عَزَّ وجل، وبما ينصلح به شأنهم، مما يؤكد ويبين أن الذي يوفق للرزق، ويفتح خزائنه هو الله تعالى، فابتغوا عند الله الرزق.

وقد ذكر الله تعالى حق الأولاد بعد أن ذكر حق الوالدين ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ ليفيد الترتيب، والتنظيم، وقبلها ذكر حقه سبحانه وتعالى؛ المتعلق بالتوحيد، وعدم الإشراك به ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ليبين للناس أن أعظم الحقوق هو حق الله الخالق، وذلك بطاعته، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم حقوق الوالدين الذين هم أصله، ثم حقوق الأولاد الذين هم فروعه.

وكل كلمة تتقدم أو تتأخر في كتاب الله تعالى تمثل دقة للبيان في تحقيق مقاصده ومراده، ومن ذلك تقديم ذكر رزق الأولاد في سورة الإسراء على رزق الوالدين، بينما في هذه الآية من سورة الأنعام قدم رزق الوالدين على رزق الأولاد. قال ابن كثير رحمه الله تعالى عَمَّا جاء في سورة الإسراء من تقديم رزق الأولاد على رزق الوالدين ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فهو على الله، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلا ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ قال تعالى ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ لأنه الأهم ههنا، والله أعلم[1] ففي قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/١٩٦)

﴿ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ أن الفقر واقع بهم، فيخشون أن يزيد فقرهم بزيادة كثرة الولد، فقدم سبحانه وتعالى رزقهم على رزق الأولاد ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فإن فعل القتل هنا منهم واقع، لفقر واقع بهم، فكان الخوف منهم حاصل، فالعلة خوفهم على ذواتهم من مزيد الفقر بسبب زيادة الولد، فقدمهم بما يزيل خوفهم على أنفسهم من الفقر ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ بينما الآية التي في سورة الإسراء عالجت خوفاً متوقعاً، وهو الخشية من وقوع الفقر ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فكأن حالهم هو: لولا الخشية والخوف من حصول الفقر لما قتلوا أولادهم، وكأنه إذا وُجِدَ من يتكفل بأرزاق الأولاد فإنهم يتوقفون عن قتلهم، فتكفل الله برزقهم كرماً، وعطف ارزاق الوالدين على رزق أولادهم ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ولذلك يتفاءل المؤمن بمزيد الرزق مع مزيد الولد، فهذه الدقة البيانية تدل على أن هذا التقديم والتأخير له دلالة دقيقة، فبحسب حال الموقف والقضية. مما يفيد أنه لا يمكن أن يكون هذا البيان الدقيق إلا من مصدر بلغ الإعجاز البياني واللفظي فيه مبلغاً متناهياً في دقته ودقة تراكيب ألفاظه وعباراته. فإنه كلام الله سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي: ابتعدوا عنها بعداً لا يقربكم منها، بما يفيد قوة التحذير، والمبالغة في الخوف من أثرها وإثمها، فالنهي استبق الوقوع فيها إلى مجرد الاقتراب منها، مما يفيد أن قوة التحذير تدل على قوة الأثر، وقوة العقوبة، ومن دقة البيان أن قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ ولم يقل لا تقترفوا الفواحش، لأن اقترافها هو تحصيلها، ولكن المأمور به هو أبعد من ذلك بكثير، وهو البعد عن بوعثها، وأسباب تحصيلها، لتكونوا في منأى عنها، مما يفيد أن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، كما جاء في الحديث.

والفواحش: اسم جامع لكل ما تعاظم قبحه من الأفعال والأقوال، ومن ذلك الزنا والخمر، فهما أظهر أفعال الفحش ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي: ما ظهر أمره، وما كان مستتراً ومستخفياً، أي: جهرها وسرها، ويدخل في ذلك ما كان من أعمال الجوارح، وما كان من أعمال القلوب. فحوت دلالة ﴿ مَا ظَهَرَ ﴾ ودلالة ﴿ وَمَا بَطَنَ ﴾ جميع أنواع وأحوال وحالات إتيان الفواحش، وحوت كلمة الفواحش، جميع القبائح المتعاظمة، وأنها من المعاصي العظيمة، وهذا من دقائق البيان.

ثم قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ فلا تقتلوا شيئاً من الأنفس التي حرمها الله تعالى ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلا بما يوجبه من الحق؛ الذي هو إذن الشرع الحكيم، وهو ما أباح قتلها به شرعاً. مما يدل على أن الأصل هو حفظ النفس، ومنع قتلها، والحيلولة دون ذلك، وفي هذا تحصين للنفس من الإهدار والتعدي، فيتحقق بهذا الحكم الأمن العام للمجتمع، والأمن الذاتي للفرد، من أن يعتدي عليه أحدٌ.

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى ما أوجبه، ونهى عنه، وبينه في هذه الآية الكريمة ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فذلكم مما تقدم مما تلاه عليكم فإنكم مُوصُون بلزوم إنفاذه والعمل بموجبه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فلعلكم تفقهون ما أوصاكم به؛ وتتدبرونه وتتمسكون به وتنفذونه، وكلمة ﴿ وَصَّىٰكُم ﴾ كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: تعني الأمر المؤكد المقدور[1] فهذا مما أوصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه.

فاعقلوا ذلك بالفهم والتطبيق، ولا تتهاونوا فيه. فبهذا يحث تبارك وتعالى العباد على أن يتعقلوا ما بينه لهم، فيؤمنوا ويصدقوا ويعملوا به. وجملة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ بيان يتحقق لكم به الخير فاعقلوا ذلك بالفهم والتطبيق، ولا تتهاونوا فيه. فإن المطلوب والمتوقع منكم تجاه هذا البيان العظيم، أن تدركوا هذا الفضل فيحصل منكم التصديق والإيمان. ودلالة ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تفيد التعليل، فهذا الإنعام بالبيان التشريعي يعلل لكم وجوب تَعَقُّلَهُ، فإن تعقلتم ما بيناه لكم فقد فزتم بالخير. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه بهذا الحث والترغيب إلى فهم ما يجب عليه من التصديق، من خلال أسلوب استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم، ونحو القيام بما يجب عليه. كما أفادت دلالة ﴿ وَصَّىٰكُم ﴾ بوجوب لزوم الوصية، والتي تعطي دلالة العناية من الموصي سبحانه وتعالى بمن وصاهم. فلا يسعهم إلا الأخذ بها، والعناية بتطبيقها.

وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أن هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله. وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس، ويبينوا لهم ما حرم الله عليهم مما حل لهم... وقال كعب الأحبار: هذه الآية مفتاح التوراة[2]

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٨٨)

(٢) المرجع السابق (٧/٨٦)

ثم أوصى سبحانه وتعالى بمال اليتيم خيراً ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ فابتدأ التوجيه الكريم بعدم التعرض لمال اليتيم إلا بما فيه مصلحته وصلاحه وحفظه، وتثميره وتكثيره، فيشمل بذلك جميع أوجه النفع، ولذلك جمعت كلمة ﴿ أَحْسَنُ ﴾ شرط التصرف في مال اليتيم، فاستوعبت جميع أوجه النفع، لتشمل مصادر ومجالات النفع عبر تغير الأحوال والأزمان، والوسائل والأسباب، فلم تُقيده بوسيلة محددة، أو بمجال محدد، ليعم حكمها، وتستوعب مساحة دلالتها تعدد وتنوع أسباب النفع، ومجالاته ومستجداته التي تتجدد بتغير الأحوال والأزمان، وهذه من دقائق الأحكام الفقهية وإعجازه، وكذلك من دقائق الإعجاز البياني باختيار اللفظة المستوفية لما لا يحصيه غيرها، فتعطي الفقيه والوصي والناظر على مال ومُلك اليتيم المساحة الواسعة التي ينصلح وينمو بها مال اليتيم.

وجملة ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ تفيد حصانة مال اليتيم من التصرف فيه لغير مصلحته، كمصلحة الولي أو الناظر أو غيره، وتفيد أن الأصل في مال اليتيم هو عدم التصرف فيه، بل البعد عن الاقتراب منه، أو التفكير في التصرف فيه لغير مصلحة اليتيم. ودلالة ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ﴾ تفيد الحذر والتحذير من الاقتراب منه، بل تؤكد الابتعاد عنه، أو التفكير في شيء منه؛ إلا على سبيل مصلحة اليتيم، ومصلحة المال. فجملة ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ﴾ تحذير وقائي مؤثر. ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي: احفظوا ماله بالتي أحسن حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله.

والأشد هو: بلوغ اليتيم مبلغ النكاح، وحصول الرشد، فإذا بلغ ذلك ادفعوا إليه ماله، فصفة الأشد تبلغ بتكامل صفتين كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ الأول: بلوغ سن النكاح، والثاني: الرشد. والرشد هو: الاستقامة على طريق الحق[1] وهو الصلاح، وإصابة الصواب، وهو خلاف الغي والضلال[2] مما يفيد دقة العناية الشرعية باليتيم وماله، ودقة الفقه وإعجازه المتناهي في دقائق توصيفه في هذا المقام لحال اليتيم، وحال التصرف في ماله، وهذه الدقة كما أنها تبين عناية الله تعالى باليتيم وماله، فإنها كذلك تتضمن إعجازاً فقهياً، وكذلك فيها إعطاء التقدير الكافي والكامل للحكم على اليتيم، بأن يبلغ الاحتلام، وأيضاً أن يستوفي حُسن التصرف في ماله، احترازاً من الاغترار بقوة البدن، وظهور مظهر الرجولة البدنية، وخفاء القدرة على التصرف، بل لا بد من ظهور القدرة

---

(١) الفيروزي آبادي، القاموس المحيط (١/٢٩٤)

(٢) الفيومي، المصباح المنير (١/٢١٠)

على التصرف بما يحقق النفع، وخلوها من الجهالة والسفه، وهذا من قوة الدقة وعمق التحرز لحفظ مال اليتيم. مما يعلم المؤمن كيف يحرر اللوائح والأنظمة، وضبطها بالاحترازات الضابطة لها.

ويستدعي ذلك أن يقوم الوصي والقائم على أمره بتدريبه وتعليمه على ما يعينه على حصول الرشد واندفاع الجهالة والسفه، حتى ينتفع بماله الانتفاع الصحيح، كما يدل هذا التوجيه الكريم على عناية منهج الله تعالى بالمال، وحُسن التصرف فيه، إذ ربط الله تعالى تمكين اليتيم من حقه المالي بحصول الأشد. وقد أورد الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى قول سعيد بن جبير: يعني صلاحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم، وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري، وغير واحد من الأئمة، كما قال الفقهاء: إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه[١] ومن جليل الفوائد أن المظهر قد يختلف عن المخبر، فقد يظهر من البدن القوة والسلامة الصحية والجسمية، وبلوغ مبلغ الرجال، ولكن هناك قوة العقل التي مظهرها في التصرف الحكيم.

ثم انتقل توجيه الله تعالى إلى المكاييل والأوزان، وما فيها من الحقوق بين الأطراف ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: يجب عليكم استيفاء الكيل إذا كلتم، واستيفاء الوزن إذا وزنتم، ولا تنقصوا منه شيئاً، وهذا التوجيه الكريم من الله تعالى حصانة وتحصيناً للوازن وللموزون له من حصول الإثم والحيف، فأمر الله تعالى بوفاء وإتمام الكيل والموازين، وعدم إنقاصها، مما يفيد أن الأمر للوجوب، وأن الإخلال به محرم، كما أوضح سبحانه وتعالى طريقة الاستيفاء بأن تكون ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو العدل. وهذا يشمل الموزون بالميزان، وما يكال بالأكيلة، وما يقاس بالمقاييس في الأطوال، ونحوها ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا يكلف الله تعالى النفس البشرية إلا بما هو من مقدورها في تحري ما تستطيع من العدل. وهذا يدل على مراعاة هذا الدين لقدرات وطاقات الإنسان، فكلفه عَزَّ وجل بما هو من مقدوره واستطاعته في تحقيق ما أوجب الله تعالى عليه من العدل، وأما ما خرج عن قدرته، فإنه مرفوع عنه، فلا يُؤاخذ به. وكل إنسان هو حكم على نفسه في ذلك، ثم إن الله تعالى عالم بحال كل أحد، وبما هو في نفسه، وبما قَصَدَهُ وما لم يقصده، وبما كان خارجاً عن قدرته ووسعه، وما هو من مقدوره ووسعه. فسبحان من لا تخفى عليه خافية.

ثم أمر سبحانه وتعالى بالعدل في القول ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ فإذا قلتم وتكلمتم وشهدتم أو حكمتم فعليكم بقول الحق ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يقول الشوكاني رحمه الله تعالى: أي إذا قلتم بقول في

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٣/١)

خير أو شهادة، أو جرح أو تعديل، فاعدلوا فيه، وتحروا الصواب، ولا تتعصبوا في ذلك لقريب، ولا على بعيد، ولا تميلوا إلى صديق؛ ولا على عدو، بل سووا بين الناس، فإن ذلك من العدل الذي أمر الله به[١]

﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم، فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا، ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم، ولا يحملنكم قرابة قريب، أو صداقة صديق، حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه[٢] ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ ويشمل عهد الله تعالى ما عهده إلى الخلق، وأوصاهم به[٣] قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمر به، ونهى عنه، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك هو الوفاء بعهد الله تعالى[٤] وهو عام في جميع ما عهده الله إلى عباده، وقد نسب سبحانه وتعالى العهد إليه ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ تعظيماً له، ليفيد أيضاً تأكيد لزوم الوفاء به، والتحذير من نقض العهود، والإخلال بها. ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ فذلكم الذي أمركم به، وأوصاكم بالعمل به، أنفذوه كما أمركم به ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون بذلك وتعملون به.

ولعلكم تحافظون على مداومة التذكر لما أوصاكم ربكم به، وذلك بناء على ما أوضحنا لكم وبينا. فهو تعليل لما يجب عليكم أيها العباد من التذكر المستمر. أي: لعلكم تحافظون على مداومة التذكر لما أوضحنا وبينا لكم، وأرشدناكم بهذه الآيات. لكي تداوموا على التذكر لما بيناه وشرحناه لكم، فتعملوا بما جاءكم من الحق الذي أنزلناه على رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، وتستمروا عليه بتذكره، والأخذ به. بما يفيد تأكيد الالتزام به، وعدم مفارقته ونسيانه. ليكون محل العناية والاهتمام منكم بالطاعة والامتثال.

فاشتمل البيان من حيث أسلوبه على قوة السياق أولاً، ثم التعليل الذي يدفع النفس للإفادة منه، وأخذه بجد واهتمام. حتى يندفع به إلى الطاعة والامتثال. كما أفادت ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ أن المتوقع والمطلوب منكم تجاه هذا الذي بيناه لكم، بأن تتأملوه وتذكروه، فتقروا بالطاعة والامتثال لربكم، بناء لعلى مَا جاءكم من الحق.. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه لما يجب عليه، من خلال استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم، ونحو القيام بما يجب عليه.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٧٨/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٦٦/٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٢/٣)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٦٦/٩)

ثم يبين عَزَّ وجل عظيم منهجه وما وصى وأمر به، وما نهى عنه وزجر، فقال تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ أي: إن هذا طريقي ومنهجي الذي هو دين الإسلام القويم، الذي لا عِوج فيه. فاستهلت الآية الكريمة بوصف صراط الله تعالى بأنه مستوياً لا عوج فيه، قويماً لا انحراف فيه عن الحق، قال الإمام القرطبي وغيره: الصراط: الطريق، الذي هو دين الإسلام ﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾ مستوياً، قويماً، لا اعوجاج فيه[١]﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: فالتزموه، باتباع هذا الصراط المستقيم.

وفي دلالة الأمر بالمتابعة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ ما يقتضي السير خلفه، وأن يُقَدَّم ويتقدم، ولا يُقَدَّم عليه شيء: لا عقل ولا فكر ولا سبيل غيره عليه ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهذا نهي وتحذير من الله تعالى عن اتباع الطرق، فإنها تُفرقكم وتُشتتكم عن سبيله سبحانه وتعالى. فسبيل الله تعالى واحد، وما عداه سُبُل وطرق متفرقة ومتشتتة، ومتعددة، فَيُحَذِّرُ عَزَّ وجل أمته عن كل سبيل غير سبيله من السبل، فإنها تُشَتِّتُكُم وتميل بكم عن سبيله سبحانه وتعالى، لأنها ضلال وبدع، وشبهات وشهوات، فليست هناك سبيل مستقيمة إلا سبيل الله تعالى، الذي هو الإسلام. وفي هذا حصر يتحقق به الفوز والفلاح ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فهذا الذي أوصاكم به، وأرشدكم إليه، وأكده عليكم، وهو صراطه المستقيم الذي يتحقق لكم به الفلاح إن تمسكتم به، وسلكتم مسلكه. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ لعلكم تلتزمون بالتقوى التي تجعلكم تلتزمون بما أوصاكم به، لأن التقوى تُوجب لزوم المنهج، والحذر والخوف من مسلك غيره. فتكون علاقة التقوى بالمأمور هي علاقة المسلك بالمنهج، الذي يتحقق به النجاة، فإن المنهج إذا لم يلتزم فيه المؤمن بالتقوى، تفلت عنه، والتقوى سياج قوي للمتقين، إذ يجتمع فيها الخوف والرجاء، فيخاف من عدم الطاعة والامتثال، ويرجو النجاة والفوز بالاتباع.

وفي إفراد الصراط ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ دليل على أنه واحد، فإن دين الله عَزَّ وجل واحد: عقيدة وعبادة وتشريعاً، مما يفيد أنها توحد اتباعها المؤمنين. مما يلزم عدم التفرق فيها بالإحداث والاختراع. بل أضاف الصراط إليه عَزَّ وجل ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ بما يفيد عظمته، الموجب اتباعه. بينما ورد سُبُل الآخرين بصيغة الجمع ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لبيان تعددها وكثرتها، لأن لكل

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٩٠)

بعيد عن صراط الله تعالى سبيل مختلف عن غيره، ولكل جماعة سبيل وسبل متعددة. بينما صراط الله تعالى واحد في مصدره، وواحد في منهجه، وواحد في تكامله.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان كمال وتمام ما أنزله الله تعالى على رسوله وكليمه موسى عليه السلام من الكتاب، ليفيد أن الذي أعطى موسى الكتاب هو الذي أنزل على محمد القرآن، فَلِمَا الغرابة، كما أن الذي اختار موسى رسولاً بكتابه التوراة، هو الذي اختار محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن رسولا، قال تعالى ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عن ﴿ ثُمَّ ﴾ إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا، فلما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال تعالى ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ أي: أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علّمه الله قبل نزول التوراة عليه، فالمعنى ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ إي: تماماً على الذي أحسنه الله عَزَّ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٩/٢)

وجل إلى موسى عليه السلام من الرسالة وغيره[١] أي: جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا، وطاعتنا[٢] قال الزمخشري رحمه الله تعالى: أي: تاماً كاملاً على أحسن ما تكون عليه[٣] ثم يبين سبحانه وتعالى المزيد من المدح والثناء على التوراة ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: توضيحاً وتبياناً لكل شيء من أمر الدين الذي أُمروا به ﴿وَهُدًى﴾ يهديهم ويرشدهم إلى الخير، وإلى سبيل الرشاد، لئلا يضلوا ﴿وَرَحْمَةً﴾ ورحمة من الله عَزَّ وجل بهم، ورأفة، لننجيهم من الضلالة، ومن عمى الحيرة[٤] ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فلعلهم بنعمة الرسالة وما تضمنته من بيان الحياة الآخرة، ما يجعلهم يؤمنون، أي: ما يوجب لهم الإيمان بلقاء الله تعالى، فيستعدون لذلك بالطاعة.

فبعد تمام المدح والثناء على نعمة التوراة، وما فيها من الهدى والرحمة؛ ينتقل السياق القرآني الكريم إلى مدح القرآن الكريم والثناء عليه ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد صلى الله عليه وسلم متصف بالبركة ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: بُورك فيه، فجعل الله تعالى فيه البركة، وهي تعني الزيادة، فهو كثير الخير والبركة، وكثير المنافع، وكثير الفوائد، وقد جاء الوصف بالبركة عاماً ﴿مُبَارَكٌ﴾ فاستوفى هذا العموم جميع أنواع البركة، وجميع أوجهها ومجالاتها، ولم تُحصر بركته في شيء محدد، بل عاماً ليكون نفعه أيضاً عاماً، فيكون أخذه بركة، والاهتداء به بركة، وقراءته بركه، وحفظه بركة، وللمريض بركة، وفي تعليمه بركة، ودارسته بركة، وتشريعه بركة، وتطبيق أحكامه بركة، وتفهمه بركة، فلا تُعد ولا تحصى جزئيات بركة القرآن الكريم. ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فاعملوا بما فيه، والتزموا التقوى، فلعلكم بنعمة اتباعه والتزام التقوى تحصل لكم الرحمة، وتنجون من عذاب الله تعالى، وتفوزون برضاه وجناته.

ومن دقائق التوجيه الكريم أن الأمر تضمن الاتباع وتضمن التقوى ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾ ففي الاتباع العمل بما شرع، والتقوى تُحصن طاعتهم واتباعهم من الخلل بالزيادة، أو النقص، ومن كل خلل، لأن التقوى متضمنة للخوف والرجاء، فيخاف من الإخلال بالعمل، ويرجو الكمال وابتغاء الكمال في الاتباع، لينجو من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٩/٢)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٧٩/٢)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٧٨/٩-٦٧٩)

سخط الله تعالى، ويفوز برضاه وجناته. فمن يعمل بدون التقوى تتجاذبه الشهوات والشبهات، مع التهاون في الامتثال، فتنحرف وتميل به عن جادة المنهج، لكن التقوى حاجز وسياج بإذن الله تعالى، لأنها متضمنة للخوف والرجاء، وهما جناح الاستقامة.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى منزلة القرآن الكريم، وقبله منزلة التوراة؛ يقول تبارك وتعالى للمشركين ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ فاتقوا أن تتحججوا بما أنزل على اليهود والنصارى من كتب، وما جاءهم من الرُّسل، فتقولوا نحن لا نعلم عن تلاوتهم ولا نعرف شيئا. وأنه لم ينزل علينا كتاباً فنتبعه، فلم نُؤْمَر ولم نُنْهَ، فليس علينا حجة فيما نأتي ونذر، إذ لم يأت من الله كتاب ولا رسول، وإنما الحجة على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا[1] ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ أي: تقولون: قد كنا عن تلاوة الطائفتين للكتاب الذي أنزل عليهم غافلين، فلا ندري ما فيه، فلا نعلم ما يقرؤون، وما يقولون، لأنه ليس بلساننا، وكنا في غفلة عَمَّا كانوا فيه ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ أو تقولوا لو أُنْزِل علينا ما أنزل على اليهود والنصارى لكنا أفضل وخيراً منهم في قبوله واتباعه والاهتداء بهداه، فقطع الله تعالى حجتهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ فقد جاءكم من الله تعالى حجة ﴿ بَيِّنَةٌ ﴾ واضحة من ربكم على لسان نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فقد تضمنت رسالته سبحانه وتعالى البيان الواضح الفصيح، وكذلك ﴿ وَهُدًى ﴾ وهو البيان الواضح الموضح والمبين للحق، والذي فَرَّق به بين الحق والباطل، فأصبح هادياً للحق والخير والفلاح، ومبيناً للباطل ومحذراً منه، وكذلك ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ لمن عمل به، فيرحمه الله تعالى به في الدنيا والآخرة.

وبعد هذا فليس هناك أظلم ممن كذب بهذا الهدى والحق ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ فليس هناك أقوى وأشد ظلماً ممن يكذب بحجج الله تعالى ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ فأعرض عنها بعد هذا البيان المبين ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾

(١) المرجع السابق (١٠/١٠) ملخص

سيكون جزاء كل من يعرض عن آيات الله تعالى وحججه وبراهينه أسوء وأنكل أنواع العذب وأشده، جزاء لهم على إعراضهم، وصدودهم عن الحق.

ومن دقائق البيان أن أورد الله سبحانه وتعالى ظلمهم بصيغة السؤال الاستنكاري، والتقريري في نفس الوقت ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ فهل هناك أكثر جرأة وتعدياً على الحق ممن كَذَّب بحجج الله تعالى؟ سؤال يستثير العقول والقلوب نحو الحق وقبوله. فلا أظلم ولا أشد ممن تجرأ على مقام الله تعالى فكذب بآياته وحججه وبراهينه. وقد عَظَّم سبحانه وتعالى جُرمهم باستنطاق العقول والأفهام بالسؤال الذي ليس له إلا جواباً واحداً فقط. وهو ليس هناك أظلم منهم. فجملة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تعني هل هناك من هو أكثر ظلماً للحق، وللحقيقة، ولنفسه، ولتوحيد الله تعالى ولجلال ومقام الله العزيز العظيم؟

وورد الظلم وفعله بصيغة ﴿أَظْلَمُ﴾ التي تفيد المبالغة في ظلمهم، أي: بلغ تكذيبهم منتهاه من الفجور والصدود. فإنهم أظلم الظالمين، فليس هناك أظلم ممن يكذب بآيات ربه عَزَّ وجل، مما يفيد أن الذي يقابله من الجزاء الْمُسْتَحَق هو شدة العذاب الذي يوازي ذلك الجرم العظيم، ليعطي دلالة التحذير من الكذب ومن الافتراء على الله تعالى بأي نوع من أنواع الكذب والافتراء، فإن هؤلاء هم أظلم الظالمين. وبما يعني أنه ليس هناك أشد ظلماً من ظلم هؤلاء.

ففي أسلوب الآية الكريمة استثارة العقول إلى التفكر في الحقائق، وفي عواقب تكذيب الحقائق. فهل هناك أشد اعتداء في الظلم ممن اخترع على الله تعالى الكذب، أو كذب بحجج الله تعالى، وصد عنها؟ والجواب ليس هناك أعظم ظلماً من هذا الصنف من الناس. وبالتالي يكون هذا السؤال الاستنكاري تقرير للحقيقة كذلك، فيقرر به سبحانه وتعالى ظلم المفترين على الله الكذب، وكذلك المكذبين بآياته سبحانه وتعالى، فهو استنكار لمن تكون هذه حاله.

فماذا ينتظر هؤلاء الصادين عن حجج الله تعالى وبراهينه ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ فهذا تهديد وتحذير لمن صد عن آيات الله تعالى، فبدأ التوجيه الكريم بسؤال تعجب من حالهم، واستنكار على صدودهم، فهل ينتظرون حتى تأتي أمارات الموت ﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فتأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة، لفصل القضاء بين العباد ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ علامات الساعة، من طلوع الشمس من مغربها، أو ما شاء الله تعالى من الآيات، هل ينتظرون حتى تأتيهم بعض تلك الآيات، وحينها يعلنون الإيمان ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا

يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ يوم تأتيهم بعض تلك الآيات لن تنتفع نفس بإيمانها عند معاينة بعض تلك الآيات من حضور ملائكة الموت، أو يوم فصل القضاء، أو ظهور علامات الساعة، فلن ينتفع من لم يكن مؤمناً قبل مجيء بعض تلك الآيات ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ ولا ينتفع كذلك من لم يكتسب خيراً في إيمانه، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ولا ينفع من كان بالله وبرسله مصدقاً، ولفرائض الله مضيعاً[1] لأن تلك الآيات من آيات الآخرة، فلن ينتفع بها الكافر تلك الساعة، وتلك الحال، ولا الذي جمع بين التصديق وتضييع الفرائض، مما يعني ويفيد أن عليكم أن تستدركوا ما أنتم فيه من سعة الدنيا، بالإيمان والطاعة كما يجب، فإن لم يستجيبوا فقل لهم يا أيها النبي ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ فإن لم تستجيبوا فانتظروا مجيء تلك الآيات، فإنا منتظرون تلك الآيات، لتروا ونرى ماذا سيحصل.

فالانتظار للفريقين، غير أن الفرق بينهما شاسع وكبير، فانتظار الكافرين هو للشر الذي سيقع بهم، وانتظار المؤمنين للخير الذي يجدونه بفضل الله تعالى. فاللهم أحسن خاتمتنا وخاتمة إخواني المسلمين والمسلمات برحمتك وفضلك يا كريم. كما أن في جملة ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ فائدة إضافية، وهي أن المخاطبين من المشركين مأمورون بالانتظار والترقب ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ مما يفيد التحذير لهم من مغبة ذلك الانتظار، وأما فئة المؤمنين فإنهم موقنون بذلك، حيث قالو: ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ إنا مؤمنون بما سيكون من تلك الآيات.

ثم يبين الله تعالى حال من تفرقوا عن دينه الذي جاء به الأنبياء، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فالآية عامة في كل من فارق دين الله تعالى، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، فَشَرعُه واحد، لا اختلاف ولا افتراق فيه، ولكن هناك من فرقوا هذا الدين فجعلوه مللاً وفرقاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أي: جعلوه فرقاً كأهل الملل والنحل، والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسوله صلى الله عليه وسلم مما هم فيه ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ فالصراط المستقيم هو ما جاءت به الرسل بعبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة خاتم الأنبياء

([1]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨/١٠)

والمرسلين صلى الله عليه وسلم، وما خالف ذلك فضلالات، وجهالات، وآراء وأهواء. والرسل برآء منها[١] ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فأوكل الله تعالى أمر وعقاب أهل الضلال والأهواء إليه، إمعاناً في عقوبتهم، وتهديداً وتحذيراً لهم من عقابه سبحانه وتعالى، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في معناها: أي: أنا الذي إليَّ أمر هؤلاء المشركين الذين فارقوا دينهم، وكانوا شيعا، والمبتدعة من أمتك الذين ضلوا عن سبيلك[٢] فمرجعهم إلى العزيز الحكيم ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ ثم يخبرهم الله تعالى عند ورودهم إليه في الآخرة بما كان من فعلهم، ومعصيتهم وصدودهم، ليجازي كلاً بعمله. ويبين هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس على الناس بحفيظ، ولا وكيل، وإنما هو رسول الله تعالى، فمن أطاعه فله الحسنى، ومن عصاه فله العسرى.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

يُفَصِّلُ ويُبَيِّنُ الله سبحانه وتعالى جزاء من أطاع، وجزاء من عصى وكفر ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾ فمن جاء بالحسنة من القول والفعل، الظاهر والباطن مما هو حق لله تعالى، أو حق لأحد من خلقه ﴿ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾ وهذا أقل ما يكون من التضعيف[٣] وهذا من كريم عطائه تبارك وتعالى، إذ يضاعف للمحسن المثوبة، كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (كل عمل ابن آدم يضاعف

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٠٤) ملخص

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٣٦)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٩١)

الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله)[١] وأما السيئة فقال تعالى ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ﴾ فمن جاء بالسيئة فلا يضاعف له الجزاء، وإنما له ما يقابل سيئته فقط ﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ وهذا من عظيم عدله سبحانه وتعالى، إذ لم يظلم أصحاب السيئة، بل كان الجزاء على قدر السيئة، كما أن مضاعفة الثواب لمن أحسن يمثل أعظم الكرم وأجلَّهُ، إذ يعطي على الحسنة أضعافاً مضاعفة، لا يعلم قدرها ومقدارها إلا الله تعالى.

ويأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للذين عدلوا عن دين الله تعالى إلى غيره ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ إن الله تعالى أرشدني ووفقني بهدايتي إلى دينه عَزَّ وجل الذي بعثني به إلى الناس، وهو دين الكمال الذي لا عوج فيه، والذي استقامت شريعته ونهجه بإحقاق الحق وإبطال الباطل، بما يؤكد ويبين أن ما عداه هو اعوجاج، وخارج عن الحق.

ثم وصف الله تبارك هذا الدين بأنه ديناً مستقيماً ثابتاً. فهو امتداد لدين إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فقال عَزَّ وجل ﴿ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فأكد تبارك وتعالى صفة دينه الصراط المستقيم بصفة أخرى، بأنه ﴿ دِينٗا قِيَمٗا ﴾ أي: ديناً مستقيماً ثابتاً. ويزداد التأكيد مع بيان وحدة المضمون ﴿ مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي: دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أبو الأنبياء، فالذي أرسلني الله تعالى به هو امتداد لدين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ حَنِيفٗا ﴾ أي: مستقيما، مخلصاً، متبعاً، يؤمن بكل الرسل، موحداً[٢] ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ولم يكن إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أهل الشرك، فإنه منتفي عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام الشرك، فيثبت الله جَلَّ في علاه لإبراهيم ولدينه التوحيد، فلم يكن عنده أي نوع من الشرك. فالنفي للشرك يثبت كمال الضد وتمامه وهو التوحيد، بإفراد الله تعالى بالعبادة. فجميع تلك الصفات التي يؤكد بعضها بعضا تُظهر وتبين حقيقة هذا الدين واستقامته. فأي بلاغة أعظم من هذا الوصف الذي تتالت فيه المؤكدات بألفاظ ونعوت الاستقامة، فاجتمعت كلها على استقامة هذا الدين العظيم. فسبحان من أعجز عباده بكلامه وبلاغة بيانه، وجميل تراكيب ألفاظه.

---

(١) ابن ماجه، السنن (٥٢٥/١) برقم (١٦٣٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٢/١)

قل يا أيها النبي لهؤلاء العادلين عن عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إنني أصرف عبادتي لله وحده لا شريك له، فصلاتي، وما أذبحه من البهائم، وحياتي كلها في طاعته عَزَّ وجل، وأن مماتي ورجوعي إليه عَزَّ في علاه، فيكون جزائي عليه جَلَّ جلاله. فالذي يملك حياتي هو الله تعالى، والذي مرجعي إليه هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك فإن أفعالي وأحوالي كلها لله وحده ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وبهذا الذي قلت وأعمل به؛ هو الذي أمرني الله تعالى به، فليس من عندي، بل بنعمة الله تعالى وهديه وتوجيهه، مما يعني أنني لن أخرج عَمَّا أُمرت به ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وأنا أول المسلمين من هذه الأمة المحمدية.

فتبين هذه الآية العظيمة غاية التوحيد، وغاية الإخلاص، وكذلك منهج الموحد، ومنهج الطاعة، بأن يتجرد المؤمن في عبادته وطاعته وفي جميع أحواله لله تعالى، حتى نومه يستطيع أن يحتسبه لله تعالى بالنية الصالحة، ليتقوى بنومه على طاعة الله عَزَّ وجل، ويحتسب يقظته بعمل الصالحات، ونيته في علاقاته وتصرفاته وإعطائه ومنعه لله، ووفق منهج الله تبارك وتعالى.

وذُكرت الصلاة من بين العبادات، لأنها رأس العبادات، وجمعت بين الظاهر والباطن ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ففي الصلاة ما يظهر للناس من أفعالها، وما هو باطن من الإخلاص لله تعالى، وغيرها من العبادات تبعاً لها، وفيها ذبح البهائم وإهراق دمها وأكل لحمها، بأنه لله تعالى، فالتسمية باسم الله، والنية لله تعالى، ومنهج التصرف فيها بما يرضي الله تعالى، وكذلك ذكر نسك الذبح باعتبار ما هو شائع من الذبح للأصنام والالهة، وما يذبح للجن وغيرها من أمور الشرك، فتخصيصها بالذكر له مغزاه ومعناه.

ثم بعد هاتين المفردتين يستجمع الأمر في الحياة كلها لله تعالى ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ فحياتي كلها لله تعالى، أي: على منهج الله عَزَّ وجل ومبتغاه. ثم يضيف إليها المآل ﴿ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بأن العودة والرجوع كائن إلى الله تعالى، فلا شيء يجب أن يكون من التصرفات والأحوال إلا لله تعالى، فإن في ذلك استجماع عظيم لكلام للدلالة على كمال الطاعة والامتثال للعزيز الحكيم، الرحمن الرحيم. فسبحان الله العظيم.

ثم يزداد التوجيه والبيان الكريم من الله العزيز الحكيم للرسول صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمعاندين المكابرين. قل يا أيها النبي للعابدين غير الله تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ سؤال استنكار على ما هم عليه من الشرك، وتقرير ما يجب عليهم من توحيد الله تعالى، مع تقرير ربوبيته عَزَّ وجل. فقل لهم

هل أطلب رباً غير الله تعالى؟ في حين أنه هو رب كل شيء ومالكه والمتصرف فيه، فإن كل شيء مربوب لله تعالى، وكل ما يُعبَد من دون الله هو خلق من خلقه، فكيف يتجه العابد لمخلوق مثله، ويترك الذي خلق كل شيء، كيف يصرف شيئاً من العبادة التي يجب أن تكون للخالق فيذهب بها إلى مخلوق مثله. سؤال يستثير الفكر نحو الحقيقة. وفي هذا تأنيب وتقريع وتوبيخ وتعليم، بمخاطبة العقل بما يعقل، وبمحاجة لا يصدها إلا مكابر.

ثم يحذرهم سبحانه وتعالى بالجزاء والعقاب، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ فإن كل نفس لن تؤاخذ إلا بما اقترفت وكسبت، فإن اكتسب شراً فهو عائد عليها، وإن اكتسبت خيراً فلها ثوابه. وهذا تحذير من مغبة اكتساب الإثم بالتمرد والعصيان. ثم يليه تأكيد آخر. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فكل ذنب يكتسبه العبد لا يتحمله غيره عنه. وهذا تأكيد ومزيد بيان، بأن الوزر الذي هو ذنب المذنب لن يحمل عقابه غيره، فلن يحمله عنه أحدُ غيره، فكل نفس مرهونة بما كسبت. فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره، وهذا بيان لعدل العقوبة عند الله العزيز الحكيم، وأن كل إنسان يتحمل وزره، وعقوبة وزره ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ثم بعد حياتكم تعودون إلى الله تعالى يوم القيامة، فيخبركم بما كان منكم في الدنيا من اختلاف في الدين، وفي الخير والشر، والطاعة والمعصية، ليكون الجزاء بعد الحساب.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بحكمته في تتابع خلقه في الدنيا. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعدد الله تعالى على عباده بعضاً من أفعاله وسننه وتدبيره، وحكمته في ذلك ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ فهو الذي جعل بعضكم يخلف بعضا، فيذهب هذا ويأتي هذا، ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: بأن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية، واستخلفكم، فجعلكم خلائف منهم في الأرض، تخلفونهم فيها، وتعمرونها بعدهم، والخلائف جمع خليفة، وهي من قول القائل: خلف فلانٌ فلاناً في داره، يخلُفُه خلافة، فهو خليفة فيها[١] مما يفيد أن من سنن الله تعالى وآياته، عدم الثبات، فالناس يُولدون ثم يموتون، ليأتي غيرهم من بعدهم، وكذلك الأملاك تنتقل من شخص لآخر، فيخلفه غيره فيها، والمكانة والمنزلة تنتقل من شخص لآخر، فيخلفه غيره فيها، فليس فيها ثبات لمن يؤل إليه أمرُ أو مُلكٌ، بل هي تتناقل بين العباد، ليتعظ بذلك المؤمن، ويستدل بها الكافر على سنة الله تعالى وتدبيره عَزَّ وجل، ليتخذ من ذلك عبرة وآية وحجة، فيؤمن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٥٠)

بالذي دبر هذا الكون العظيم. وفي ذلك من الدروس ما لا يحصى، فإذا أدرك المؤمن ذلك، استثمر ما هو فيه من الجاه والمال وما يملك في طاعة الله تعالى، لأنه سيخرج عنه ويؤول إلى غيره، وإن ذهب منه شيء من جاه أو منصب أو مال أو غيره لم يأسف عليه، لأنه تحقق في علمه وفي ذهنه أن مآل كل شيء إلى الغير بالتناقل، وإن حصل غيره على شيء لم يحسده؛ لأنه منقول إليه، ثم منقول عنه.

ثم يذكر الله تعالى عبرة وحجة أخرى، فقال تبارك وتعالى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ فإن ربكم هو الذي جعل التفاضل بينكم سنة وقضاء، فرفع بعضكم فوق بعض، وقد استوفت دلالة ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ قليلها وكثيرها. وهي جمع درجة، مما يفيد كثرتها، واتساعها، وتفاوتها، وتنوعها: في المال، وفي العلم، وفي الأولاد، وفي الجاه، والقوة، والصحة، والعقل، والفكر، والفهم، والحفظ، وغيرها مما لا يحصيه الإنسان من التفاوت في الدرجات والأنواع، وبما يستثير عند الإنسان التساؤل العظيم، وهو من هو الذي جعل هذا التفاوت؟ لتكون الإجابة مباشرة: إنه الله سبحانه وتعالى الذي قضى أن يكون الرفع منه، حيث نسبه إليه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ ثم ما الحكمة من هذا التفاوت؟ إنه للاختبار ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فالحكمة هي اختباركم بهذا ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ فهو الذي جعل هذا التفاوت ليختبركم، حتى يظهر الصابر والشاكر، والقانط، والمتواضع والمتكبر، فيجازي كل واحد بما له وما عليه، وكذلك ليظهر بهذا الاختبار ابتلاء بعضكم ببعض، فهذا يحتاجك، وهذا تحتاجه، وهذا أقوى وهذا أضعف، وهذا يأخذ وهذا يعطي، فيتبين بالتعامل فيما بينكم المطيع لله تعالى والعاصي، لأن لله تعالى شريعته ومنهجه في ضبط التعامل، فيظهر الملتزم به، والمفرط فيه، ومن أغراه ما هو فيه من نعمة، ومن لم يغتر بما أنعم الله تعالى به عليه. فالذي دَبَّر هذا بحكمته هو الله تعالى، الذي يلزم العباد الإيمان به وعبادته طاعته سبحانه وتعالى.

ثم بين سبحانه وتعالى قدرته، وسرعة أمره مع عدله ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ فربك سريع في عقابه لا يأخذ منه وقتاً ولا شيئاً لإنفاذه، فإنما أمره للشيء: كن، فيكون ذلك الشيء بالكيفية التي أراد تبارك وتعالى، فاحذروا عقاب ربكم عَزَّ وجل. وكذلك من صفات ربكم المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ فإن ربكم كثير المغفرة والرحمة، فهو غفور، يغفر الذنوب لمن استغفر وأناب وتاب، واتبع هداه، ومع هذه المغفرة فإنه رحيم، فَيُحسن على عباده بفيض عطائه، وكرمه وجوده وإحسانه، وفي هذا ترهيب من سرعة عقابه جَلَّ جلاله، وترغيب في مغفرته ورحمته. فالحمد لله تعالى على كمال ودلائل أسمائه وصفاته.

فتم بحمد الله إتمام ما يتعلق بسورة الأنعام، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.